

سنتیفن غراهام

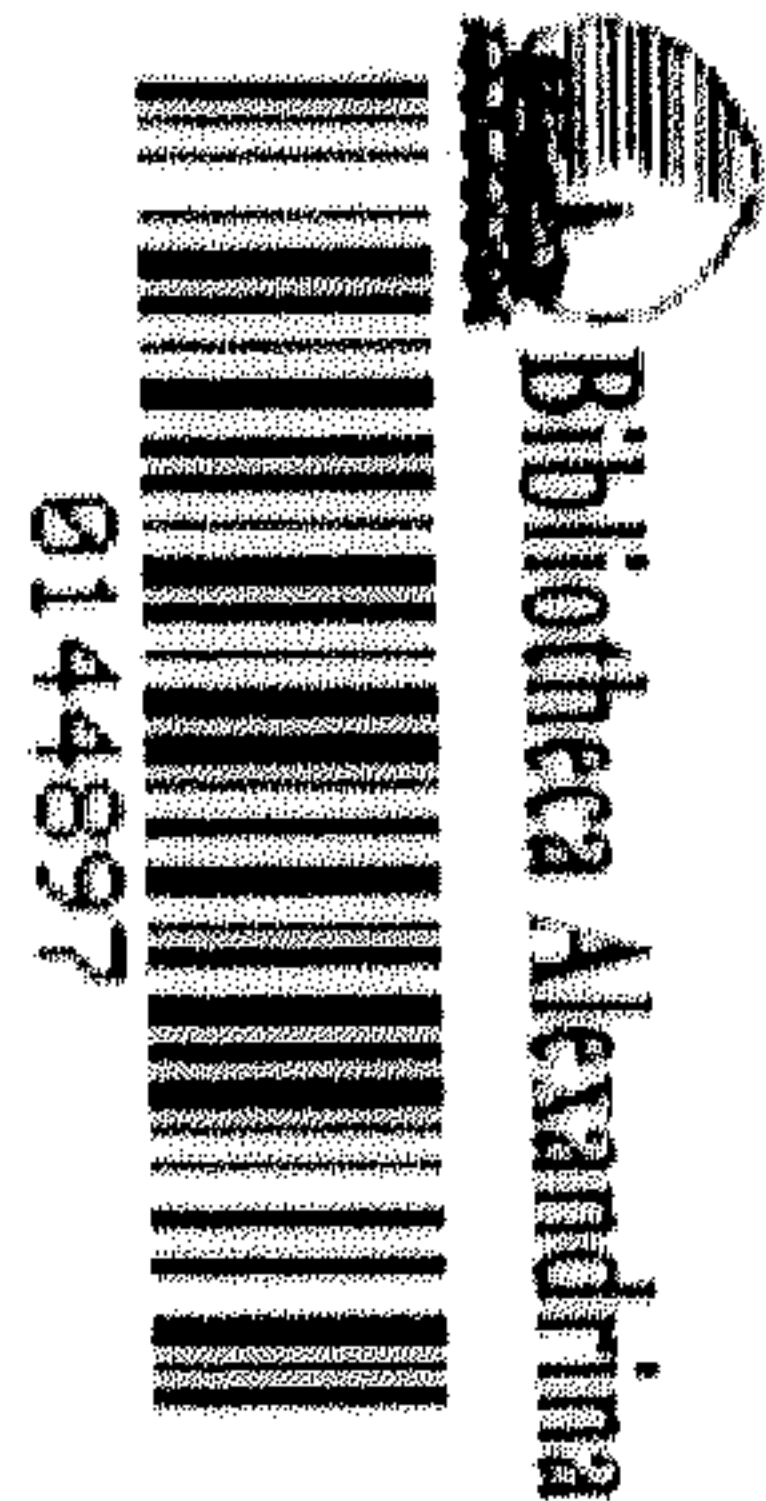


امام العرب

أول القياصة

ترجمة:

يوسف شبيب



ايفان الرهيب
اول القياصرة

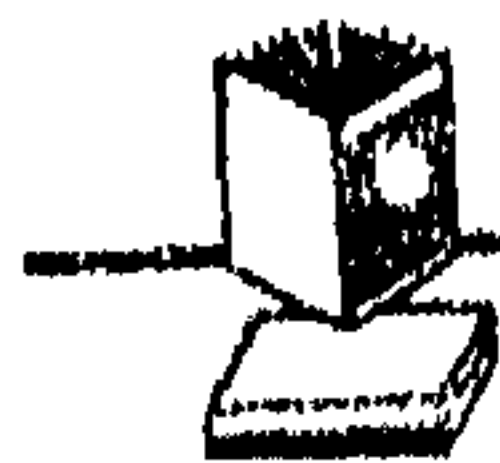
ستيفن غراهام

إيقاظ الرقيب

أول القياس

ترجمته:

يوسف عيسى



منشورات وزارة الثقافة

في الجمهورية العربية السورية

دمشق ١٩٩٦

العنوان الأصلي للكتاب :

Stephen Graham

Ivan

Le Terrible

Le premier Tsar

(1530 - 1584)

Traduit de l'anglais par A.-H. ponte

ايفان الرهيب أول القيصرية = Ivan le terrible / ستيفن غراهام
ترجمة يوسف شلب الشام . - دمشق : وزارة الثقافة ، ١٩٩٦ . -
٢٧٦ ص ؛ ٢٤ سم .

١ - ١٢٣١ : فاسيلفيتش ، ايفان غ ٢ - العنوان
٣ - العنوان الموازي ٤ - غراهام ٥ - شلب الشام

مكتبة الأسد

الايداع القانوني : ع - ١٩٩٦/٦/ ٦٩٩

الفصل الاول

الكريملين

يعتبر نهر موسكفا الصغير الذي يربط الاوكا بالفولغا بداية لطريق مائي يتجه نحو الشرق حتى يصل الى بحر قزوين . وقد بنى يوري دو لغوروكي امير سوزدال في نحو من عام ١١٤٦ حصنا اطلق عليه اسم موسكفا(*) على تلة صغيرة تشرف على النهر وتقع بين سهول تسترها الغابات ما لبث ان تجمعت حوله مجموعة من الاخصاص الخشبية التي اصبحت اصلا لمدينة ستغدو حاضرة كبرى في مستقبل الايام . كانت قرية في بقعة مضيئة من الغابة ما لبثت ان تحولت الى مركز تجاري والكنيسة الاولى التي بنيت فيها كان اسمها «**منقدا سيد الغابات**» ، وبقيت هذه المنشأة الغامضة الواقعة بدون تاريخ في اقصى ممتلكات آل سوزدال في منجى من الدمار خلال مائة عام .

ثم خرج جنكيز خان من آسيا كالاعصار على رأس شعبه من التتر وهو يحرق ويدبح حتى وصل الى ابواب كييف ، ولم يجد هؤلاء التتر المغيرون موسكو في غزوتهم الاولى التي تمت في عام ١٢٢٤ ، اما في غزوتهم الثانية عام ١٢٣٧ فقد احرقوها وقتلوا البالغين وخطفوا الاولاد عبيدا وقضى امير سوزدال نحيبه اثناء القتال ، ثم اتى ميشيل امير نوفغورود وأخو الكسندر نيفسكي الشهير فأعاد بناء المدينة وارتفعت موسكو من الرماد وغدت إقطاعة لأمارة نوفغورود الشمالية ،

* هي التي ستعرف باسم موسكو في الغرب

- المترجم -

ولكن التتر عادوا فدمروها من جديد بعد خمسين عاما من اعادة بنائها حتى قام دانيال امير نوفغورود واعاد انشاءها للمرة الثالثة .

بيد ان المدينة اعيد انشاؤها باذن من البرابرة وغدت محمية للتتر واصبح على اميرها دانيال ان يقدم خضوعه المنتصرين وان يدفع لهم جزية سنوية . وتزوج جورج بن دانيال من اخت الخسان الكبير واستخدم جيشا من التتر في حروبه ضد الآخرين من الامراء الروس فالتصر عليهم ووجد اراضي نوفغورود وسوزدال وغدت موسكو مقمر اقامته مدينة كبيرة .

ووصلت موسكو عن طريق الوراثة الى ايفان الاول امير فلاديمير وشقيق جورج فاضافها الى امارته واستولى ايضا اثناء حكمه على أوغليتش وغاليتش وبيلوزيرسك . وكان السلطان التتري يريد منه ان يجعل فلاديمير عاصمته ولكن ايفان وجد نفسه اكثر انجذابا الى موسكو التي ساهم في تجميلها حتى غدت مدينة بديعة ، وفيها بنى كاتدرائية الصعود Assomption والاوزبنسكي سوبور ورفع حول التلة اسوارا عالية من خشب السنديان . وكان يطلق على هذا النوع من التحصين اسم كريمل Kremlin مشتقا من كلمة تترية . وقد احاطت الاسوار بالكاتدرائيتين والكنيستين وبمقر اقامة ايفان الاول وبيوت اصدقائه وكان هذا هو الكريملين الاول .

وقد احرقت هذه الاسوار الخشبية واعيد بناؤها مرات عديدة . واخيرا في عام ١٣٦٧ استبدل بها سور من الحجارة فظهرت بذلك ارادة روسيا في ان يعظم شأنها وتنتصر على التتر بتغيير المادة التي كانت تستخدمها في البناء ، ولو أنها كانت أمة مستضعفة لقنعت بحصن من الاخشاب . ولم يقتصر الامر على بناء الكريملين بالحجارة وانما جعلت فيه اماكن المدافع . ذلك لان الموسكوفيين . كانوا قد عرفوا استخدام البارود مباشرة بعد بقية الشعوب الاوروبية في الوقت الذي كان فيه التتر لا يزالون يفضلون السهام والحسام .

وكان التتر قد اعتنقوا الديانة الاسلامية قبل اعتناق الروس للديانة المسيحية ، فامتدت بذلك الخصومة بين الهلال والصليب من شمالي افريقيا حتى آسيا واوربا ، والحرب المقدسة التي انتهت مع آخر حملة صليبية عام ١٢٧٠ تابعت مسيرتها بعد ذلك في روسيا خلال مائتي عام . وعلى الرغم من ان دوقات موسكو الكبار Grands-Ducs كانوا تابعين للقبيلة الذهبية(*) ، فان الحرب كانت تتوالى على الرغم من هذه التبعية . وكان اشهر المتمردين ديميتري الذي كانوا يسمونه دونسكوي بعد انتصاره الكبير على السلطان مامي على ضفاف الدون . وكان ديميتري جنديا صاحب رؤى يؤمن بشعائر دينية كما يؤمن بقوة السلاح ، وقد حمل معه الى المعركة ايقونة السيدة العذراء .

كل ذلك جرى في عام ١٤٣٠ .

اما الفراندوق التالي الذي عقد له لواء الشهرة فكان إيشان الثالث (١٤٧٢) الذي مد حدود موسكوفا الى الشمال الشرقي حتى مصب البتشورا في المحيط المتجمد الشمالي واستولى على بيرم Perm وثار على القبيلة الذهبية .

وكان التتر يستخدمون غراندوقات موسكو من أجل فرض الضرائب . وعلى الرغم من الانتفاضات الدورية التي كانت تقوم بها موسكو وما تحرزها على ظالمها من انتصارات بين الآونة والاخرى فإنها كانت تدفع لهم دائما إتاوة هامة ثمنا لامتيازاتها واستقلالها الذاتي ، وكان التتر والسلاف كلاهما - مؤيدين بقوة السلاح - يفرضون الضرائب على بقية المدن الروسية . وقد فرس نير التتر نفسه ما بين عامي ١٢٣٧ - ١٤٨٧ دون انقطاع على روسيا ، وشهد عام ١٤٨٧ أول تمزيق لسلطان القبيلة الذهبية . فقد كان التتر قد علموا الموسكوفيين الضراوة والشراسة وجعلوهم يتقاتلون فيما بينهم من أجلهم وعاشوا على حسابهم خلال

* القبيلة الذهبية هي القبيلة التتارية التي كان لها لواء السلطة في روسيا - المترجم -

قرون ، ولكن هذا النظام أضعفهم وقضى على ما فيهم من صفات الشجاعة والإقدام . وهكذا تجرأ إيثان الثالث على أن يرسل هدايا بدلا من الإتاوة المعتادة ، وردا على مطالب الخان قضى بإعدام من أرسلهم اليه من السفراء . فلجأت القبيلة الذهبية عندئذ الى السلاح ، ولكنها عندما أصبحت في مواجهة الجيش الموسكوفي أدركها الخوف ورفضت القتال وقام جنود الخان فقتلوه .

وبعد ذلك استولى جيش إيثان على قازان واختار من بين التتر واحدا لحكم مقاطعة الفولغا ، وازدادت قوة موسكو زيادة عظيمة وأضاف إيثان الثالث الى شعرائته النسر ذا الرأسين الذي يتطلع الى الغرب والشرق ، الى أوروبا وآسيا في الوقت نفسه . ومات إيثان عام ١٥٠٥ تاركا ابنه فاسيلي الثالث وريثا له من بعده .

وفاسيلي الثالث هذا هو والد إيثان الرهيب . وكان قد تزوج من امرأة روسية ، ولكن بما أنها لم تنجب له ولدا خلال عشرين سنة من الزواج فإنه أدخلها أحد الأديرة وتزوج امرأة ليتوانية اسمها هيلين غلينسكي تنسب الى عائلة كاثوليكية ، لذلك لم تعترف الكنيسة الأرثوذكسية بهذا الزواج ولم تشأ أن تعترف بطلاقه من زوجته الأولى . عند ذلك لجأ فاسيلي الثالث الى بطريرك القدس يطلب منه الرأي ، فلم يعترف هذا بدوره بالزواج بل تنبأ له كما يروى بأوخم العواقب : « سيكون ابنك خبيثا وسيجتاح الرعب ممتلكاتك وستجري أنهار من الدم وستدل رؤوس الأسياد وتفترس مدائنك النار » .

وقد دام حكم فاسيلي الثالث عشرين عاما عاد خلالها التتر الى قرب أبواب موسكو فأبعدوا عنها بالأموال وعقد الدوق الكبير معاهدة جديدة اعترف فيها بتبعيته لهم . ونهب التتر البلاد وعادوا محملين بالغنائم عندما هاجمهم قويغود أمير رязان فهزمهم وأجبرهم على عقد الصلح ولم تعد موسكو تدفع الجزية وأصبح بإمكانها أن تغدو أمانة أوروبية منذ ذلك الحين .

أصبحت المدينة الآن على سعة كبيرة ، فهي تضم مائة ألف من السكان يسكنون في أربعين ألف منزل . وكانت ترتفع فوق سور الكرملين ذي الفتحات أبراج بيض ، وتبدو من خلفه قباب الكاتدرائيات المذهبة والاستقف المسطحة لمنازل الأمراء والقصور . وإلى أسفل هذه المدينة ومن حولها كانت تمتد موسكو الخشبية حيث يسكن الشعب وحيث يمتد محيطها غير المحصن إلى ما لا يقل عن عشرين كيلو متراً . وكان يخرقها شوارع عريضة بعضها مبلط بالآخشاب وبعضها الآخر يبدو في معظمه في فصل الصيف وكأنه أنهار من الوحل . ويمكن للمرء أن يرى فيها سوقاً مفتوحة ومخازن وحوالي ستين كنيسة .

وعلى الرغم من النزيف الذي جعل ثرواتها تذهب خلال قرنين من الزمان إلى القبيلة الذهبية فإن موسكو غدت في رغد من العيش . فقد كان يوجد بين أسوار الكرملين كنوز ضخمة من الذهب والأحجار الكريمة وضعت بخاصة تحت حماية الكاتدرائية كما كانت توجد صور رائعة الإعجاز . وكانت السجف ذات النسيج الذهبي تزين كل منازل النبلاء . و ثياب الدوق الكبير الذي لم يصبح قيصراً بعد كانت بالغة الجمال ، وبلاط موسكو كان يتمتع بأبهة بربرية ما لبثت أن اغتنت وأصبحت أكثر غموضاً بما أدخل عليها من ترف بيزنطة واحتفالات الكنيسة الأرثوذكسية .

وكان النبلاء يأكلون في صحاف دقيقة من الذهب ويشربون بأكواب من المعدن نفسه . وفي داخل الكرملين في القصور والكاتدرائيات كنوّم من الذهب أكثر مما يوجد منه نسبياً في أي مكان آخر ، فحب الذهب ولون الذهب الذي يبدو في أجلى مظاهره في الإيقونات كانا يميزان روسيا الحديثة التي عرفت من التتر قيمة الذهب المعبر عنها بالدم .

بعد تحررها من نير التتر ولدت روسيا الحديثة . وكانت تمتد من الفولغا الشمالي إلى الدنيير ومن المحيط المتجمد الشمالي إلى الدون . كانت روسيا بدون سيبيريا وبدون سهوب الفولغا ولا القوقاز والقرم

وأوكرانيا الغربية وبدون البلاد الواقعة على سواحل البلطيق . ومع ذلك كانت دولة قوية مؤلفة من مساحات شاسعة اندرج أمراؤها الصغار تحت لواء دوقات موسكو الكبار واعترفوا باندماج ممتلكاتهم في إمارة موسكو . وكان سكانها من الجنود والفلاحين والحرفيين والتجار والكهنة والرهبان . وكانت الأرض تعطي مواسم غنية والشعوب لا تعرف الجوع . وكانت التجارة تجري قصراً مع الشرق حتى وصلت الى بكين البعيدة نفسها واتصلت مع قوافل آسيا الوسطى بواسطة الطرق المائية الكبرى . وعلى رأس الجسر التجاري الداهب الى الشرق كان سوق نيجني نوفغورود الكبير الواقع عند التقاء الفولغا بالوكا . وفي قوانين التجارة وتقاليدها استمر نفوذ التتر العميق . وكان الفلاحون في الشمال أحراراً بينما تارجح فلاحو الوسط والجنوب في حالة وسط بين الحرية والعبودية غير قادرين على أن يدفعوا ضرائب ولا حقوقاً إقطاعية . وكان التقليد هو القانون وقلما كان مكتوباً . وكان الأمير وملاك الأراضي هم أنفسهم القانون في معزل عن رؤوسهم . وديانة الشعب كانت مسيحية لا تزال متأثرة بالوثنية يضاف إليها إيمان بالخوارق دائم الوجود . وكانت الكنيسة تحت نفوذ آبائها البداة تقشفية نسكية الى أقصى الحدود تهتم بسر الموت وبمكانة القديس في الحياة الدينية .

ولم تكن ثمة مشاعر فروسية ولا تصرفات مهذبة تغطي الكذب والبهتان . فالشعب من أعلاه الى أدناه كان محتالاً مراوغاً متشدداً . وفي بعض الأحيان ماهراً واجتماعياً ولكنه بدون حساسية زائفة محروسة صاخبة كان قادراً على القيام بأعمال بربرية نادرة .

ولم تكن مكانة دوقات موسكو الكبار مجرد وظيفة ليس وراءها عمل . فالدوق الكبير كان سيد الجميع وما يملكه كان يملكه عن حق وهو مكلف بأن يحميه بقوة السلاح وبالمهارة والإرهاب . وكان يتخذ مكانه على عرش مرتفع جداً فوق النبلاء ولا يحرم نفسه من المحادثات المرححة ، وهو يضع تاجه ويمارس سطوته في كل مرة يتوجب فيها أن يفرض الخوف والرعب .

الفصل الثاني

هيلانة الليتوانية

كانت هيلانة فتاة ليتوانية بارعة الجمال لجأت الى بلاط روسيا مع ميشيل فلينسكي عمها والوصي عليها . كانت سمراء مندفعة ذات ثقافة عالية وطباع غريبة ، منعتقة تتمتع بحريات كانت في موسكو أمراً شديداً الجدة ، فاجتذبت بذلك رغبات الفرانكوف العجوز حتى أنه من أجل إرضائها خلق ذقنه .

وكانت حياة الأمير تسير سعيدة رضية الى جانب زوجته سالومي ، ولكن السنين كانت قد تركت أثرها في هذه الزوجة فأراد أن ينفصل عنها ووجد لذلك الحجة المناسبة في أن زواجهما كان عقيماً ولم تخلف منه ولداً . وذهبت محاولات النبيل سيمون كوربوسكي في الدفاع عنها ادراج الرياح ، وتوجب عليها أن ترتدي النقاب الأسود بينما ارتدت هيلانة النقاب الأبيض لتصعد الى عرش موسكوفا وتدخل في سرير القيصر .

وفد جرى زواج قاسيلي وهيلانة يوم عيد الصعود في ١٥ آب اغسطس لعام ١٥٢٦ . وقبل الاحتفال تم رشتهما بحشيشة الدينار فالأول للخصوبة وتعرضا للتهوية بفراء السمور رمزاً للحياة الطويلة . وبعد الاحتفال اضطجعا في السرير علانية أمام الحضور وناما على مرتبة ممتدة فوق سبع وعشرين حزمة من الشيلم . ثم تقدمت نحوهما امرأة هي زوجة قائد الحرس حاملة معها ردائين من الفراء كان أحدهما مقلوباً

واخذت ترشهما أيضاً بحشيشة الدينار . ولكن السحر لم تكن له نتيجة . ففي الوقت الذي حددته الطبيعة لم يطرح الاتحاد نماره وربما كان الخطأ من الزوج أكثر من أن يكون من الزوجة . عند ذلك تدخل عدد من القديسين يتشفعون بصلواتهم على الرغم من عدم اعتراف الكنيسة بالزواج ، كما صلى عدد من الرهبان على نية مجيء الفلام . واجترح الراهب پافنوتي معجزة كانت سبباً في رفعه الى مرتبة القديسين فيما بعد ، فقد أصبحت هيلانة حاملاً وولدت في الخامس والعشرين من آب أغسطس عام ١٥٣٠ إيذاناً بالرهيب .

وكان فرح فاسيلي الثالث بهذا النبأ اكبر من فرح البلاط . وكان لهيلانة عصبتها التي كان رئيسها عمها ميشيل غلينسكي ومولد وريث للعرش كان يطرد ادعاءات بقية الأمراء وطموحاتهم الى المكانة الثانية . ومن جهة أخرى كان فاسيلي الثالث عجوزاً ولم يكن مقدراً له ان يعيش طويلاً ، واحتمال وجود دوق طفل تحت وصاية وصية ليتوانية لم يكن ينبىء في الكريملين لا بصداقة ولا بسلام .

وفي خلال ذلك كان حسن الحظ يوالي رعايته للدوق الكبير في هذا الزواج . فبعد ثمانية عشر شهراً ولدت له هيلانة طفلاً آخر هو يوري وبدأ في شيخوخته يتذوق نعماء الحياة العائلية ومساوئها . وكان يبدو سعيداً فرحاً . وبعد بضعة أيام من ثالث اعياد ميلاد إيذان الصغير قرر الشيخ أن ينذر نفسه للعبادة والصيد وأن يأخذ امراته وعائلته الى دير سيرجي ترويتسكي الواقع على بعد حوالي خمسين كيلو متراً الى الشمال من المدينة . واتخذ طريقه في الخامس والعشرين من ايلول سبتمبر عام ١٥٣٣ مع كلابه ورماته يتبعه فرسان يحملون الماري بغية الصيد اثناء الطريق والوصول الى الدير عشية عيد ميلاد القديس سيرجي . وكان الدير الشهير يعج بالحجاج القادمين من كل انحاء موسكوفا . وقد صام الدوق الكبير وزوجته وحضر القداس الكبير وتلقيا مباركة الارشمندريث ثم تابعا طريقهما يملا قلبهما السرور وتبعهما

حرسهما من الصيادين عبر الغابة باتجاه مكان يسمى قولوك لامسكي ،
ولكن إصبع الموت لمست فاسيلي فجأة أثناء الطريق .

كان يتألم وهو يمتطي جواده ، واكتشفوا أنه يعاني في ثنية فخذه من
ورم متقيح ذي لون بنفسجي . ولم يستطع أن يبلغ بيت إيفان بودز
هوجين إلا بعد لأي ، وكان إيفان هذا أحد رجال حاشيته المفضلين وقد
دعاه الى وليمة في بيته . وعند وصوله ساعدوه على أن يأخذ حماماً
ساخنًا لم يخفف عنه شيئاً من آلامه لدرجة أنه لم يتمكن من الانضمام
الى مضيفيه وإنما قدم له الطعام في غرفته . واستمر به الألم . وفي
اليوم التالي الذي كان يوماً جميلاً وصالحاً للصيد قاوم الألم لأنه كان
لا يزال يتدوق بحرارة لذة الحياة . فأرسل في طلب أخيه أندري . وفي
اليوم الذي يليه خرج معه من قرية كولب مع كلابه ولكنه كان ضعيفاً
وانتابه ألم شديد أجبره على العودة الى سرادق الصيد في كولب حيث
لزم الفراش .

عند ذلك استدعت هيلانة عمها ميشيل غلينسكي وطبيبين أجنيين
كانا يمارسان مهنتهما في البلاط الروسي . ووضع الطبيبان على مكان
الألم كمادات من العسل الطازج والدقيق والبصل المشوي حتى نضج
الدمتل وخرج منه الكثير من الصديد ونقل الدوق الكبير من كولب الى
قولوك لامسكي على يد نبلائه على محفة وهناك تابع الطبيبان عملهما في
وضع الكمادات حيث خرج من الدمّل صديد جديد . وأمرأ بأن يقدم له
ملين مصنوع من البلور لم يكن من نتائجه إلا أنه زاده ضعفاً على ضعف .
وازداد الألم زيادة كبيرة وامتد حتى أصبح الآن يشكو من صدره وأصبح
تنفسه صعباً وينتابه الكثير من الأوجاع .

وفي هذه الحالة أرسل فاسيلي الى موسكو مانسوريف رجل
القانون والكاهن پوتياتين ليأتيا له منها سراً بوثيقتين إحداهما وصيته
التي يعود تاريخها الى بضع سنوات خلت والثانية وصية أبيه إيفان
الثالث . وعند إحضارهما قرئتا له بصوت عال وبحضوره هو وحده ثم

أمر بعد ذلك بإحراقهما . وحافظ المقربون على سر أن الدوق كان على فراش الموت وإن كانت إشاعة مرضه قد انتشرت في الخارج ولم يكن في قدرة أحد إخفاؤها . واخذ النبلاء يتوافدون على قواوك لامسكي . ووجدت هيلانة صعوبات كبيرة في إقناعهم بأن مرض زوجها لم يكن إلا وعكة بسيطة . ووصل يوري أخو قاسيلي الذي كان مرشحاً محتملاً للعرش ولم يكن في قدرة أحد إرغامه على المغادرة كما بقي أندريه الأخ الأصغر للدوق الكبير .

وكانت فتحة الدمى الآن قد أخذت مظهراً مشؤوماً ووصل عرضها بحيث تستطيع أن تدخل فيها اليد . وكانوا يخرجون منها الصديد ملء أقذاح ، ولكن الأمير بقي متمسكاً بالحياة وأصدر أوامره بأن ينقل أولاً إلى دير سان جوزيف ثم بعد ذلك إلى موسكو . وحمله النبلاء على سريرته ووضعوه في كنيسة الدير أمام المذبح واجتمع حوله كثير من الحضور بما فيهم هيلانة وولداها وصيادون وجنود ونبلاء وكهنة سود في اضطراب كبير يصلون وينتحبون ويحسبون حساب المستقبل .

ومع ذلك فإن أجل قاسيلي قد طال زمناً غير مسقول احتفل فيه بصفاء ذهنه واستمر في إصدار الأوامر التي كان ينبغي إطاعتها . وكانت رغبته هي أن يعود إلى قصره في الكرملين . ووجب على النبلاء أن يحملوه على محفة وينقلوه من جديد . وكانت بوادر الثلج قد بدأت بالهطول . وعلى جبل العصافير وضع الأمير على زحافة تجرها خيول هادئة . وكان قد بنى جسراً جديداً على نهر الموسكفا ليتمكن من دخول المدينة من مكان قليل الازدحام كي يكون بذلك بعيداً عن عيون الفضوليين . ولكن ما أن وضعت الخيول أقدامها على هذا الجسر الجديد حتى انكسر . وعلى الرغم من حوادث أخرى كثيرة جرت لقاسيلي خلال رحلته الأخيرة هذه فإنه وصل سالماً في الخامس والعشرين من تشرين الثاني نوفمبر عام ١٥٣٣ إلى بيته ضمن جدران الكرملين .

وكانت الشقة التي يسكن فيها الدوق الكبير أشبه ما تكون بشقة حديثة . ففي الطابق الأساسي من القصر كانت توجد ثلاث غرف متصلة ببعضها هي غرفة انتظار وقاعة استقبال وغرفة طعام مع غرفة نوم في الخلف وكنيسة صغيرة متصلة بها . أما المطبخ وغرف الخدمات فكانت موجودة في الأسفل ، وأما في الأعلى فكانت توجد صالة كبيرة لا تستخدم إلا قليلاً . وكانت غرفة الحمام قد وضعت في بناء منفصل ومعها جناح الأولاد .

وقد اصطحب فاسيلي معه فاسيلي شويسكي وميشيل زاخارين وميشيل مورونتسيف ويطرس غولوفين والقهرمان(*) تشيفونا . وفي حضرتهم أملى وصية جديدة قام بكتابتها بوتيائين . ثم استدعى بعد ذلك كلاً من إيثنان شويسكي وميشيل توشكيف وعم هيلانة ميشيل غلينسكي وحضر المقابلة أخوه يوري دون أن يكون مدعواً إليها ، ووصل المتروبوليت دانيال مع كبير الكهنة الكسييف الذي كان يحمل معه العنصرين المقدسين الخبز والخمر .

عند ذلك نهض المريض من مرقده واتخذ كرسيًا له ثم مالئث أن نهض من جديد مستنداً على ذراع زاخارين وبقي واقفاً ليتناول الخبز والخمر . وبعد ذلك بكى وأعيد إلى السرير ، وكان ضوء النهار الباهت يضيء عبر نوافذ الميكا النبلاء والكهنة المجتمعين في غرفة النوم يدثرهم دخان البخور ويهيمن عليهم ظل الموت . وكان فاسيلي يمسك في يده صليباً يستمد منه القوة لتحمل آلامه فاستدعى إلى قرب سرير أخويه أندري ويوري والمتروبوليت دانييل بينما بقي النبلاء في معزل عنه ، وفي حضورهم أعلن الدوق الكبير إرادته رسمياً في أن يكون العرش لابنه إيثنان وألزم أخويه لراحة نفسيهما بأن ينفذوا وصيته وأن يعتبروا كل عدو لأولاده عدواً لهما . ثم توجه إلى الحضور من النبلاء بالكلام نفسه .

* القهرمان وكيل الأمير الإقطاعي - المترجم -

وعهد بزوجته هيلانة الى عمها ميشيل غلينسكي قائلاً له إنه لم يعد غريباً وان عليه ان يعتبر نفسه جزءاً من الامة الروسية .

وأخيراً أطلعهم على الرغبة التي كانت تعتلج في نفسه منذ بعض الوقت وطلب منهم ان ينزعوا عند تاجه ليتمكن من ان يكرس راهباً ويذهب إلى السماء كرجل قديس . ثم عاوده الالم وعاد يطلب الدواء . وأراد زاخارين ان تسكب القودكا على جرحه ولكن الأطباء لم يوافقوا على ذلك شارحين بصراحة أنه لم يعد ثمة جدوى من الدواء وأنه لم يعد ينفع إلا ان يوصوا فاسيلي بالصلاة . ووصل رئيس دير سرجي ترويتسكي وعهد الدوق الكبير بابنه إلى عناية سرجي صانع المعجزات وأتى الأمير ميشيل غلينسكي بالطفل إيثان بين ذراعيه الى أبيه ليمنحه بركته ورضاه وأتت هيلانة أيضاً تسكب الدموع الغزيرة ويسندها اخو زوجها الشاب أندريه . وعندما توقفت دموعها لحظة عن الانسكاب أخبرها الدوق الكبير بأن ابنها سيخلفه على العرش بموجب وصيته وان مكانتها تمت المحافظة عليها باعتبارها أما ووصية بحسب التقاليد المتبعة في عرش موسكو . فطالبت بأن ينال ابنها الصغير يوري أيضاً مشاركة أبيه ورضاه ، وأتى بالغلام وباركه أبوه كما فعل مع أخيه . وبدأ كان فاسيلي أراد أن يكون متماسكاً أمام زوجته ولكن نحيبها كان موجعاً لدرجة أنه لم يكن يستطيع أن يتحمل سماعه . وفي هذه اللحظة اختفى عنه كل ألم وشعر بذلك الهدوء الذي يسبق عادة كل وفاة .

وقد جلبوا له أكثر الإيقونات العجائبية شهرة مثل إيقونة نوتردام وإيقونة فلاديمير وكذلك ذخائر الشهيدة الكبيرة كاترين ، وبعد ان قدم لها خشوعه وولاءه سأل المتروبوليت دانيال أن يكرسه راهباً ، واعترض على ذلك أخوه أندريه ، وبقية النبلاء ولكن المحتضر أصر على رغبته مشهداً عليها كل الحضور . وكان يحتضن حاشية غطاء السرير الذي ينام تحته ويرسم دائماً علامة الصليب دون ان يترك صورة عدراء فلاديمير تغيب عن نظره . وأتى دانيال برداء أسود ذي قلنسوة مما يلبسه

الرهبان فغمغم قاسيلي : « إذا كنت لاتستطيع أن تكرسني راهباً فضع على جشتي على الاقل ثوب الرهبنة عند دفني دلالة على رغبتني الأخيرة » .

وكان أخوه أندريه والنسبيل فورونتسيف لايزالان يعارضان ، ولكن المتروبوليت قال لهما : « إن طبقاً من الفضة ثمين ولكن طبقاً من الذهب ائمن منه ، فإذا كنتم تمنعونني من أداء هذا العمل الصالح فإن بركتنا ستمنع عنكم » ، عند ذلك خرجا وتركا قاسيلي بين يدي الكنيسة . وقد أحضروا له عرشه وغدا قاسيلي الثالث راهباً باسم الراهب قارلام . ويروي تشيفونا بودز هوجين الذي كان حاضراً لحظة الوفاة أن روح المعجوز فارقتة على شكل غيمة خفيفة .

وقد ألبسوا جسد الفقيد أبسط ثياب الرهبان ومدوا فوق السرير غطاء من الحرير الأسود وعرض قاسيلي الثالث في ابهة عظيمة وزاره كل الدين أرادوا أن يقدموا له القبلية المسيحية التي تدل على المسامحة والوداع . وظهرت موسكو ألها بالأغاني الحزينة والدموع التي لم تكن تخلو مع ذلك من صدق وتأثر أمام رهبة الموت القديمة وتقاليد الحداد ، وعندما علمت هيلانة بوفاة زوجها سقطت في إغماء دامت ساعتين كما يقال . ولم يكن ذلك يعني أنها كانت تعاني من حزن غير قابل للعزاء ، ولكنها شعرت أن من الأسلم لها أن تكون في حالة إغماء من أن تنخرط مباشرة في دوامة الأعمال .

وحفر النبلاء حفرة ووضع جسد قاسيلي في تابوت وحمل على اكتاف عدد من رهبان دير سيرجي ترويتسكى ونقل بالأناشيد والتراتيل إلى مشواه الأخير في كاتدرائية سان ميشيل أرشانج . ودق ناقوس الكريملين الكبير دقات الحزن للتعبير عن الله خائناً بذلك أغاني رجال الدين ونحيب المنتحبين ، وكان ذلك في الخامس من كانون الأول ديسمبر عام ١٥٣٣ .

وجفت هيلانة دموعها بسرعة وغدت ملكة روسيا النشيطة . وفي خلال أسبوع واحد كان الأمير يوري قد تم اعتقاله ، فلو ان الزواج الثاني لفاسيلي الثالث لم يتم لكان يوري قد أصبح هو الدوق الكبير . وكان يوري في سن ناضجة ويتمتع بخبرة كما يتمتع بمحبة النبلاء . وكان قد أقسم يمين الولاء للطفل إيثان الذي سد عليه الطريق ولكن أندريه شويسكي وعدداً من النبلاء كانوا يريدون أن يفسخ قسمه ويستولي على السلطة . أما أن يكون يوري غير راض فهذا أمر أكيد ، ولكن أحداً ما كان يدري الى أين سيقوده هذا الاستياء . وهكذا اتخذت الوصية هيلانة قرارها الحازم وأوقفت أيضاً كلاً من الأميرين إيثان شويسكي وإيثان بيلسكي وأوصدت عليهما الأبواب السجن .

وكان ينبغي بحسب طبيعة الأمور أن يكون ميشيل غلينسكي هو السيد الحقيقي وأن تكون هيلانة حاكمة بالاسم على إمارة موسكو ، ولكن موت فاسيلي أذاع سراً كان خافياً من قبل هو أن هيلانة كانت عشيقة للأمير إيثان أوبولينسكي . وكانت هيلانة حرة الإرادة مندفعه وحازمة فأرادت ألا تخضع لنصائح وصيها القديم ولا تعود الى سنوات طفولتها ، فدفعت بذلك أوبولينسكي الى المقام الأول ليقف في وجه العم المزاح .

وقد رأى غلينسكي كما رأى معه ميشيل فورنتسيف ونبلاء آخرون في حكم امرأة ضعيفة فرصة مناسبة للقفز الى السلطة ، ولهذا لم يعارضوا في وضع يوري في غياهب السجن لأنهم بذلك قد تخلصوا منه . ولكن ترفيع أوبولينسكي الى المقام الأول فاجأهم مفاجأة مزعجة . وكان الأمير أندري أخو فاسيلي المفضل مستاءاً أيضاً . وكان قد بقي في موسكو من أجل الاحتفالات الجنائزية التي تجري بعد أربعين يوماً من الوفاة وصلى من أجل راحة فاسيلي الأبدية . وقد طلب من هيلانة أن تمنحه مزيداً من الأراضي ولكنها لجأت الى إشغاله ببعض الهدايا كالفرء والكؤوس والخيول والسروج ثم ذهب في سبيله الى ممتلكاته في ستاريتسا حيث كان يرتفع حصن منيع . وكان منكسر المخاطر من مكانته الهزيلة

في الأمانة ويخشى أيضاً أن يناله ما نال أخاه يوري من مصير . وفي الكريملين كما في كل البلاد كان يوجد حزبان أحدهما حزب أوبولينسكي والثاني حزب غلينسكي . وما لبثت أن نظمت مؤامرة للتخلص من المحظي أوبولينسكي وسجن هيلانة في أحد الأديرة ، ولكن المحادثات فيها استنفدت كل المجهود فلم يكتب لها أن تظهر إلى حيز التنفيذ . وفي شهر آب أغسطس من عام ١٥٣٤ اتخذت الوصية قراراً أوقفت بموجبه غلينسكي وزجته في زنزانة حتى ذاع خبر موته خطأ في كل مكان . وفي الوقت نفسه سجن نوردنتسيف وعدد من النبلاء المستأثمين الذين كانوا قد تورطوا في العصيان .

وشهد الشهر نفسه الذكرى السنوية الرابعة لمولد إيثان . واتخذ الفرانديك الصغير مكانه على عرش وعلى رأسه تاج وفي يده صولجان عليه رسومات منمنمة وهو يرتدي الذهب والفضة وقابل في زيه هذا النبلاء الذين كانوا يسجدون أمامه كما يسجدون أمام إله . فلو أن أباه كان حياً لترعرع الغلام في دعة وعزلة ، ولكن إيثان منذ يفاعته الأولى اتخذ مكانه بين الراشدين . وكان هؤلاء الرجال أتباعه وهو محل اهتمامهم وتفكيرهم ومركز منازعاتهم . وفي سنوات يفاعته الأولى كان هذا الطفل الذي سيصبح القيصر الرهيب نشيطاً ماهراً ومحجوباً وبدأ أنه كان يحب أولئك الذين يحبونه ولكنه بقي بارداً ومتحفظاً جداً تجاه الآخرين .

أما هيلانة فكانت امرأة غيورة وأدت بها الغيرة إلى العنف . وكان بإمكانها أن تحافظ على مكانة إيثان بفطنة أكبر . فلم تكن تعرف الراحة عندما كانت تدرك أن مدعيها ممكناً للعرش كان مطلق السراح . وكان بإمكانها على الأقل أن تثق بالأمير أندريه الذي كان محباً وعطوفاً وخالياً من كل طموح شخصي وأن تجد فيه ضماناً أفضل لمستقبل إيثان مما تجده في عمها غلينسكي . أما عشيقها أوبولينسكي فلم يكن لديه كفاءات كبيرة . وقد سجن أقوى رجلين في البلاد هما الأميران يوري وغلينسكي

وجعلت نفسها رقيبة على أعمال الأمير اندريه بواسطة جواسيس تلتفت منهم تقارير عن أسباب استيائه . ثم أمرت بأن يحضر الى البلاط . ولكنه بسبب خوفه تظاهر بالمرض مدعياً وجود عاهة مشيرة الى عاهة هب دمل في احد فخديه . فابلغها جواسيسها بان ذلك ام يكن مصححاً . وكان يمكن لهذه الكذبة أن تعتبر نوعاً من التمرد اولا انه يمكن من مصالحتها . وكاد إيشان أن يصبح محروماً من عم صالح وسديق وإن كانت هيلانة لا ترى فيه هذه الصفات بل كانت ترى في الأمير اندريه زعيماً محتملاً لثورة يمكن أن تقوم . وفي خلال ثلاثة أعوام تبادلت معه رسائل غاضبة ثم استمرت بوضعه تحت رقابة جواسيسها . وعيناً حاول ان يطلق على نفسه لقب خادمها المخلص لأنها لم تكن تشق فيه . واخيراً علمت بأنه يهيء نفسه للفرار الى مدينه حمصينة كنوفغورود او ان يلجأ الى ليتوانيا لكي ينتظر الفرصة هناك بان يعود منها عوده المنتصرين . فارسلت اليه مبعوثين من الكنيسة هددوه بالحرمان إن لم يأت الى موسكو للمصالحة ولكنهم كانوا متبوعين بجنود لم يكن مبتغاهم منه موضع شك . عند ذلك سارع بالرحيل مباشرة الى نوفغورود وجمع حوله للدفاع عنه ما وجده بين يديه من الأصدقاء .

ووقف الى جانبه جيش من الملاك المقاريين والفلاحين . وتوجه اوبولينسكي بجيش آخر لقتاله حتى كادت الحرب الأهلية ان تنفجر في منطقة الفولغا الأعلى . ولم يكن جيش الأمير اندري قويا وربما لم يكن في إمكانه أن يصمد لتجربة القتال . ولكن رئيسه لم يكن على كل الاحوال يرغب أبداً في العراك لأنه كان مسالماً يرغب في الصلح وربما كان ضامناً في نظر العصر الذي كان يعيش فيه . ويقال إنه بعد ان تلقى من اوبولينسكي قسماً بأنه سينفى عنه وافق على الاستسلام ولم يجبر المعركة المنتظرة لأن الأمير استسلم لموسكو بكل هدوء ووصل اليها يوم الخميس وفي يوم السبت كان قد ألقي به في السجن حيث قتل فيه بكل قسوة وعنف . أما انصاره فقد أحبط بهم وعذبوا تعديباً شديداً بعد ان تعرضوا في البدء لجلد السياط ومات بعضهم في السجن تحت العذاب

بينما علق حوالي ثلاثين منهم في حبال المشانق التي نصبت على مسافات متساوية على طريق موسكو نوفورود الكبير . واعتقلت زوجة الأمير اندريه وابنه أيضاً وزج بهما في السجن ؛ وحدث كل ذلك في حزيران يونيه عام ١٥٣٧ .

وهكذا وجدت الوصية ذات النظر القصير نفسها وقد أزاحت المطالبين المحتملين بالعرش دون أن تنتبه إلى أن سلامة ولدها إيفان أصبحت تتعلق بها وحدها بعد أن خلقت له كثيراً من الأعداء . وبما أنها كانت أجنبية كان من الصعب عليها أن تبني لها صداقات متينة بين نبلاء روسيا حيث كانت النوايا سيئة تجاهها وبخاصة بعد أن قتلت الأمير اندريه وسجنت زوجته ووريثه . وبعد تسعة أشهر من هذا الحادث القاسي المؤلم وصلتها إليها نفسها ضربة المنون عن طريق السم فماتت وهي تعاني أشد الآلام .



الفصل الثالث

طغيان آل شويسكي

كان الأمير فاسيلي شويسكي الذي استدعاه الفراندوق فاسيلي الثالث الى قرب سريريه وهو في حالة النزاع في الكريملين كان أحد النبلاء الأكثر قوة في روسيا . فهو سليل اسكندر نيفسكي وربما كان متحدرًا من أرومة أكثر شهرة من أرومة الفراندوقات أنفسهم . وكان من المهارة بحيث نجا من كل شك بخيائته على خلاف قريبه أندريه لأنه كان أكبر سنا وأوسع حيلة من معظم أولئك الذين كان يتكون منهم بلاط الوصية . أما ان يكون له يد في تسميم هيلانة فهذا ما لا نستطيع ان نعرفه . ما نعرفه انه استولى فوراً على السلطة ورمى في السجن بعشيق هيلانة الأمير إيثان أوفشينا تيليبنيف أوبولينسكي . ونحن نعطي هنا اسمه كاملاً لأنها لن تكون المرة الأخيرة التي نتحدث فيها عنه . وقد مات من الجوع وسحق تحت ثقل الحديد الذي كان مكبلاً به .

وقد عقد النبلاء مجلساً برئاسة الأمير فاسيلي شويسكي وصوتوا فوراً على إخلاء سبيل المعتقلين السياسيين الذين أقت بهم هيلانة في غيابة السجن . ومع ذلك فإنه لم ينج منهم إلا القليل بسبب ما عانوه من سوء المعاملة . وكان يوري وأندريه عمّا إيثان الصغير قد طواهما الموت كما مات ثورونتسيف أيضاً بينما تم تحرير أرملة الأمير أندريه وابنه فلاديمير أندريفيتش الذي عاد الى ممتلكات أبيه بعد ان فرض عليه وعلى أمه ان يسكنا في هذه الممتلكات وألا يحضرا الى موسكو أبداً . والسبب في هذه المعاملة أنهما كانا شخصيتين متنفذتين وأن فلاديمير

اندريشيتش سيكون خليفة إيفان على العرش فيما إذا حل بهذا الغلام
مكروه . ومع ذلك فإنه بمناسبة أعياد الميلاد من عام ١٥١١ ردت إليهما
كامل حريتهما وقدما إلى البلاط .

وكان الأميران إيفان شويسكي وإيفان بيلسكي لا يزالان على ما هما
الحياة عند وفاة هيلانة فادركتهما نعمة الخروج من السجن . وإن
بيلسكي كثير الصخب واسع الطموح ويدعي أنه ينحدر من جيديمين
فأعلن عن حقوقه في العرش ولم يظهر لقاسيلي شويسكي أي عرفان
بالجميل لأنه أنقذه من السجن . ومن المدهش حقاً أنه لم توجد في هذه
الحقبة الحرجة مفتصبون للعرش وإن الأميرين إيفان وبوري لم يؤد بهما
الأمر إلى الاغتيال . على أن الخصومات بين كبار النبلاء ربما كانت هي
السبب في تجنب حدوث مثل هذه الجريمة .

على أن أحداً لم يكن يهتم بهذين العنقلين ولم يعد الكرملين بينهما
بل غداً مكان مرور الرجال العسكريين الذين كانت دروعهم مغطاة بأدمشة
ملهبة أو من الحرير الثمين ، نبلاء متفطرسون كانوا يمرون أمام الأميرين
دون أن يكلفوا أنفسهم بإلقاء التحية . وإليكم كيف وصف إيفان الرهيب
هذه الحقبة من حياته بعد زمن طويل : « عندما ماتت أمنا هيلانة أصبحنا
يتيمين في المعنى المطلق لهذه الكلمة . وعندما رأى رعايانا أن البلاد ليس
لها سيد لم يفكروا إلا بإرضاء رغباتهم الشخصية ولم يعودوا ينظلمون
إلينا أبداً . وبما أنهم كانوا يتنافسون على اكتساب المغانم والثروات
فإنهم كانوا على نزاع دائم فيما بينهم . فاستولوا على خزائن أمنا
واستهتروا بما كانت تملكه من أشياء . أما بالنسبة لآخي بوري وبالنسبة
لي أنا شخصياً فقد كانوا يعاملوننا كغرباء أو بالاحرى كسحاذين . كان
ينقصنا الغذاء والكساء ولا يحترم أحد إرادتنا ولا يوجد من يؤمن لنا
احتياجاتنا كأطفال . وفي أحد الأيام بينما كنا نلعب مع إيفان شويسكي
(وهو أخو الأمير قاسيلي شويسكي) وضع قدمه على سرير والدي .

وقد نهب اولاد البويار Boyards (٣) اواني والدي الذهبية والفضية
وانهبوا عليها اسماء ابائهم .

وفي سن الثامنة لم يكن إيمان الرابع قد استطاع ان ينال من البويار
انه مرفسة او يعويص . ولكنه كان يمتلك دائرة ممتازة كما كان حساسا
لم تكن نفوت عينه الملاحظتين إلا القليل من الاشياء . وما هي ذي قد
ازفت حسامة الانتقام .

ومما عصف فوق رأس الغلامين ذلك الصراع الذي قام بين ال
شويسكي وال بييلسكي . ولم يكن الغلامان قد شاركوا فيه لأنهما لم
يكونا رهانا بيد أي واحد من الفريقين . وكانت نتيجة المعركة انتصار ال
شويسكي وزوج بالامير إيمان بييلسكي مرة أخرى في السجن . وفي هذه
الغربة وجد المتروبوليت دانيال نفسه واقفا الى جانب الطرف الخاسر
وقد عفا عنه فاسيلي شويسكي ولكن أخاه إيمان أقصاه عن منصبه في
السنه التالية . وعموم معظم انتصار بييلسكي معاملة حسنة بالنسبة
لما ليد ذلك العصر . ومع ذلك فإن ميسورين صديق الفراندوق الراحل
الحميم تم تسليمه الى اولاد البويار فسلخواه حيا ووضعوا جسده
العاري الممزق فوق جذع شجرة وفضلوا رأسه . وكان ذلك في كانون
الثاني يناير من عام ١٥٢٩ .

وفي ذلك الشهر نفسه مات فاسيلي شويسكي ميتة طبيعية تاركا
بعده السلطة لأخيه إيمان . واني هذا معه الى موسكو بأرشمندريت
دورسم جي بروبسكي وعينه في وظيفة المتروبوليت . ولكن الكاهن
الأب الجديد جوريف هذا لم يبار طويلا على صداقته للأمير لأنه اقنع
إيمان الصغير على الأقل بن إصدار عفو عن بييلسكي . وبدا كان هذا
الطفل استعاد سلطته ، وفي أحد الأيام من تموز بوايه عام ١٥٤٠ وصل

(٣) هو اللقب الذي يطلق على النبلاء في روسيا . - المترجم -

بييلسكي المتكبر امام باب الكريملين راكبا جواده امام دهشة إيمان شويسكي الذي كان قد انكر وجود إيفان الرابع لفترة من الوقت . ثم منح العفو لقائمة طويلة من انصار بييلسكي الذين كانوا يقعون في المنفى او السجن .

وربما كان إيفان شويسكي قد ترك السلطة تفلت منه عن ضعفه . لأنه لم يكن يتمتع بالنشاط ولكن حزب بييلسكي كان مكروها من سائر البويار وبخاصة أمراء نوفغورود والأميرين إيفان وميسيل اوبنسكي . وفي نهاية عام ١٥٤١ وبداية عام ١٥٤٢ انفجر التمرد ، وكان يوجد جيش في الريف مهيا للانتصار على بييلسكي وانصاره . ووجد شويسكي نفسه مضطرا للوقوف الى جانب هذه الثورة التي اندلعت باسمه . وكان جانب النوفغوروديين هو الأقوى فوق إيفان بييلسكي في الأسر ووضع في القود وزج به هذه المرة في السجن في بيلوزيرسك في أقصى الشمال . ومن أجل التخلص منه بشكل نهائي أرسل إليه بعد ذلك رجال قتلوه في السجن .

وفي ذلك العصر كان يوجد مجتمع لا يابه إلا قليلا بالله والناس . ففي إحدى الليالي انقضت عصابة من المتآمرين على غرفة المتروبوليت في الكريملين ورشقته بالحجارة حتى اضطر الحبر الى الفرار في ردهات القصر ولجأ الى قرب سرير إيفان الصغير الذي استيقظ مذعورا دون أن يتمكن من أن يقدم له يد العون . عند ذلك ترك القصر في مركبته ذات ثلاثة جياذ كان يسوطها بشدة حتى بلغ بها دير سيرجي تروبتسكي يتبعه أمراء نوفغورود الشباب الذين كانوا يوجهون إليه الإهانات وابلغ الشتائم . وقد أرادوا أن يقتلوه أولا انه تخلص منهم بكل جهد . ولكنهم انتزعوه فيما بعد من ملجئه المتنسك ونفوه الى دير بيلوزيرسك واحتل ماکاري النوفغورودي مكانه في منصب المتروبوليت .

بعد اختفاء عصابة بييلسكي مرض إيفان شويسكي ومات وفلند البويار السلطة العليا لابن عمه أندريه ولم يعد لأعداء آل شويسكي وجود .

والتهديد الوحيد الذي كان يمكن أن يقوم كان من جانب الغراندوق المراهق إيثان . ولم يكن إيثان . الذي بلغ الثالثة عشرة الآن من العمر يبدي على ما يظهر صفات ملائمة كما إن أندريه شويسكي لم يكن يشعر بأن إيثان كان يكبر ويتزعزع . وهكذا استمر أن يرى فيه طفلا مهملا لم يكن يحسب له حساب خلال السنوات المضطربة التي تلت وفاة أمه الوصية هيلانة .

وكان إيثان قد اتخذ له مجلسا خاصا به . ولم يكن يداهن ولا يراني آل شويسكي طوال الفترة التي رأهم فيها أكثر قوة منه . فهل إحسوا بالإهانة لهذا التعالي منه ؟ . كان يتخذ له صديقا ونجيا فيدور فورونتسيف الذي كان متعلقا به أكثر من سائر البويار . ومع ذلك فقد قام وعلى مرأى منه كل من أخيه أندريه وإيثان ميكاييلوفيتش شويسكي والأمير سكوبين شويسكي بمهاجمة فورونتسيف في القصر وانتزعوا عنه نياجه وأرادوا أن يقتلوه . فماذا كانت الحجة المباشرة لهذا التجاوز ؟ . لم يقل ذلك أحد . ربما كان قد نما إلى أحد أفراد عائلة شويسكي كلام على لسان فورونتسيف فمقدوا لذلك مجلسا للأمرأة حضره المتروبوليت مكارى والدوق الكبير إيثان ووجهت التهمة إلى فيدور فورونتسيف . وانصب آل شويسكي يطالبون بشأهم يدعمهم الأمراء پرونسكي ولونسكي وپاليتسكي وباسمانوف ف ضربوا فورونتسيف على وجهه ورموه أرضا وركلوه بأرجلهم وهم يكيلون لهم الشتائم والإهانات . وتدخل الدوق الكبير إيثان والمتروبوليت لحمايته ولكن البويار كانوا من الغضب بحيث ضربوا الكاهن نفسه وانتزعوا عنه رداءه . وكانت عينا إيثان الفتى تلتصقان ببريق مخيف ويضمران في نفسه تهديدا مستترا سوف تظهره السنون . وربما شعر النبلاء أن هذه هي المرة الأخيرة التي يتحدون فيها إرادة سيدهم لذلك فإنهم لم يقتلوا فيدور وإنما احتفظوا له بحبائه وقيوده ونفوه إلى بلاد كوستروما العبيدة .

وربما فكر إيثان كما يلي : اليوم ضربوا افضل اسد فاني وغدا سيأتي دوري . وكانت المشاهد التي هي من هذا القبيل جزءاً من الحياة اليومية ولكن الغراندوق الشاب لم يكن قد شارك فيها قط قبل هذا اليوم . وكانت التجاوزات الكبيرة لا يرتكبها البالغون وحدهم بل امتدت الى ابنائهم ايضاً . والالعب المفضلة لدى الامراء الفتيان كانت تشكيل العصابات والقيام بالهجمات المسلحة . ولم يكن الامر يقتصر على ضرب الفلاحين والباعة ضرباً مبرحاً كل يوم لانهم ليسوا جزءاً من الخارج كما كان يفهم في ذلك العصر بل كان الناس يلاحقون وينقتلون بالحيوانات المتوحشة ويعتبر ذلك دائماً من الحوادث الاعيادية التي لا تثير اي فضول . كان العصر قاسياً ومضطرباً ، ولم يكن تقى الشعب المسعوب يعدل شيئاً من بربريته ولا من تعطشه العنيف الفجور . اما ... ففهو الذي لم يكن يشجعها احد فكانت مظهراً من مظاهر الضعف . والتمنع بمسجد القسوة كان جزءاً من تربية اي امير فتي . ولما يدرّب سفار النمر على سر الدم كي تنمو فيهم غريزة الافتراس كذلك كان سفار الامراء يقادون الى غرف التعذيب لتستيقظ فيهم مشاعر القسوة . والحيوانات التي يتم اسرها في الصيد كانت تقاد الى ساحات الكريملين ليفتلها الاولاد بعد ان يقوموا بتعذيبها . ولم يكن احد يعترض . ويقال إن افضل تسليحات إيثان كانت رمي الكلاب من أعلى اسوار الحصن . ولم يكن القائمون على تربيتة يسمحون له بذلك فقط كما يقول توركسكي مؤرخ ذلك العصر بل كانوا يمتدحون امامه هذا الصنيع .

في الثالثة عشرة من عمره كان إيثان ذا طبع بارد . وكان يمكن ان يعزى هذا المزاج إلى الحزن لأن المعاملة السيئة التي تعرض لها بعد وفاة امه حطمت قلبه . وحتى السابعة من عمره كانوا يبدون الخوف منه ويظهرون له توقيراً مبالغاً فيه . ثم بعد ذلك لم يعد يلتفت إليه احد . وقد دخلت المظالم التي تعرض لها إلى اعماق اعماقه حيث كان يتراكم الانتقام والكراهية الهادئة الشرسة . وبما انه كان عاجزاً عن نيل مساندة الرجال سعى الطفل لأن يجد ملجأ له في الكتب واستغرق في دراسة

الأساطير البيزنطية وتاريخ الكنيسة والقديسين والروح القدس وتاريخ
بيزنطة وأمارات روسية القديمة . وهكذا أصبح مختلفاً جداً عن الطغاة
الافطاط الذين حكموا الكريملين بعد أن تثقف بالقوانين والتقاليد
والسياسة والتاريخ . ولا يشك اليوم أحد بقدرته على الفهم التي عوض
بها موت أبيه وأمه وحرمانه من الأمجاد التي أنكروها عليه ، وبني من
نفسه أداة غير مرئية أعدها لحكم روسيا التي كانت مملكته وملك يديه .

وعلى الرغم من أننا وصفناه بالبرودة فإن علينا أن نشهد أمام
الحقيقة بأنه كان يكن تقديراً كبيراً للذكرى أبيه وأمه . فقد كان يعتقد في
خياله أن فاسيلي الثالث كان يشغل عرشاً أعلى بكثير من العرش الذي
جلس عليه هذا المعجوز الطيب ، هذا العرش كان عرشاً من القداسة
وأن ما وراء فاسيلي وهيلانة كان يستحق في نظره التقديس . كان هذا
الفتى يكتنز أفكار أبويه وذكرياتهما كما يكتنز بخيل ذهبه ويذهب كل
ليلة لزيارته وعده والتأكد من أن أي شيء لم يختف منه . فلو أنهما
عاشا لانتقما له من كل مانع عرض له من إهانات . وقد نما هذا الشعور
الشخصي وكبر حتى أصبح شعوراً ملكياً بل وحتى أصبح جزءاً من الإله
نفسه الذي يقف أمامه وحده كل ملوك الأرض ليكونوا مسؤولين عما
اقترفوه من أعمال .

وأتى سن الرشد وإن كانت هذه الكلمة لا تنطبق بالضرورة على
الجنس . إنها تعني الثقة التي بعثت في ذهن إيثان أنه يمتلك وراءه
القوة الإلهية وأنه يكفي أن يرفع يده اليمنى ليضرب الأمير أندريه
شويسكي ضربة الموت . وهكذا فإنه بعد ثلاثة أشهر فقط من الهجوم
الذي وقع على فيدور فيرونسيف أعطى أمره إلى زمرة من الشباب
المخطفين برماية ثلاثة بأن يلقوا القبض على الأمير ففاجؤوا شويسكي
المتعجرف وأوسعوه ضرباً مبرحاً وأمسكوا بخناقهم وهم يجرونه إلى
السجن . لقد نالوا موافقة إيثان ولن يتجرا أحد على أن ينهض في وجه
هذا العمل . وصمتت موسكو كما لو أن رؤيا رهيبة بدت في السماء
فقد بدأ حكم إيثان .

الفصل الرابع

ادعاءات فورونتسيف

لم يصبح إيثان فوراً حاكماً بالغ النشاط . فهو لم يكن قد تجاوز الرابعة عشرة من العمر وليس له وزراء بالمعنى الحديث للكلمة ولا مجلس من الرجال الخبراء يكلفهم بتوجيه وإدارة البلاد . فكان الفلاحون المزارعون يجمعون محاصيلهم ويدفعون الاتاوات المترتبة عليهم لسادتهم الإقطاعيين ويسوون عندهم مايقوم بينهم من منازعات . وكان الصيادون يبيعون للتجار فراءهم الثمينة بينما كان هؤلاء يشترون بالذهب والأحجار الكريمة والأقمشة والأسلحة مايجدونه من جلود وشحم وشمع وزيت كتان وقنب وكتان وبطارخ (كافيار) وقار وملح . والبنية الاقتصادية لشعب كبير العدد مستقر فوق بلاد غنية كانت تشبه شجرة تستطيع بدون عناية من أي نوع أن تطرح الثمار . وقد استطاعت البلاد بعد تحررها من ربقة التترو بعد أن أصبحت في نجوة من اجتياح أي غزاة آخرين أن تطور ثرواتها المادية . ففي وجه أي لص كان يجب على كل فرد روسي أن يقف ليدافع عن نفسه ، أما الشرطة فلم يكن لها وجود . وعندما كان يدعي مالك أرض للخدمة في الجيش كان عليه أن يقود كتيبة من الرجال ويجهزهم على حسابه . ويطعمهم كما يطعم نفسه إذ لم يكن ثمة وزارة للحرب .

كانت روسيا حرة وحشية وبدون قوانين . ولم يكن الدوق الكبير ليشغل نفسه في هذه الفترة بفرض رقابة أكثر منهجية لأنه كان يحب أن يستمتع بأوقات الفراغ ليذهب مع لداته من الفتيان وهو في عمره

الذهبي كي يصطاد الدب والشعلب الأبيض أو يمسخ بالصقر أو يقتل الطيور الوحشية من التم .

وكانوا يغيرون أيضاً على القرى ويضربون الفلاحين على هواهم ويسرقون البائعين ويخطفون النساء اللواتي ينلن إعجابهم ويشربون ويقتصفون . ويفترض معظم المؤرخين أن إيثان كان يقتدي بقرنائه . وربما كان ذلك خطأ لأن ذلك لم ينسجم مع نفسية الدوق الكبير ولا مع كرامة مكانته التي كان لها دائماً الإدراك . وربما كان أكثر احتمالاً أنه كان يحافظ على بروده وترفعه دون أن يذهب به الأمر مع ذلك إلى توبيخ أترابه لأنه لم تكن تهمه مظاهر العنف تلك .

وفي الكريملين تابع إيثان دراسته لتاريخ بيزنطة كما كان يتقرب من المتروبوليت أكثر من تقربه من أي رجل مهم آخر في كل أنحاء أمارته . وفي الوقت نفسه وكما لو أنه كان يمتلك نزعة ديمقراطية كان يسعى 'رفقة' البورجوازيين من ذوي الثقافة الجيدة . وكان يكن تقديراً للمعرفة الأكثر من المحتد ويتحدث إلى رجال الدين المتواضعين (Diak) فيتبادلون فيما بينهم المعارف أو يتلهون بلعبة الشطرنج . وهكذا بدأت العلاقات بين الدوق الكبير وبين الكسي اردادشيف الذي عينه حاجباً له في عام ١٥٤٣ . وكان هذا اللقب يعني في ذلك العصر أن على صاحبه أن يعنى بسرير الدوق الكبير وأن يأتي له بـسيدة عند الاقتضاء . وكان إيثان شهوانياً فأخذ يفكر بالزواج وكلف سفراءه بأن يعلنوا في البلاطات الأجنبية أن الفراندوق أصبح في سن الزواج .

أما الأمير فيدور فورونتسيف فإنه عندما عاد من منفاه وجد إيثان متغيراً بعض الشيء . ففي خلال بضعة الأشهر التي مضت كان الطفل قد أصبح رجلاً . لقد قضى على الطاغية شويسكي واكتسب ثقة نفسه وغداً مظهره أكثر مهابة وبنى له في موسكو انطباعاً جديداً وأصبح النبلاء يعاملونه باحترام . وقد استقبل فورونتسيف استقبالاً حاراً كما تقتضي بذلك طبيعة الأمور وأقام له في القصر ليلة وصوله احتفالاً كبيراً كانت

فيه أية رغبة منه تصبح قانونا للجميع . ولكنه لم يكن ذا طبيعة انتقامية . فقد كان في الحفل بعض من ضربوه ، ولكنه لم يطالب برأسهم بل سامحهم ونسي إساءاتهم التي وضعت كما كان ينبغي على عاتق شويسكي الذي قضى نحبه وأولئك الذين كانوا ينتمون الى الحزب المنتصر كانوا سعداء بأن يتآخوا مع المنفي العائد من منفاه . وكان فورونتسيف ينتمي بداهة الى أولئك الذين ما أن يشملوا حتى يصبحوا أصدقاء للجميع .

وقد قدم فورونتسيف وهو داعم العينين نصائحه لإيفان الشاب في الطريقة التي يدير فيها أمارته وأصفى اليه الدوق الكبير بكل صبر . ولكنه لاحظ في الأيام المتحفظة التي تلت استقباله أن إيفان قد أصبح القانون ذاته ولم يكن يستشير في شيء . فكان يتلقى العرائض ويتخذ القرارات دون أن يسأله أي رأي . وقد عومل فورونتسيف لبعض الوقت وكأنه أهم شخصية في الكريملين ولكن ذلك لم يكن يتعدى المظاهر . فشعر بخزي من ذلك شديد لأنه كان ينتظر بعد موت الأمير أندريه شويسكي أن يحتل مكانة لا تقل أهمية عن تلك التي كان يحتلها الطاغية الزائل .

وكان قريبا إيفان الأميران يوري وميشيل غلينسكي بمارسان في البلاط سلطة أكبر أبرا ، ورغم ما كان يربطهما من صداقة مع فورونتسيف فانهما كان يحذران إيفان منه . وكان فورونتسيف على علاقات حسنة أيضا مع عدوه القديم الأمير إيفان كوربينسكي الذي بدا أنه يحاول أن يشكل عصبة من أجل السيطرة على إيفان . ورد الدوق الكبير على ذلك بأن فرض على إيفان كوربينسكي سجنًا دام ستة أشهر . وكان العقاب في الواقع سهلا لينا لدرجة أن كوربينسكي عندما عاد الى البلاط عام ١٥٤٥ لم يعد يضر شيئا من الشر . وكان إيفان تحت تأثير المتروبوليت ما كاري العطوف يبدي من التسامح أكثر مما سيبدية فيما بعد ، ومع ذلك فانه عندما تفوه أكاناس بوتورلين أحد البويار بكلام غير مهذب بحق الدوق الكبير عاقبه بقطع لسانه ليجنبه مغبة الوقوع في مثل هذا الخطأ في المستقبل .

أما فورونتسيف الذي لم يحصل على شيء فإنه أسلم نفسه للولائم والقصوف مع من تبقى من أنصار شويسكي فتسبب ذلك في نكبته لأن إيثان الفاضل من ذلك أوقفه مع كل أصحابه على المائدة الذين شملوا الأمير بطرس شويسكي والأمير إيثان كوبينسكي (مرة أخرى) والأمير ألكسندر غورباتي وميشيل فورونتسيف . ولكنهم لم يبقوا في السجن إلا شهرين ، فقد تدخل بشأنهم المتروبوليت في كانون الأول ديسمبر ١٥٤٥ فنالهم عفو الدوق الكبير وعادوا الى البلاط .

إلا أن صبر إيثان لم يدم طويلا . ففي السنة التالية أعدمت كل جماعة فورونتسيف تقريبا إما نتيجة لمباغتة أو نتيجة لحادث . وفي شهر أيار مايو من عام ١٥٤٦ قام الدوق الكبير مع جيشه بزيارة تفتيش الى كولومنا حيث جرى هناك نوع من سوء التفاهم . فقد قدم إليه من نوفغورود وعلى غير انتظار وفد مؤلف من خمسين من حملة القربينات(*) يحملون له عريضة . وبما أنهم لم يكونوا يعرفون كيف يتصرفون في حضرة حاكمهم فانهم رموا قبعاتهم على الأرض الموحلة وأخذوا بالصياح مما اضطر إيثان لأن يفرق شمل هذه العصابة بواسطة نبلائه الذين أخذوا يهاجمونهم بخيولهم . عند ذلك أخذ حملة القربينات يطلقون النار ورد عليهم البويار برمي السهام وحدث اشتباك رانت عليه الفوضى وأدى الى قيام قناعة لدى إيثان بأنه لا بد من أن يكون أحد قد نظم هذا الحادث في محاولة لاغتياله .

وعندما عاد الى الكرملين كلف الدوق الكبير واحدا من رجال الدين كان يثق به بأن يستقصي خبر هذه الحادثة . وهكذا قدم الخوري (Le Diak) زاخاريف تصريحاً - بتحريض من أمراء غلينسكي في أغلب الظن - بأن فورونتسيف وأخاه ميشيل مع إيثان كوبينسكي هم الذين

(*) القربينة بندقية قديمة ذات طلقة واحدة كانت سائدة في ذلك العصر .

أرسلوا حملة القربينات لمهاجمة الدوق الكبير ، وبعد أن تمعن في أعمال وتحركات أعضاء هذه الجماعة خلال السنتين الأخيرتين قرر إيثان أن يتخلص منهم وأمر بقطع رؤوسهم . وتم توقيف معظم أنصارهم حيث عوقبوا ولم يجد شيئا هذه المرة ما قام به المتروبوليت من وساطة حميدة .

ومنذ تلك اللحظة أفلت إيثان الجبل على الغارب لعميه(*) يوري وميشيل غلينسكي حتى أصبحا الرجلين الأكثر نفوذاً في كل روسيا . ولكنهما استعملا سلطتهما استعمالا سيئا وجعلا الحكم أسوأ وأكثر فسادا مما كان عليه في السنوات السابقة . وكان إيثان بعد أن تخلص من فورونتسيف وبقية المتآمرين قد أخذ يمضي بقية السنة في إرضاء نزواته الشخصية التي تجمع بين الصيد والصلاة . فزار أديرة فلاديمير وموزيسك وتشير ونوفغورود وبسكوف . ولا يمكن لأحد أن ينكر ما كان يسيطر على الفراندوق الشاب من ورع وتقى فلشدة ما كان يسجد أمام الايقونات تسبب في حدوث رضوض في جبهته . وكان قادرا على أن يقف خمس ساعات كاملة في خدمة دينه دون أن يظهر شيئا من التعب أو نفاذ الصبر . ولكنه كان يعوض كل ذلك باستسلامه للسلب والنهب بحمية متوحشة الى أبعد الحدود . وهكذا كان يتحول القديس جان الذي كان يعبد في البراري الى بارابا(**) في غمضة عين وفي الليل كان يعقد اجتماعات صاخبة يهرق فيها الشراب وتقع مصاريق هذه الاحتفالات على عاتق المضيفين . وكان على كل قرية أن تقدم الضيافة لهذه العصابة العديدة وتقدم لها الهدايا الثمينة للتعبير عن ولائها وحسن نواياها . ولكنهم كانوا يمنعون إيثان من تلقي الالتماسات من أولئك الذين يطالبون برفع الحيف عنهم لأن حادثة الخمسين من حملة القربينات جعلت أفراد حاشيته يتحسبون من سوء تفاهم آخر . وفي خلال ذلك كان يوجد امتعاض . ولم يكن يبدو أن إيثان كان يتقيد تقيدا حسنا في تلك الحقبة بمكانته كحاكم .

(*) هما عما أمه .

(**) بارابا Barabas مجرم فصله اليهود على المسيح - الترجمة -

الفصل الخامس

اختيار زوجة

في شهر كانون الاول ديسمبر من العام نفسه ١٥٤٦ أبلغ إيثان المتروبوليت - وكان قد بلغ السادسة عشرة - بأنه قرر الزواج والتمس رايه . وكانت سنوات العنف العشر قد جعلت لموسكو بين الأمم سمعة سيئة ، ولم يكن يعرف عن أية أميرة اجنبية أنها ترضى الارتباط بإيثان بروابط الزواج ، ولم يكن إيثان من ناحيته قد وقع ناظراه في روسيا على امرأة تمكنت من أن توقظ فيه شعوراً رومانسياً ولم تكن أمهات عينية أية خطيبة محتملة .

ومن أجل اختيار هذه الزوجة نصحه المتروبوليت بأن يجمع حسب التقاليد أكبر عدد من المرشحات لينتخب من بينهن من تناسبه منهن . وأعجب الدوق الكبير بهذا الاقتراح فكانت النتيجة أن دعا المتروبوليت كل نبلاء موسكو لخدمة دينية في كاتدرائية الصعود في اليوم التالي لمحدثته مع إيثان . وكان النبلاء على معرفة بنوايا الدوق الكبير في الزواج فأتى منهم أعداد كبيرة كان من بينهم حتى المحرومون من نعمة الكنيسة وكان الجميع يتوقعون الجديد من الأنباء .

وبعد تلاوة الصلوات خرج المتروبوليت من الكاتدرائية واتجه يتبعه النبلاء الى قاعة الاستقبال في القصر حيث كان إيثان ينتظرهم وهو جالس على العرش . عند ذلك نهض إيثان مواجهاً المتروبوليت ونطق بهذه العبارات : « واثقاً من نعمة الله وأمه الطاهرة ومن شفاعة القديسين

صانعي المعجزات بطرس الكسبي وجوناس وسيرجي وكل صانعي المعجزات من الروس ومن مباركتكم يا ابي فكرت في ان أتزوج . وكنت انوي في بادئ الامر ان ابحت عن زوجة لي في بلاط اجنبي ملك او قيصر ، ولكنني هجرت اليوم هذه الفكرة لان موت ابي وامي تركني يتيما وانا صغير السن . واذا اتخذت لي زوجة من بلد غريب ولم يقم بيننا وفاق فإن حالتنا ستكتنفها المصاعب . لذلك رغبت في ان أتزوج في بلدي من زوجة يختارها الله ببركتكم يا ابي » .

بعد هذا الخطاب عاد الدوق الكبير الى الجلوس ودخل مع المتروبوليت في محادثة خاصة . ومن المحتمل ان البويار صفقوا لخطابه . وبروي مؤرخ هذه الأحداث ان المجلس تأثر حتى انسكبت الدموع على الخدود نوعا من التعبير بديلا عن القول لان الرجال لم يكونوا يبدون بسهولة في ذلك الزمان . لقد أعجبتهم هذه الكلمات ، وارتفعت همهمة انقلبت الى هتاف . فقد ادلى الدوق الكبير بتصريح شعبي جدا ووطني جدا ولم ياخذ أية عائلة كبيرة بعين الاعتبار . والآن يستطيع اي نبيل من الفصر مهما كان متواضعا ان يعتبر نفسه حما ممكنا لسيد البلاد ، ولم يكن إيفان قد اعلن اختياره . وسرت إشاعة فورية في المجلس بأنه لم يكن قد اتخذ أي قرار بعد وانه قرر ان يتبع التقليد القديم في ان تجلب له الى الكرملين كل الفتيات من ذوات المحتد ليراهن ويختار من بينهن من يشاء . وقد سببت هذه القضية اضطرابات كبيرة في جميع أنحاء البلاد، فحتى أولئك الذين لم يكن لديهم بنات كانوا يعيشون في حمى الانفعال لانهم يمكن ان يكونوا على الأقل اعماما او اخوالا او ابناء عم للعروس السعيدة .

ولم يكن إيفان في مختلف فترات حكمه بعيدا عن الشعب . ولكن هذا القرار كان اول من عقد تصويت الامة له . فقد كانت زوجات الفراندوقات السابقين الأجنيبيات من امثال صوفيا زوجة إيفان الثالث وهيلانة زوجة فاسيلي الثالث مكروهات من البويار ، فلماذا يتزوج الفراندوقات من الخارج ؟ اليس النساء الروسيات أجمل نساء العالم ؟ .

واخذ نبلاء القصر يقارنون بين جدارات بناتهم القادرة على المنافسة .
وكان كل منهم يتمهل في الرجوع الى بيته بغية ان يحمل إليه الخبر
السعيد .

ولكن إيفان لم يكن قد قال كل شيء ، فقد بقي عليه ان يعلن انه
لا ينوي ان يتزوج على انه دوق كبير ولكن على انه قيصر TSAR . وكانت
الثمرة الاولى لدراساته قد وصلت الى النضج فأراد ان يحمل مكانة
العرش الروسي الى مستوى عرش القياصرة . وكان البويار مستعدين
ان يصفقوا لأي شيء وقد صفقوا لهذا القرار على الرغم من انه كان قرارا
يستحق التفكير . وكان يمكن لهذا التغيير الا يكون مجرد كلمة تقال خالية
من المعنى ، مجرد تجميل للقب الدوق الكبير الذي كان معقدا من قبل .

« قبل الزواج ارجب مع بركاتك يا ابي المتروبوليت ان اعيد لاسرتي
المكانة التي كان اجدادي القياصرة والفراندوقات يتمتعون بها وكذلك
مكانة قريبنا فلاديمير فسيوفوودوفيتش مونماخ كما اريد ان اكون متقلدا
لهذا الشرف العظيم » .

إلا ان اهتمام البلاد المباشر كان يتركز حول منشور ارسل الى
كل الجهات الى كل بيت نبيل يأمر كل الفتيات في سن الزواج ان يرسلن
ذوهن الى البلاط ليخضعن للانتقاء الذي سيقوم به سيد البلاد . وقد
طلب من الآباء تحت طائلة العقوبات القاسية الا يخفوا بناتهم تحت أي
عذر او ادعاء .

فكم كانت موسكويا منشغلة في ذلك الوقت في انتقاء الدانتيلات
والتسريحات ، وكم حمام اخذته الفتيات وكم من خضاب جربته الصبايا
وكم من الجدائل جادلنها في شعورهن ! . وكم من الثروات والنكات كانت
تلقى دون ان تذهب من غير بعض من الرجاء . . . وكانت قصة من قصص
الجن ، ولكن لن تكون ابنة جزار ولا سندريلا هي على كل حال من
ستفتن الأمير .

وأخيرا نالت جائزة الجمال صبية تنتمي لعائلة ذات صيت ، ابنة
لأرملة تسمى زاخارينا - كوشكينا . كان اسمها أناستاسيا وقادها الى
الكريملين عمها غريغوري زاخارينا . وكان يوجد كثير من الفتيات اللواتي
ينتمين الى بيوت اكثر نبلا ونفوذهن ونفوذ مرافقيهن كان عظيما . وكان
على ايغان ان يختار من بين الفين من المرشحات ويقال انه لم يكن ابدا
يقوم بفحصهن فحصا عابرا ، ففي اثناء حياته كلها كان له « نظرة في
المرأة » ولكننا نستطيع ان نعتقد انه في سنه كان يبحث فيها عن الفضيلة
والورع بمقدار ما كان يبحث عن مفاتنها وجمال معانيها . ومهما كان
الحال فان أناستاسيا كان لها الافضلية في ان تكون الاعظم وفي ان يكون
جمالها هو الأسر الاخاذ . كانت من ذلك النوع من النساء اللواتي
يفاجئن النظر ما ان يدخلن مكانا مهما كان فيه من حضور . كما كان لها
افضلية سياسية ايضا في أنها كانت من عائلة لم تشارك بأية صورة بمكائد
الأحزاب ولم يكن لها علاقة بما قام بين عصبتي شويسكي وبيلسكي من
خلافات وقد تمت خطبتهما وسط تراحم شعبي كبير ونالا مباركة
الكنيسة المقدسة .

وحدد يوم انزواج في الثالث من شباط فبراير عام ١٥٤٧ ولكن
ايغان أراد ان يتوج أولا قيصرًا على كل روسيا وجرى هذا التتويج في
السادس عشر من كانون الثاني يناير من العام نفسه . وفي صبيحة هذا
اليوم ارتدى الامراء والغويغود(*) والبويار ثيابهم الرسمية من القماش
المذهب واجتمعوا على عتبة القصر وحول ابوابه . وتلقى مرشد إيغان
رئيس كهنة كاتدرائية الصعود من يدي الغراندوق صفيحة ذهبية وضع
عليها صليب عجائبي كبير والتاج ومعطف التكريس . ورفع كبير الكهنة
هذه الشعارات عاليا وتوجه مباشرة الى الكاتدرائية يتبعه الغراندوق
محفوا بالنبلاء والدياك من رجال الدين . وكانوا قد نصبوا في المعبد

* الغويغود Voivodes هم كبار الموظفين في روسيا ، والغويغودية مقاطعة يحكمها
الغويغود .
- المترجم -

على ارتفاع اثنتي عشرة درجة عرشين يستطيع أن يراها جميع أحدهما للدوق الكبير والثاني للمتروبوليت . وقبل أن يضع إيفان رجله على أول درجة قام بالسجود أمام كل واحدة من الأيقونات ، وأنشد الكورس نشيد السلام لسيلا البلاد وقام المتروبوليت بمباركته .

وفي أعلى الدرجات انتصب إيفان مع ماكاري (***) وأتى الارشمندريتات بالمعطف والتاج وأعطوهما للمتروبوليت الذي رسم عليهما عدة اشارات للصليب ثم البسهما لإيفان داعيا الله بصوت عال أن يحمي هذا الداود المسيحي بنصيحة الروح المقدس . وبعد التتويج أخذ الكورس ورجال الدين كلهم والنبلاء ينشدون ترتيلة سائلين للقيصر الصحة وسنوات عديدة من السعادة والنعماء وبعد ذلك خرج إيفان متباطا من الكاتدرائية وكان يمشي فوق سجاجيد من المخمل والدمقس والنبلاء يرشقونه بحففات من القطع الذهبية وعاد الى قصره محاطا بكل بلاطه وعلى رأسه تاج القياصرة . وانقض شعب موسكو عند ذلك على الكاتدرائية ينزعون عن العرش قطع القماش التحريرية ذكرى لهذا اليوم الجميل ولم يفكر احد في أن ينهاتهم عما يفعلون .

ويبدو أن كثيرا من الاساطير جاءت بتسويغ للقب قيصر TSAR الروسي على رغم ما يعتورها من بعض الشكوك . احداها تقول أن روريك انما كان حفيدا من أحفاد أوغوست سيزار Cesar وان إيفان إنما هو من نسل روريك . فقد أعطى أوغوست القسم الشمالي من العالم الى ابن أخيه بروس Prus الذي اشتق منه اسم بروسيا كما يذهب البعض ، وبروسيا حسبما يذهب اليه كالاريل معناها « حدود روسيا » ومهما كان الامر فان روريك اعتبر من نسل بروس الذي ينتسب الى أوغوست وعن طريقه الى الله ، ذلك لان أوغوست كان قد رفع الى مرتبة الاوهية . وبذلك يكون إيفان الرابع قد رفع نسر روما الثالثة .

*** ماكاري هو اسم المتروبوليت

الترجم

وكان ايفان الثالث من قبل قد رفض لقب الملك الذي قدم اليه بكل احتقار على أساس ان لقب الفراندوق الذي يحمله كان أعلى بكثير من لقب الملوك .

وتروي حويات فلاديمير التي استشهد بها ايفان الرابع لدعم ادعاءاته ان فلاديمير كان ابنا لاحدى بنات قسطنطين من نوماخ امبراطور بيزنطة التي ماتت قبل خمسين عاما من اعتلاء ابنها عرش كييف . وقد أعلن فلاديمير الحرب على القسطنطينية . ومن اجل أن يحصل الامبراطور على السلام ارسل كاهنا كبيرا يحمل جزءا من خشبة الصليب الحقيقي كما يحمل التاج الامبراطوري . وقد حمل المتروبوليت التاج من القسطنطينية وعبر عن رغبته في أن تتذوق كل الشعوب الارثوذكسية طعم السلام في ظل صولجان « امبراطوريتنا واللاتوقراطية الكبيرة لروسيا الكبرى » . وبهذا التاج الذي ارسله الله توج فلاديمير في كييف وحمل اسم مونوماخ .



الفصل السادس

الحريق الكبير

كانت عائلة اناستاسيا قد استقبلت بكل ترحاب رجلاً تقياً اسمه جينادي الكوسترومي وتنبا هذا الرجل كما يقال بأن الفتاة ستكون زوجة لقيصر ، وربما كان السبب في ذلك أن الصبية كانت تتمتع بجمال باهر وسلوك ملكي أو ربما كان السبب أن الحجاج في ذلك الوقت كان من عاداتهم لكي يظهروا عرفانهم بالجميل أن يقدموا البيوت النبيلة التي كانت تستقبلهم مثل هذه المجاملات البريئة من التنبؤ بزواج وشيك وحياة زوجية سعيدة .

وتم حفل الزواج في الثالث من شباط فبراير ١٥٤٧ . ولم يذكر أحد ما إذا كان الزوجان قد رشّوا بحشيشة الدينار كما حدث لقاسيلي الثالث وهيلانة من قبل . وكانت بعض النساء قد كلفن بفحص جسد الزوجة فوجدنه كاملاً لا يعتوره أي نقص وقيل عنها كما يروي كارافرين كل خير يمكن أن يقال باللغة الروسية . وجرى طقس الاحتفال المعقد بالزواج في كاتدرائية المنقذ المقدس Saint-Sauveur وتوجّه المتروبوليت بعد الحفل الى الزوجين بهذه العبارات : « اليوم اتحدتما الى الأبد في الكنيسة لكي تتمكننا من الخضوع سوية للعلّي الأعلى وتعيشا في فضيلة انتما يا مثال الاستقامة والرحمة . فأحبّ يا سيدي زوجتك وكرّمها ، وانت أيتها القيصرة التقية أطيعي زوجك ، فكما أن الصليب المقدس هو سيد الكنيسة كذلك الرجل سيد زوجته . وإذا ما نفذتما أوامر الله رايتما القدس المباركة وتدوقتما السلام في فلسطين » .

بعد ذلك خرج القيصر والقيصرة من الكاتدرائية معاً وأظهرا نفسيهما لرعاياهما المحتشدين جمهوراً كبيراً أتى من كل أركان البلاد . وقام القيصر بتوزيع الهبات على البويار الحاضرين وعلى القيصرة من يده الكريمة وقدم الصدقات لأعداد كبيرة من المتسولين . واضطلع الزوجان الملكيان على السرير علناً أمام الجمهور . وكان كل عضو من أعضاء البلاط موكلاً بوظيفة من كل نوع . فالعمتان غلينسكي كانا يقفان على رأس السرير ، والأمير شيمياكين يقدم للقيصر قلنسوته الليلية ، ووضع نبيل آخر غطاء على أرجل العروسين .

وفي داخل القصر كانت تقام الولائم الكبرى كما كانت تقام في الخارج . وبينما كان إيثان وآناساسيا يأخذان قسطاً من الراحة في سريرهما كان الأمراء والبويار وكل أفراد الشعب يشربون نخبهما وسط الهتاف والتهليل . واستمرت الاحتفالات حتى اليوم الأول من الصوم الكبير . وعندئذ ، وفي الساعة التي قرعت فيها آلاف الأجراس تدعو المؤمنين للصلاة توقفت كل ضوضاء . ووضع القيصر إيثان وزوجته صيغة لأفراح الزفاف . فقد ارتديا ثياباً بسيطة ومشيا على الأقدام فوق الثلج نحو دير سرجي ترويتسكي على هيئة حاجين بسيطين لا عاشقين حيث بقيا فيه أسبوعاً كاملاً متقشفين يصليان ويتناولان لدى قبر القديس سرجي صانع المعجزات .

وكانت آناساسيا تقية مثل زوجها . ولكن إذا صدقنا ما كتب عنها في عصرها فإنها كانت أكثر إنسانية منه . كانت طفلة بسيطة خرجت من منزل أرملة هادئة ، ولم يكن في عروقتها هذا النزاع الحاد للأهواء التي بدأت تغلي في عروق إيثان . فالقيصر من قمة إمبراطوريته كان يرى رعاياه من مرقاه العالي الارتفاع صفاراً ليس لهم أهمية أو اعتبار . فكان يشعر بطريقة ضالة أنه أقرب إلى الإله وأنه مختاره ومصطفاه . فترك آل غلينسكي تنفيذ تدابير منحرفة في حكم شعبه ووفى هؤلاء عملهم على ما يشتهون دون أن يبدي إيثان بذلك أي اهتمام . وارتأى آل غلينسكي

أن يزيدوا من عدم شعبيتهم بعدما قاموا به من اضطهاد . وظن كثير من الناس أن إيثان بعد تتويجه قيصرًا وبعد أن أصبح زوجًا سيعمل على تحسين أحوال رعاياه ، ولكن وهمهم ما لبث أن انهار فقد كان القيصر مشغولاً بصلواته وغارقاً في ملذات حياته الزوجية أو بالصيد أو بالحج . وكانوا يعرفون أنه صاحب مزاج رهيب وأنه لا يقبل ملاحظات من أحد . كان بإمكانه أن يغضب من رسول أو من خادم وينزل به العقاب بالضرب حتى الموت ، ويا لتعاسة فلاح أو بائع كان يوجد في طريقه عند ذاك .

وقد رد شعب موسكو عليه وعبروا عن كل الحقد الذي يحملونه في صدورهم على آل غلينسكي عن طريق إشعال حريق كبير . فقد اندلعت في الثاني عشر من نيسان أبريل عام ١٥٤٧ نار كبيرة في موسكو ولكن أمكن إطفائها . إلا أنها عادت فاشتعلت من جديد في العشرين من الشهر نفسه وأطفئت أيضاً . وشب حريق ثالث في مطلع حزيران يونيه أذكته ريح قوية وكان من الصعب التغلب عليه . كان ثمة أشخاص مجهولون يضعون النار في المدينة على الدوام .

ولم يعر إيثان إلا اهتماماً قليلاً لهذا الحريق . وكانت بعثة من البورجوازيين من مدينة بسكوف قد قدمت لمقابلة القيصر في أوستروفا في نهاية أيار مايو من ذلك العام ، وكان أوستروفا أحد البيوت الملكية في الريف . وينبغي علينا أن نوضح أن البسكوفيين كانوا أكثر جرأة من أي شعب آخر لأن بسكوف كانت آخر مدينة كبيرة ألحقت بموسكو ، ولولا جراتهم لما عرضوا أنفسهم لغضب القيصر بتقديمهم إليه عريضة كالتى يحملونها . وكان آل غلينسكي قد كلفوا رجلاً مرتشياً بإدارة هذه المدينة . والبعثة التي قدمت وبرفقتها عدد من الشهود كانت تحمل قائمة طويلة من المطالب وتتألف من سبعين عضواً سجدوا كلهم عند لقائهم بإيثان . وبدلاً من أن يمنحهم القيصر أذناً صاغية وضع في أيديهم الأصفاد . أما أن نقول بأنه كان يسخر منهم فإن ذلك لم يكن وصفاً كافياً ، فقد سكب على رؤوسهم الكحول الحار ثم مر عليهم واحداً واحداً

وفي يده قنديل أشعل به شعورهم وذقونهم . وأخيراً عرّاهم من ملابسهم وأمرهم بأن ينبطحوا على الأرض صفّاً واحداً وهو ينوي أن ينزل بهم بدون شك نوعاً من عقاب رهيب ، ولكن رسولا وصل في هذه اللحظة مستعجلاً من موسكو يحمل خبراً بأن الكريملين كان يحترق وأن ناقوس التبريكات قد سقط وتحطم على الأرض ، فنسي القيصر ضحاياه وهنرع بأقصى سرعته في اتجاه موسكو .

كانت موسكو يزداد اتساعها في كل عام ويمتد وتمثل للعمين تكتلاً واسعاً من الأبنية والإنشاءات من خشب التنوب(*) من بيوت صغيرة وأسيجة وبلاط شوارع وزرائب وكان بعض كنائسها مبنياً من الحجر . وكانت المدينة في تلك اللحظة تلتهب كما تفعل غابة أمسكت بها النار في صيف جاف . والسبب في أن حرائق مطلع نيسان أبريل كانت قد وفرتها هو أن الثلج كان لا يزال فوق الأسطح . وكان أحد هذه الحرائق رهيباً لدرجة أنه دمر دكاكين حي كيتايي غورود المجاور للكريملين وسود الشارع الكبير الذي يؤدي إلى باب إيلينكا على شاطئ موسكو المحصن . أما حريق حزيران يونيه الذي بدأ في الأرباب وغلف الكريملين فكان أخطر بكثير من كل ما عداه .

كان اللهب الذي تدفعه ريح العاصفة يندفع إلى الأمام مفرقماً مزمجرأ حتى اجتاز الموسكفا وكان النهر ليس أكثر من حفرة بسيطة ، وكان يرسل وهو يتلوى في عاصفة هوجاء من نار انفلتت من عقالها فوق أسوار الكريملين الوردية ذات الشرفات جذوات كانت تسقط على أسطح القصور والكنائس حتى التهب الجزء الأعلى من كاتدرائية الصعود كما التهب سقف القصر القيصري وسقف كاتدرائية البشارة . أما في الكنائس الحجرية فإن اللهب أثلف الفريسكات والإيقونات ودمر الاستار المقدسة والأبواب . وغدت دار صناعة الأسلحة طعمة للنيران

(*) التنوب Sapin نوع من الصنوبريات

- المترجم -

وكذلك قصر المتروبوليت وبيوت اليويار . وكان ماثاري العجوز ذو اللحية الشهباء يكافح وسط النار والدخان في داخل كاتدرائية الصعود وهو يحمل إيقونة نوتردام المثلثة التقديس بمساعدة من رجال الدين . ثم تبع بعد ذلك جدار مدينة الكريملين المجاور حتى الممر السري الذي ينفتح على النهر ، ولم يكن ثمة سُلَّم فوجب عليه أن ينزل بواسطة الحبال ، ولكن الحبل انقطع واضطر المتروبوليت السيء الحظ أن يقفز من علو كبير وتلقى خبطة أفقدته الوعي لوقت طويل .

وتحت الكريملين كانت النار التي تتقدم دائماً تزمجر على طول الشوارع كما لو أن إله الجيوش قدم لينفث فيها غضبه . وكان من السهل على المرء أن ينقل نفسه من أحد هذه البيوت ذات الطوابق ولكن الخطر كان يكمن في الشوارع ، فلم يكن ثمة أي ملجأ يقي من العنصر المدمر الذي كان يمتزج بالهواء نفسه . وكان السكان يهربون جماعات نحو النهر فيدخلون فيه ويبقون واقفين ، ولكن ثيابهم كانت تحترق على أجسامهم طالما كانوا يركضون . فالنار كانت تضربهم كما لو كانوا معرضين لضرب حسام حيث كانوا يموتون متساقطين في الشوارع كالفراشات . وقد هلك في هذا الحريق سبعة عشر ألفاً من البالغين مع عدد كبير من الأطفال .

واختفت الأشجار والنباتات . وبساتين البقول الكبيرة تحولت الى رماد . ودمرت كل البضائع وكل المؤن ، وذاب النحاس وسال فوق بلاط الكنائس ، وماتت الأبقار في زرائبها والأحصنة في مرابطها واختنقت كلاب الحراسة وكلاب الصيد والقطط أو غدت فريسة للنيران .

ولم يبق القيصر طويلاً في منطقة الخطر يتطلع الى هذا الخراب بل عاد مسرعاً على صهوة جواده الى قصره في جبل العصافير حيث انضمت اناستاسيا اليه كما انضم اليه العديد من النبلاء مع عائلاتهم . ومع ذلك فإنه أصدر أوامره بأن يعاد بناء أبنية الكريملين ما أن تنطفئ النيران .

وانطفأت النار بعد أن اكلت كل شيء ولكن جلدواتها بقيت حارة لبضعة أيام وعاد اللاجئون الى الخرائب وبدأت موسكو مثل كومة من الرماد يبحث بين أنقاضها منقبون فريبو المظهر قد اسودت أيديهم ووجوههم عسى أن يجدوا شيئاً من رفات أمواتهم أو بقايا من ثرواتهم التي اكلتها النيران . ولكنهم لم يبقوا هناك طويلاً لأنه لم يكن هناك ما يمكن أن يؤكل طوال ما كانوا يبحثون . ثم ابتعدوا يلتمسون في القرى والأديرة التي تحيط بموسكو شيئاً من المساعدة والعون . فممّ كانوا يتدمرون وماذا كانوا يقولون ؟ . نحن نجهل ذلك . كل ما أمكن حصولنا عليه منهم أنهم كانوا يؤمنون بأن الحريق إنما كان نتيجة سحر ، فقد كانت هامة(*) تخرج الأموات من قبورهم وتنتزع قلوبهم وبعد أن تسحقها في الماء المقدس كانت ترش بهذا الخليط شوارع موسكو .

وقد قبل بهذه الشريرة مرشد القيصر الديني وأعداء الأميرين غلينسكي وأعطى بعضهم لهذه الإشاعة شكلاً مشؤوماً حيث روى أن أتنا والدة هذين الأميرين قد مارست هذا العمل الرهيب بقلوب من جثث الموتى . فامر القيصر بإجراء تحقيق . وفي يوم الأحد السادس والعشرين من حزيران يونيه أي بعد خمسة أيام من انتهاء الحريق تم استجواب عدد كبير من الناس ينتمون الى طبقات المجتمع الدنيا في ساحة الكرملين . وكانت قصة آل غلينسكي قد تضخمت وأصبحت على كل لسان . وكان الأمير يوري غلينسكي موجوداً بينما كان أخوه ميشيل في رزيف مع أمه أتنا . واستمع يوري تلك القصة السخيفة عن سحر أمه بقلّة اكتراث دون أن يشعر بما كانت تتعرض له مكانته من أخطار ، فقد كان له أعداء بين زملائه من النبلاء المكلفين بالتحقيق .

ثم فكر بأن من الحصافة أن يذهب دون أن يشعر به أحد ويدخل الى كاتدرائية الصعود . وكان ينبغي لرجل أبعد نظراً وأكثر شجاعة أن

(*) روح ميت تغادر القبر وتمتص دماء النائمين من الأحياء . — المترجم —

يبقى مع البويار وينتظر النتيجة أمام أنظار الجميع . ولكن ما حدث هو أن البويار بعد أن تداولوا مع الجمهور قالوا لهم : « هل أنتم مقتنعون بأن هذه الكارثة قد نظمها آل غلينسكي ؟ » ، إننا سنسلمهم لكم لتفعلوا بهم ما تشاؤون » . وعندئذ ، وكما لو أن الجمهور كان يقوده متآمرون ، اندفع إلى الأمام وافسح له النبلاء الطريق للمرور ، ثم اجتاح الكاتدرائية وخنق الأمير يوري وانكفأ إلى أنصاره الكثيرين فذبّحهم كلهم كما ذبّح أبناء آل غلينسكي غير الشرعيين وعدداً آخر من الأولاد التعمساء الذين ظن أن لهم ارتباطاً مع هذه العائلة . ولم يكن العطش للقتل يرويه شيء إذ كان هذا الجمهور يجد في الدم تعويضاً له عن الخراب حتى انقلبت أعمال القتل إلى حركة ثورية حقيقية لم يفعل البويار شيئاً من أجل السيطرة عليها . وكانت رغبة الانتقام تغذي نفسها كما كانت تفعل النار ، فاجتمع كل أولئك الذين كانوا ينقبون بين الانقراض في كتلة مزمجرة واتجهوا إلى قصر جبل العصافير ليطلبوا من القيصر أن يسلمهم الأمير ميشيل غلينسكي وأمه آنا . وارتفعت ضوضاء وهرج ومرج وغدا القيصر محاصراً في قصره حيث لجأت أناستاسيا وإيفان إلى أبعد غرفة فيه . ولكن الجمهور الذي كان جريئاً في الكلام لم تكن له مثل هذه الجراءة في التنفيذ ، وهكذا أمسك القيصر بأكثر المتظاهرين شغباً وأمر بقتلهم على مرأى من الجمهور الذي هدا فوراً وتفرق عائداً إلى سواد الوحشة حيث كانت منازلهم من قبل .

أما الأمير ميشيل غلينسكي فقد حاول الفرار إلى ليتوانيا ولكنه أوقف في الطريق ونال عفو القيصر عن محاولته تلك . والحريق الكبير الذي دمر موسكو دمر أيضاً سلطان عائلة غلينسكي التي لم ترفع رأسها بعد ذلك قط .



الفصل السابع

غضب الله

لم يكن من المحتمل ان يكون إيثان واناستاسيا قد صدقا قصة السحر تلك . فقد كانا يعرفان أننا جيداً ويعرفان أنها لم تسلم نفسها للسحر الاسود قط . وهذه القصة عن قلوب الجثث مهما بدت سخيفة فإنها كانت تخبىء وراءها معنى ، فالجثث موضوع الحديث كانت جثث اولئك الرجال الذين اودى بهم آل غلينسكي الى الموت وهم على الرغم من موتهم كانوا قادرين على الانتقام . وكان القيصر يجهل سوء الإدارة التي كان يمارسها آل غلينسكي ولكن الاعتراضات التي قامت ضدهم كانت من الشدة بحيث لم يكن من الممكن الا يتاثر بها . ولا بد أن القيصر قد لاحظ أنه لم يكن في منأى عن اللوم ، فأل غلينسكي كانوا يتصرفون باسمه وكان مسؤولاً عن أعمالهم وسوء تصرفاتهم . وزاد من وقع هذه التصرفات السيئة أنها كانت صادرة عن اقربائه ، وعندما كان الجمهور يزمجر على ابواب القصر مطالباً بضحايا جديدة كان بإمكانه ان يطالب برأس القيصر نفسه . ومن المحتمل أن خراب موسكو كان علامة غضب وتحذير أكثر من ان يكون عملاً من أعمال سحر .

فالقيصر كان خائفاً من تلك المظاهرة التي جرت امام القصر لان هذا الجمهور كان بإمكانه ان يجعل من جسده قطعاً ونتفاً . والقساة العتاة من الرجال لا بد ان يكون فيهم نقطة ضعف . والجبناء يرتجفون في العادة كورقة في مهب الريح إذا تعرضوا لجزء من مائة من الآلام التي يفرضونها

على الآخرين . وفي كل طبيعة خيرة يوجد في العادة عنصر يسمى الجراءة ، وهذا العنصر كان مفقوداً لدى إيثان . حقاً لم يكن له يومذاك إلا سبعة عشر عاماً ولكن إذا كان مقدراً للجراءة أن تظهر فإنما هي تظهر في هذا السن . وإذا توخينا العدل فإن الصدام الذي حدث في كولومنا حيث لم يكن حملة القربينات القادمون من نوفغورود يطلبون أكثر من أن يمثلوا بين يدي سيد البلاد ليقدموا له عريضة متواضعة لم يكن ليحدث لولا أن إيثان كان خالياً من أية جراءة . وفي استقبال المبعوثين القادمين من يسكوف وهم عزل من السلاح بدا إيثان قاسياً وجباناً في الوقت نفسه ، وسوف نرى كيف أن الخوف كان يحتل المكان الأوسع في طبيعة إيثان الرهيب .

على أنه كان يخشى الله أكثر مما كان يخشى الناس . ولكن إذا كان خوف الله يعتبر بدءاً للتعقل والحكمة في التصرف فكيف حدث أن أودى به إلى مثل هذا الطيش والتهور . ونحن نجيب بأن خوفه من الله كان خوفاً متطيراً لا يستند إلى محاكمة عقلانية لأنه لم يكن يملك أي شيء من مثل هذه المحاكمة ، فإيمانه كان أعمى كما لو أنه سحر قبل مولده فغدا عبداً لما وراء الطبيعة . والكنيسة في نظر إيثان في هذه الحقبة المبكرة من حكمه كانت سلطة مقدسة ، وكهننتها ورهبانها وقد يسوها كانوا قوماً مميزين لا يتعرضون لأخطار التعذيب والموت التي كان يتعرض لها بقية رعايا القيصر .

وكان المتروبوليت مكارى ذلك العجوز الطيب العاقل الشجاع الفاضل رجل الله — بغض النظر عما كان عليه من أوهام — كان يمارس على إيثان نفوذاً خيراً . كان أباً لإيثان في الله وكان له على حياة سيد البلاد الفتى نفوذاً أكبر وأثراً من نفوذ أي إنسان في المملكة . كان مكارى يحب السلام ويكره العنف والقسوة ولكنه لم يستطع أن ينتزعهما من قلب القيصر الشاب ، فقد كان إيثان كلما زاد في سجوده وبالف فيه كلما زاد في قسوته وضراوته .

وقد وجدت الكنيسة في الحريق الكبير الذي حدث فرصة مناسبة .
فمرشد القيصر الديني رأى فيه دون تحفظ أنه من تأثير السحر الأسود .
ولم تكن الكنيسة في مجموعها تذهب الى هذا الرأي . كانت الكنيسة
بدون شك تؤمن بالسحر الأسود على أنه قوة شيطانية تظهر على يد
اناس يسمون بالسحرة ، أما في هذه الحالة فإنها كانت تؤمن بأن إرادة
العلي الأعلى هي التي دمرت موسكو من طريق هذا الحريق الذي كان
في الماضي قد دمر سودوم وعمورية وللأسباب نفسها .

وفي اللحظة التي تفرق فيها الجمهور تاركاً جوانب قصر جبل
العصافير تقدم كاهن بسيط من كاتدرائية الصعود الى القيصر والقيصرة
رافعاً إصبع التحذير وطالباً منهما التوبة والندامة . كان هذا الكاهن
هو سيلفستر النوفغورودي الذي كان كما يقال شبيهاً بقديس أرسله
الله ، وأولئك الذين يرسلهم الله يصلون دائماً في اللحظة النفسية المناسبة
ولذلك لا ينبغي علينا أن ندهش من أن إيثان لم يأمر بإيداعه في السجن .

« لقد أرسل الله صواعقه عليك أيها القيصر بسبب طيشك وسوء
أهوائك حتى أكلت نار السماء موسكو وأفرغ كأس الله في قلب شعبك » .

ثم تحدث سيلفستر عن نبوءات وإشارات كان قد لاحظها وعن
رؤى كانت حكماً على القيصر من الله . وبعد ذلك أخذ يشرح الكتاب
المقدس الذي ينشر احكام الله على ملوك الأرض ، وأظهر لإيثان أخطائه
واستعجله التوبة والندم خوفاً من أن ينقض مصير أسوأ عليه وعلى
البلاد .

وقد يكون من المحتمل أن يكون المتروبوليت ماكاري على علم بهذا
الخطاب الجريء الذي بدا أنه نجح وحقق هدفه بعد أن غزا عقل القيصر
خوف من المجهول فركع على ركبته وتوسل الى قوة الله وحكمته وحكمة
قديسيه كي يكون أقدر على الحكم باستقامة أكبر وتقى أعظم . ويبدو
أن كل كتاب حوليات العصر وكل المؤرخين بدون استثناء نظروا الى

هذه اللحظة على أنها نقطة بدء لنوع من الهداية . فقد تعدل مباشرة حكم إيثان بعد أن أخذت الكنيسة بقيادته ، وكوفى سيلقستر على شجاعته الروحية وتمت العناية بنصائحه واتبعت في معظم نقاطها . وحدث أن سيلقستر كان صديقاً للكاهن الكسي ارداتشيف الذي كان قد عين حاجباً للقيصر ، وكان ارداتشيف تقياً بطبعه وله وجه قديس فتي ، فتوصل هذان الرجلان لأن يتمتعا بمكانة متميزة في البلاد .

وبدا أن بناء كنائس وبيوت للشعب أمر مقدس في حد ذاته ، وهكذا بدى ببركة الله بإعادة بناء موسكو ، وانقضى عيد ميلاد إيثان في آب اغسطس وسط رنين الفؤوس والواح الخشب السميك . وبروح من الندم وتائب الضمير توجه إلى المهندسين والعمال الذين بدؤوا بتبريم الكنائس المحروقة بهذه الكلمات :

« إن من المستحيل علي أن اصف مالحق سنوات شبابي من جنون مجرم ولن تكون لغة البشر قادرة على أن تفعل ذلك . فعندما انتزع الله مني والذي لم يكن البويار والكبار الذين كان ينبغي عليهم بحكم مركزهم أن يكونوا حراساً ورعاة لمصالحني ، لم يكونوا يسعون إلى السلطة إلا من أجل أنفسهم رغم ما كانوا يبدونه لي في الظاهر من نية طيبة ، وفي حلقة مداولاتهم انقضوا على إخوة أبي فقتلوهم . وعندما ماتت أمي افتصبوا السلطة لأنفسهم . وبسبب من ذنوبي ويتمي ويفاعتي قتل عدد كبير من الناس في منازعات داخلية ، وكبرت مهملًا بدون تعليم قاسي الطبع بسبب من تصرفات البويار المخاتلة ، ومنذ ذلك الوقت كم من مرة أخطأت في حق الله وكم من العقوبات أنزلها بنا . ليس لمرة واحدة أو مرتين أننا سعينا للانتقام من أعدائنا وإنما كنا نفعل ذلك دائماً وبدون نتيجة . وأنا لا افهم كيف يرسل الله لي كل هذه العقوبات ولا أندم واتوب بل استمر في ممارسة كل أنواع الشدة والعنف على الشعب المسيحي . لقد عاقبني الله بسبب ذنوبي بالفيضان والمجاعة ولم أندم مع ذلك يومذاك ، وأخيراً أرسل الله لي هذا الحريق فدخل

الرعب في نفسي حتى ارتجفت عظامي والآن أثرت هذه الأحداث بي فتبت من أعمالي السيئة وأنبت إلى الله وطلبت الغفران من رجال الدين ، وبإنايتي عفوت أيضاً عن البويار والأمراء .

وهكذا تبدو سمة جديدة في حياة إيثان بعد أن نضجت ثمار علاقته الطويلة مع المتروبوليت مأكاري والتأثير الروحي للكاهن سيلقيستر دون أن ننسى نفوذ أناستاسيا المهدىء اللطيف لأننا لا ينبغي علينا أن نجهل ماكان لها من نفوذ ، فقد كان إيثان في أولى سنوات زواجه من هذه المرأة الفاضلة التي تضاف إلى كل صفاتها الرقة والإنسانية والتقوى والجمال . ونحن بطبيعة الحال نفترض هذا النفوذ افتراضاً دون أن نتمكن من البرهان عليه . ولم تكن القيصرة في عزلتها ضمن اليريم (*) تستقبل رجال الدولة لتحديثهم أو تقدم لهم النصيح ، كما أنها لم تكن غالباً تتناول الطعام مع القيصر وسط حاشيته وإنما كانت تعيش مختصة عن العيان لا يربطها أي احتكاك بالرجال إذا استثنينا زوجها إيثان وفي بعض المناسبات أخاه يوري والمتروبوليت الشيخ أو مرشدها الديني . ففي ذلك الوقت كانت المرأة ما أن تتزوج حتى تدخل فيما يمكن تسميته حالة من العبودية المقدسة .

وكان الوقت قد حان للاحتفال بزواج جديد . فقد فكر إيثان أن أخاه الصغير يوري لابد أن يتمتع بما تمتع به هو من سعادة فقاده إلى المتروبوليت ليتلقى نصائحه وبركاته . واجتمع البلاط من جديد لانتخاب زوجة للأمير من بين بنات روسيا الشابات « وكان للأمير الحق في اختيار من تعجبه من بينهن سواء رضيت به أو لم تفعل . وعندما اجتمعت المرشحات وقفت عينا الأمير عند الأميرة أوليانا التي احبها من أول نظرة وقد سعد إيثان بذلك كل السعادة وأسرع في استعدادات الزواج . وعندما تم الاستعداد لكل شيء نُصب في اليوم المحدد عرشان في قاعة

* اليريم Jerem القسم من المسكن المخصص للنساء ، ومن الواضح أنه مشتق من كلمة « احريم » المألوفة في بيوت العثمانيين - المترجم -

الاستقبال في القصر وكانت تلك واحدة من المناسبات التي تظهر فيها القيصرية أناستاسيا أمام أنظار الجمهور . وقد دخل القيصر والقيصرة أمام أفراد البلاط كلهم إلى القاعة وصعدا إلى عرشيهما مزينين بالجواهر الثمينة ومزوقين بثياب من الذهب والفضة بينما يضع القيصر على رأسه التاج ويحمل الصولجان ، وكانت القيصرة مزينة رأسها بالماس والياقوت وعندئذ أمر القيصر أخاه أن يقترب كي يمنحه مباركته فاقترب يوري وباركه القيصر والقيصرة وبعدهما المتروبوليت . ثم جلس يوري عند قدمي القيصرة فسكبت الخمر على شعره وضمخت به رأسه وإلى جانبها خادم يمسك بيده مشطاً من الذهب كي تتمكن من استعماله . وبعد ذلك قدمت التبريكات إلى الأميرة أوليانا وجلست إلى جانب الأمير يوري ومشط شعر الفتاة على الطريقة نفسها وقامت القيصرة تروح للعروسين بفراء سمور . وقدمت لكل أفراد البلاط قطع من قماش كتاني ، مطرز ثم قام القيصر والقيصرة وتلقى الزوجان الشابان الخمر من يدي جلالتيهما وقد حدث ذلك في الثالث من تشرين الثاني نوفمبر ١٥٤٧ وتلاه وليمة كبيرة .

وتلا ذلك عامي ١٥٤٨ و ١٥٤٩ فكانا أكثر السنوات هدوءاً في تاريخ موسكو . فقد نهضت المدينة بسرعة ، ولكن إعادة بناء عاصمة بهذا الاتساع لا يتم في يوم . ففي بداية شتاء ١٥٤٧ - ١٥٤٨ كانت ركائماً من المخابىء والملاجىء يسكن في كل منها عدد من العائلات ، وفي الربيع من عام ١٥٤٨ بدأت بيوت جديدة ودكاكين جديدة في الارتفاع فوق الارتفاع فوق الأساسات القديمة التي سورها الدخان .

وفي عام ١٥٤٩ أصبحت المدينة أكثر شبهاً بما كانت عليه من قبل حيث استعادت أبنية الكريملين حقاً رواءها ورغدها الأولين . أما التجارة فكان بطيئاً إصلاحها ولكن ذهب العاصمة لم يكن قد ضاع فقام سوق هام لبيع وشراء مواد البناء والسجاد والفراء والأقمشة . وتقدمت المدن الشقيقة لموسكو لمساعدتها وأرسلت لها كثيراً من الأشياء ذات القيمة في ذلك العصر كالدخائر المقدسة والأيقونات بدلا عن تلك التي أخذها أو تلفها

الحريق . إلا أن قسماً كبيراً من الخسائر لم يكن بالإمكان تعويضه كالإقونات التي كانت تنتقل في العائلات من جيل إلى جيل و ثياب الزواج التقليدية التي كانت الفتيات تتلقينها من أمهاتهن وأمهات أمهاتهن منذ أزمان لا تطولها الذاكرة ، ولكن ذكرى هذه التقاليد كانت تحل محل التقاليد نفسها فتحفظها من الضياع .

ولم يكن القيصر والأمراء والبويار يشتركون بأنفسهم في عملية إعادة البناء بل كانوا يقتصرون على إصدار الأوامر وهم يجوبون على خيولهم ميدان العمل الواسع فيتمكنون من رؤية موسكو وهي تنبعث من الرماد . وفي هذه الأثناء كان ثمة مشهد آخر يستدعي الأسى ويتطلب عناية القيصر واهتمامه هو تقدم التتر في روسيا من جديد . فإلى الجنوب من موسكو وعلى بعد حوالي سبعين كيلو متراً وإلى الشمال الشرقي منها أيضاً كانت أرض روسيا مغطاة بعظام المسيحيين والقرى قد نالها التدمير . وكان إيثان في توبته الرائعة واستقامته يتحرق إلى المسير للقاء الوثنيين على رأس جيشه ، وهكذا بدأ حملته في كانون الأول ديسمبر عام ١٥٤٧ بينما كانت تغطي الأرض طبقة كثيفة من الثلج ، ولكن الحرارة ما لبثت أن تغيرت على عكس ما هو معتاد وترك الجليد والثلج مكانهما لأمطار لا تكف عن الهطول . وعندما بلغ القيصر الغولغا في نحو من مطلع شباط فبراير توقف في جزيرة قرب نيجني حيث كان الثولغا متجمداً وقدروا أن سماكة الجليد قد تبلغ متراً على السطح . وفي صبيحة اليوم الأول شهد إيثان كارثة في المكان الذي يحتله . فقد كان من الطبيعي استعمال النهر المتجمد طريقاً للعبور ، ولكن في اللحظة التي بدأ فيها الجيش والمدفعية تنتظم للاستعراض رأى القيصر الماء ينبثق على طول حفتي النهر وصدوعاً كبيرة تخطط سطح الجليد وما لبثت المياه أن ابتلعت فوراً قسماً من الجيش وبدأ كان الله لم يبارك إيثان الذي رأى في هذه الكارثة نبوءة شؤم . وبما أنه اعتقد بأن خطاياهم لم يشملها الله بفقرانه بعد فإنه رفض أن يتابع المسير وعاد إلى موسكو ليتابع فيها حياة الصوم والصلاة وعهد بمتابعة العمليات العسكرية إلى الأمير ديمتري بييلسكي .

وقد توجه بييلسكي الى قازان . ولم يكن هدفه في الحقيقة الاستيلاء على هذه المدينة لأن ذلك كان مستحيلا بالعدد القليل من الجنود الذين كان يقودهم وإنما ليقوم باستعراض عضلات تجبر التتر على وضع حد لتعدياتهم وسلبهم وكان ذلك في شباط وآذار (فبراير ومارس) من عام ١٥٤٨ .

وفي العام التالي انتحر امير قازان التتري صفا غيراى في قصره وهو سكران وخلفه ابنه الطفل اتامش . ولكن السكان طلبوا من خان تتر القرم أن يرسل لهم ولده كي يحكمهم . وفي الوقت نفسه سارعوا بإرسال وفد الى إيثان يعرضون عليه السلام . وأجاب إيثان بأنه لا يتعامل الا مع سفراء تمت تسميتهم بشكل نظامي . ولكن هؤلاء السفراء لم يصلوا وتهاى إيثان لحملة جديدة . وفي ٢٤ تشرين الثاني نوفمبر من عام ١٥٤٩ مضى القيصر مصحوبا بأخيه يوري ونبلائه وانصاره المسلحين وتبعهم المتروبوليت في هذه المرة حتى فلاديمير حيث بارك القيصر وجيشه من أجل العمل الرباني الذي كانوا يقومون به . واتخذوا طريقهم . وفي الرابع عشر من شباط فبراير عام ١٥٥٠ كانوا تحت أسوار قازان . وقد حوصرت المدينة وانتصبت أبراج المهاجمين مقابل جدران المدينة التترية وتحصيناتها الترابية . وكانت ضجة المنجنيقات والعرادات تطفئ على اصوات المدفعية حتى تمكن إيثان وسيفه في يده من دخول المدينة مع رجاله وأجرى فيها مذبحة كبيرة دون أن يتمكن من الاستيلاء على الحصن . وكان عدد الروس المهاجمين ستين ألفا . وكان يمكنهم أن ينتصروا لولا أنه حدث في اليوم التالي ذوبان سريع للثلوج رافقته امطار غزيرة فلم تتمكن المدافع من السير وانكسر الجليد فوق القولغا من جديد وخاف الروس من أن يقطع الفيضان عليهم الطريق . وحدث بينهم هرج ومرج إن لم نقل ذعر شديد . وقرر القيصر حالا أن يقاتل وهو يتراجع وإن لم يحدث عمليا في المؤخرة اي قتال . وانتظر سكان قازان حتى غاب العدو تماما عن الأنظار ليقوموا بجمع ما تركه وراءه من مخلفات . وعندما وجد إيثان أن أحدا لم يتبعه قرر أن يبني ذكرى لحملة مدينته على ضفاف

القولغا في مكان قريب من قازان عند مصب السفياغا Sviaga . وقد بنيت هذه المدينة فوق أرض عدوة وكرست لتكون حصنا مسيحيا يستخدم قاعدة انطلاق لحملة قادمة على قازان . وقد سعى إيثان من وراء إقامة هذا الأثر المادي أن يغطي فشلا لامراء فيه ، ولكن ذلك لم يمنع انتشار الأقاويل ضده وأكثر من ذلك ضد ديمتري بييلسكي الذي اتهموه بالخيانة . ومات هذا الأمير الذي كان أخا لإيثان بييلسكي السيء الحظ بعد عودة الجيش إلى موسكو بقليل . ومع ذلك فإنه لم يكن خائنا وإن بدا قليل الكفاءة فيما أسند إليه من مهمة .



الفصل الثامن

إيثان في سن العشرين

في سن العشرين بلغ إيثان كامل نموه . كان طوله حوالي متر وثمانين سنتيمترا كامل البنية لا نقص في جسده . وكان خجله وميله لأن يتجنب انظار الآخرين يشكلان تناقضا مع مظهره الضخم وصفاته الفروسية وهيأته المميزه . وكان العقل عنده يطفئ على الحمية والشك ترك طابعه على فمه وقسمات جبهته . وهم يمثلونه عادة بعينين واسعتين مندهشتين أشبه ما تكونان بعيني حيوان خائف . وكان أنفه المعقوف الدقيق ارستقراطيا لطيفا وفمه فم جبان حذر . وكان شعره الأسود يسقط طويلا على جانبي وجهه ولكنه يقص قصا قصيرا من الخلف . أما هيأته البيزنطية فيعلوها ألم معنوي ومزاج عصبي وتبدو خطرة تلهم الرعب .

ومن بين عدد من العلامات المميزة والمفارقة أنه كان يشعر بإشفاق على نفسه يتنامى على الدوام ، وكان يشعر بأهمية لقبه كما لم يشعر احد من أجداده من قبل فهو الملك الالهي والقيصر الفامض لكل روسيا الذي تقوم كلمته مقام القانون ، ولكن ذلك لم يمنعه من أن يبقى دائم القلق مرهقا بهذا الشعور . وقد تطور شعوره بقدرته اللامتناهية جنبا الى جنب مع اشفاقه على نفسه ، وهكذا بقي يتدمر مدة طويلة من أنه كان تعيشا يتيما وهو في الثالثة من العمر وقد أهمل البويار تثقيفه واغتصبوا السلطة منه ، وكانت سعادته الكبرى في أن يتحدث مع الكهنة او الرهبان في بعض المواضيع الدينية أو التي تتعلق بالكهنوت . وكان بإمكانه أن يكون هازئا سريع البديهة ولكنه لا يلبث أن يعود الى قلقه الذي

لا يحول عنه ويكرر الكلام بدون نهاية عن مظالم طفولته الشقية ، وحتى في يفاعته المبكرة جداً كان مزاجه المندفع يجعله فجأة غاضباً ميلاً إلى العنف كما لو أن قرينا مجنوناً مخيفاً يكمن وراء سحنته البيزنطية . ولم يكن يستطيع أحد أن يتنبأ قط بما سيفعله حتى في أفضل أوقاته .

كانت أجمل حقبة في حياته عندما كان يشعر وهو في سن العشرين بأنه يرزح تحت تهديد من غضب إلهي ويرفع اصبع التوبة بفضل نفوذ ماكارى العجوز وبفضل زوجته الناعمة أنا ستاسيا . وكانت موسكو الجديدة قد اتسعت أمام نظريه وارتفعت الصلبان فوق المنازل التي أعيد بناؤها وسكب الكهنة الماء المبارك على البيوت الجديدة . وقد تمت تغطية اسقف المنازل بالطين لكي لا تتمكن الشرارات الخارجة من المداخل أن تتسبب في حريق جديد ولم تعد موسكو الجديدة مدينة من الخشب كما كانت من قبل وأصبح لبعض نوافذها اطرأت من حديد كما أصبح للقسلة النادرة من بيوتها أساسات من حجر . ولكي يوقف دخول الهواء جهازوا الواجهات بالطحالب أو غطوها بلحاء أشجار البتولة ، ولكن هذا التصرف الأخير كان أكثر خطراً من الخشب لأن النار كان بإمكانها أن تكمن هنا مدة طويلة في السر ثم ما تلبث أن تلتهب بسرعة بفعل الريح ، ولم يكن في موسكو مطافئ ، ولم يكن فيها من ماء الا ما يجلب من النهر ، والصلاة كانت وحدها هي ما يحمي من الحريق .

ومع ذلك فإن الشعب بعد المصائب التي ابتلاه بها الله استطاع أن يستعيد هدوءه وبدأ عهد جديد . ولكي يحسن القيصر الاحتفال بهذه المناسبة قرر بتأثير من نصائح أرداتشيف وسيلفستر أن يقوم بعمل يجعل منه أباً للشعب . ففي عام ١٥٥٠ بعد عيد ميلاده بقليل دعا لانعقاد مجلس يمثل النبلاء والشعب كان ينبغي أن انعقد في الهواء الطلق في ميدان الكريملين الكبير . وهياً لانعقاده بالصوم والصلاة وتناول القربان السذي سيساعده بدعم من جسد السيد المسيح ودمه على أن يعلن أمام رعاياه بدء سياسة جديدة في روسيا ، وتوجه الى المتروبوليت بهذه الكلمات :

« ايها الاب المقدس . بعد خدمة نحتفل بها في الهواء الطلق أعلن عن معرفتي لمحبتك ورعايتك سلام الوطن فكن عوني في العمل المبارك الذي قررنا ان نباشر به . فمند ساعة مبكرة من حياتي حرمني الله من الاب والام وأراد اننبلاء حكم البلاد دون أن يظهروا لي أي اهتمام ، وباسمي سرقوا السلطة والأعطيات واغتبنوا عن طريق الابتزاز والاعتصاب واضطهدوا الشعب ولم يقف في طريقهم أحد . ولقد بدوت في طفولتي البائسة أطرش وأخرس فلم أسمع أنين الفقراء ولم تنطق شفتاي بأي كلام » . ثم توجه بحماسة نحو النبلاء ووجه إليهم هذه الكلمات : « انتم ، انتم ايها الملعونون المتمردون ايها الاداريون الخونة لقد صنعتم بروسيا كل ما حلا لكم ، فبماذا تردون على اتهاماتي ؟ ، كم من الدموع أجريتم ؟ ، كم من الدم أهرقتم ؟ ، إنني بريء من هذا الدم وستنالون عقاب ما اقترفتموه من آثام أمام محكمة السماء . » .

ثم توجه بعد ذلك الى الشعب مستمراً في توجيه الكلام : « ايها الشعب الذي اعطانيه الله ، أتوسل إليكم أن تؤمنوا به وتمنحوني محبتكم . كونوا كرماء ! ، فمن المستحيل أن نصحح أخطاء الماضي ، ولن أستطيع إلا في المستقبل ان اجنبكم الاضطهاد وأنقذكم من السلب والنهب . فانسوا ما لن يتكرر ولنطرد من نفوسنا الكراهية والبغضاء ولنعيش كلنا في رحاب المحبة المسيحية ، فمند هذا اليوم ساكون قاضيكم والمدافع عنكم . » .

وقد عهد الى أرداتشيف أن ينظر في مظالم كل أولئك الذين كانوا يعتقدون أنهم غبنوا أثناء حكم البويار الفاسد وأن يلفت نظر إيشان الى المظالم التي يمكن مداواتها . وكان عليه أن يعمل بدون خوف فليس لأحد من كبار عائلات روسيا ان يمسّه . على أننا لا نعرف عدد أولئك الذين واتتهم الشجاعة لتقديم مظالمهم بناء على دعوة القيصر ، ولا شك أنهم كانوا قلائل . ولكن اللفتة كانت كريمة ، « فالقيصر باركه الله سيتلقى شكواؤنا » ، ولكن هل كان ثمة بسطاء يتجرؤون على تقديم شكواؤهم على القيصر والعائلات النبيلة ؟ . ومع ذلك فإن أرداتشيف وسيلفستر لم

يقوما باصالات واسعة مع الشعب الذي كان بإمكانه بناء على الفرصة التي سنحت له ان يعرف القيصر بعدد كبير من حالات التجاوزات والمظالم . وكانت النتيجة الاولى لهذه الدعوة الى تقديم الشكاوى العامة هي انجاز مجموعة جديدة من القوانين بدىء بكتابتها في عام ١٥٥٠ نفسه .

لقد كانت روسيا دولة تخلى فيها الامراء الوراثيون واسياد الاراضي عن استقلالهم ولكنهم لم يتخلوا عن قوانينهم . وكانت مجموعة القوانين سيئة التنظيم . فالقانون المعمول به في موسكو لا يمكن اعتباره ملزماً في نوفغورود وبسكوف والعكس بالعكس . وكان إيثان يقف في أعلى مكان من الامبراطورية فوق امراء البلاد ، فلم يكن مستغرباً اذن شعور أول قيصر لروسيا بواجبه في وضع مجموعة قوانين جديدة للبلاد . وكان من الواجب ايجاد ربط بين كل القوانين المحلية والغاء بعضها بسبب ما فيها من تناقضات .

واشترك القيصر الشاب بنفسه في موضوع إعادة النظر . وعلى الرغم من أنه لم يكن قد درس التشريع فإنه كان يمتلك مع ذلك رؤى محددة عما يريد إدخاله في القوانين الجديدة . ولقد أظهر مرة أخرى ان ترقية نفسه الى مرتبة القيصر لم تكن مجرد إجراء شكلي فتغيير اللقب كان لا بد من ان يتخذ مكانه في تعديل القانون . وكان إيثان يريد ان يجمع بين يديه جزءاً كبيراً من السلطة الموزعة على الامراء ، فكلمة « السيادة » كانت تعني المركزية وتوحي باستبداد اكبر . وإيثان الذي كان قد اختار مستشارين من الشعب كان يسعى للحصول على سند لعرشه في عنصر اقل اضطراباً واقل قسوة من طبقة النبلاء .

ويجب ان نفترض ان الشعب الروسي كان مسروراً من فكرة ان يكون محكوماً من القيصر نفسه بدلاً من موظفين من النبلاء وأن يعاد النظر في قوانين البلاد كي تكون أكثر وضوحاً . وكان للبويار والحاشية ممثلوهم ولكنهم لم يكونوا يشكلون وحدهم كل روسيا ، فعلى الرغم من

ممتلكاتهم الواسعة وأقنانهم لم يكونوا ليتأخروا عن ارتداء الأسمال لولا رخاء العدد الوافر من التجار الذين كانوا يعيشون من ورائهم .

وكبداية لعصر افضل فإن الأكثر سوءاً من البويار تم إبعادهم عن موسكو ، وهكذا انتزعت من الأمير ميشيل غلينسكي وظائفه في البلاط وسمح له بالانسحاب بهدوء الى ممتلكاته ، وأصبح زاخارين عم القيصر عضواً في مجلس الدولة . أما يوري أخو إيفان فكان يعيش بعد أن تزوج معيشة البدخ في الكريملين ويتلقى من الهدايا بقدر ما كان يتلقى القيصر نفسه . وكانت الصداقة تسود بين الأخوين ، وكان إيفان يبدأ أحاديثه غالباً بهذه الكلمات : « أخي وأنا ... » .

وبعد أن أقر القيصر مجموعة القوانين المدنية الجديدة التي كان قد أنشأها انصرف باهتمامه الى الأخطاء في سلك الكهنوت وأمر بعقد اجتماع لذلك في الثالث والعشرين من شباط فبراير عام ١٥٥١ .



الفصل التاسع

الكنيسة

لم يرتفع متروبوليتات موسكو الى رتبة البطاركة إلا في عام ١٥٨٩ اي بعد خمسة أعوام من وفاة إيثان ، وكان الاتراك قد استولوا على القسطنطينية في عام ١٤٥٣ واستعبدوا الشرق الأرثوذكسي وافقروا البطاركة والأديرة . وكانت الأمة الأغنى من غيرها بما لا يقاس والأكثر قوة في مجموعة الكنيسة الأرثوذكسية هي روسيا التي سلمت من احتلال المسلمين . وكان لا بد للكنيسة الأرثوذكسية الروسية في السنوات التي تلت من أن يكون لها بطريركها الخاص بها طالما كانت تسلك معارج القوة والمجد .

إلا ان الكنيسة بمقدار ما كانت تصبح أكثر غنى كانت تضعف فيها الروح . والأوقاف التي كان قد وقفها عليها أشرار النفوس لتهدئة غضب الإله بعد حياة قضيوها في الخطيئة سببت للكنائس الكثير من التعقيدات الرهيبة . وفي زمن إيثان الرابع كانت الكنيسة غنية جداً فجرّ غناها هذا السلطة الدنيوية الى الاغتصاب . وإنه لما يشير الفضول في روسيا إيثان الرابع المفرطة التقى ان نشاهد أن الشروة المقدسة في الأديرة لم تكن تعتبر بكل بساطة « ملكاً لله » ، كما أن من المدهش حقاً أن حياة وسلوك أولئك الذين غادروا هذا العالم ولم يتم دفنهم بعد كانا قابلين للنقاش .

إن الريح تهب حيث تشاء . ويبدو أن النسيم الذي كان يهب يومذاك من جهة الغرب قد وصل الى روسيا . وفي مؤتمر الكنيسة الذي عقد عام ١٥٥١ هاجم إيثان في الوقت نفسه اخلاقية الكنيسة وشرعية حقوقها في امتلاك أملاكها الواسعة . وكانت عاصفة الإصلاح تضرب أوروبا الغربية يومذاك وينسمع في موسكو هزيم غامض لما يحدث هناك من رعود .

وقد ارتفعت في الكنيسة نفسها بعض المطالب بالإصلاح وربما كان ذلك بتحريض من سيلفستر أو من أرشمندريث دير سيرجي ترويسكي الجديد أن عقد المؤتمر . وكان المتروبوليت مأكاري باعتباره خادماً متواضعاً لله يرضى بإخضاع الكنيسة للنقد إن لم يكن للعقاب ولكن الإيحاء بذلك لم يأت منه . كان ميالا للصلاة أكثر من ميله للنقاش ، والصلاة الطويلة لا تؤدي في بعض الأحيان إلا الى عرقلة الأعمال . كما أنه كان ميالا - وهو المحبوب الحصيف لا شك في ذلك - الى البخل النابع عن التقى كما أو أن إنذار « أنا إلهك الإله الغيور » يتضمن الفيرة على كل شيء أعطي لله من أن يعطى لأحد من بني البشر : أما في موضوع الأخلاق فإن فكرة أن ام المسيح يمكن أن تكون شيئاً آخر غير أن تكون عدراء قد رفضت بكل عصبية .

والواقع أن مؤتمر عام ١٥٥١ لم يضم إلا القليل من الناس . ومهما يكن من أمر فإن قصر القيصر لم يكن فيه مكان يتسع لمجلس عام يضم رجال الدين من الروس ، فكان الحضور تسعة أساقفة وكل الأرشمندريئات وكل رؤساء الأديرة والمتروبوليت نفسه ، وقد استقبلهم القيصر مع مجلسه من البويار لدرجة أنهم بدوا وكأنهم مدعوون للمثول أمام محكمة من العلمانيين .

وكان معظم أعضاء الإكليروس يعتقدون بدون شك أنهم أحضروهم للموافقة على مجموعة القوانين الجديدة ومباركتها ، وكان ذلك في الواقع أول عمل من أعمال المجلس . وفي خطاب كان إيثان قد ألقى بعضه على

الجمهور تحدث إليهم عن المظالم التي تعرض لها في حديثه وعن غضب الله الذي انقض على مدينة موسكو وسألهم بكل تواضع أن يدينوا ما بدا منه من خطيئات : « أدينوني بسببها ولتدوِّي كلمة الله كيما تستطيع نفسي أن تعيش ! » ، وبطبيعة الحال لم يفعل الإكليروس شيئاً من ذلك . وأخيراً شرح لهم إيثان أحكام مجموعة القوانين المدنية الجديدة فسرّهم ذلك وأقروا باسم الله هذه القوانين .

إلا أن مفاجأة كانت تنتظرهم . فبدلاً من أن يكونوا مخوابين بالانسحاب توجب عليهم أن يمكثوا لدراسة الاقتراحات التي كانت قد جهزت بكل عناية لإصلاح الكنيسة . فإيثان كان قد ألف بمساعدة سيلقيستر وأرداتشيف لائحة أسئلة مكتوبة عالج فيها موضوع الممتلكات التابعة للأديرة والعادات وأخطاء النساخ في الكتب الدينية والهرطقات والاختلاسات . وكما لو أنهم أرادوا أن يضعوا نهاية للقرون الوسطى تقرر إيقاف نسخ كتب الطقوس باليد وإنشاء مطبعة في موسكو ، ذلك لأن خطيئة يكرسها مرور الوقت لها من القوة أكثر مما للمعرفة . ويجب ألا ندهش من أن أول مطبعة أنشئت ما لبث أن دمرها الجمهور . وكان القليل من الكهنة العاديين يعرفون فك الحروف ولكنهم كانوا في المقابل يحفظون الخدمات الدينية عن ظهر قلب . ولم يكن إيثان قادراً على إقرار الجهل ، ومن أجل القضاء عليه كان لا بد له من الكثير من الكتب . وهكذا لم يتأخر في إقناع ثيودوس مطران نوفغورود ونيكاندر مطران روستوف فيليكسي وتريفون أسقف سوزدال وسيبيريان أسقف بيرم والمتروبوليت ماكاري بأن يقرروا إنشاء مدارس كنسية في موسكو وفي مدن أخرى . وتملصت الكنيسة من موضوع العادات . ففي بلاد تنتشر فيها الأديرة في كل مكان تقريباً لا بد من مواجهة حالات من الشذوذ الجنسي ، وقد أمكن الإجابة على ذلك بأن تنسكاً مفرطاً يمكنه أن يعوض من جهة أخرى هذه الشذوذات . والواقع أنه كان يوجد الكثير من التنسك غير المسؤول فتقرر منع إقامة مناسك جديدة غير مرخصة في الغابات والمغاور والأماكن المقفرة .

وبما أن الرهبان كانوا من الناحية النظرية موتى في نظر العالم فقد اقترح أن تعلن الأراضي التابعة للأديرة جزءاً من أملاك التاج على أن تتمتع الأنظمة الدينية بحق الانتفاع من هذه الأراضي وأن يكون هذا الحق مرتبطاً برغبة القيصر . ولكن رجال الدين رفضوا هذا الاقتراح بعنف بطبيعة الحال ووجب على القيصر أن يكتفي بقبول قانون ينص على أن الأساقفة والأديرة لا تستطيع في المستقبل أن تقوم بأية حيازة أو تملك إلا بموافقة منه (١) . وكان ينبغي للأراضي التي أعطيت إلى الكنيسة أثناء يفاعه إيشان أن تعود إلى أصحابها السابقين . فقد ثبت بوضوح أن الممتلكات الوراثية للعائلات التاريخية الكبيرة أصابها تغيير وتبدل وأن الورثة لا يمكن قانوناً أن يحرموا من أملاكهم بسبب تقى بعض الجدد . وفي الحالات التي وجدت الكنيسة بها مالكة حانياً لمثل هذه الأملاك التي لا يجوز التصرف بها فإنها ستكون مضطرة لإعادتها . ومن المحتمل أن يكون القرار المتخذ بإنقاص ممتلكات الكنيسة أهم نتيجة توصل إليها المؤتمر . وقد استمر النقاش الكبير خلاله طوان الوقت حتى لم يبق مكان للطعام والشراب . والمؤتمرون الذين صاموا على ذلك صوماً اضطرارياً وأكثروا من الصلاة بقوافي جلساتهم المستمرة طول أيام الصوم الكبير . وقد لزموا الصوم في هذه الفترة بدون منة ولا شكور .

وفي كل شتاء ١٥٥٠ - ١٥٥١ كانت الحرب ضد قازان تكمن تحت الرماد لأن اهتمام إيشان كان منصرفاً دائماً لمناقشة القضايا الدينية والقانونية التي كانت تطفى على ما كان يتلقاه من أخبار الجبهة الشرقية . وكان الأقنان خلال ذلك يقطعون أشجار الغابات الأكثر قرباً من مدينة سفيازهسك الجديدة وسط الجليد والثلوج ليحصلوا منها على الأخشاب اللازمة لبناء المنازل والكنائس في تلك المدينة التي أمر بإشادتها إيشان .

(١) ولكن هذا القانون لم يطبق واستمر انتقال الأراضي غير المشروع دون انقطاع طوال عهد إيشان رغم إعلان القانون من جديد عام ١٥٨٠ . ومع ذلك فإن القيصر رغم تقواه كان يسلب الأرزاق من الكنيسة في مناسبات عديدة ليضمها إلى تروته .

وقد ارسل تتر قازان الذين افادوا من انسحاب الجيش الروسي بعيداً عن أسوارهم أرسلوا يطلبون المدد الفوري من مملكة التتر والمساعدات حتى من سلطان تركيا نفسه . ووصلت الأنباء الى موسكو بأن خان القرم كان يتقدم نحو الشمال وان جيشاً أرسل للملاقاته دون أن يكتشف مكانه . وكان الخان سيپ غيراي يعتبر نفسه عاهلاً لا يقل عظمة عن إيفان نفسه . وكان قد استولى حديثاً على استراخان التي كانت يومذاك مدينة مزدهرة وأعرب عن حقوق له على قازان وبالتالي على كل منطقة الفولغا الممتدة من قازان حتى بحر قزوين . وكان يشعر أنه من القوة بحيث يستطيع أن يعرض الصلح على إيفان مقابل خمسة عشر ألف قطعة ذهبية على روسيا أن تدفعها له كل عام .

« كنت من قبل يافعاً وقد أدركت الآن سن الرشد ، فأخبرني عن رغبتك ، هل تريد الصداقة أو إراقة الدماء ؟ . فإذا كانت الصداقة فأرسل لي من الهدايا ما يليق بأمر وخمسة عشر ألف قطعة ذهبية في كل عام . أما إذا أردت القتال فأنا مستعد للسير الى موسكو وستطأ خيولي بأقدامها كل أراضيك » .

وكان رد إيفان عليه انه وضع كل سفرائه في السجن . وهكذا لم تلق عروض السلام التي قدمها خان القرم وأمير قازان أي احترام من إيفان لأن الحرب ضد الوثنيين كانت في نظره حرباً مقدسة . كان بإمكانه أن يعقد مفاوضات ولكنه لا يعتقد أبداً سلاماً نهائياً مع هؤلاء الأعداء . والذين كانوا يموتون وهم يقاتلون المسلمين يذهبون رأساً الى السماء وهم يحملون أخباراً مجيدة ، فهذه الحروب كانت تتحلق حولها هالة من نور . وكان الكهنة يحملون خلال المعركة صلبانهم وإيقوناتهم ، ففي أثناء حصار قازان رفعوا صور العذراء المقدسة الى جانب المنجنيقات والعرادات وبقيت المصابيح مضاءة طول الوقت الذي استغرقه الهجوم . أما المدافعون المسلمون فكانوا يقابلون شعارات التقى هذه بكلام وعبارات رفض مؤرخو العصر أن يكرروها كما كانوا يرفعون أريدتهم ليكشفوا عن مؤخراتهم

استهزاء بالمهاجمين . وكان سلوكهم هذا يشبه سلوك إغريق عصر الانحطاط الذين كانوا يفعلون مثل ذلك من أعلى أسوارهم استهزاء بالرومان .

ويمكننا اليوم أن نتساءل لم لم يخرج المدافعون عن قازان لتدمير المنشآت الأولى من سفيازهسك التي كان تهديدها لهم يتزايد يوما بعد يوم أمام أعينهم . مهما يكن من أمر فإنه في الثامن عشر من أيار مايو ١٥٥١ قبل الفجر خرج الروس من سفيازهسك فهاجموا قازان بغتة واخترقوا تحصيناتها الخارجية وقتلوا ألفا من التتر وهم نيام وهلك العديد من أمراء التتر ووجهاء المدينة في هذا الهجوم وعاد الروس إلى فاعدتهم سفيازهسك بدون أية خسائر . وكان لا بد لكارثة كهذه أن تقنع شعب قازان بأنه لن يصمد طويلا أمام الروس .

ولم تكن الأميرة الشابة صوغونبيكا مع ابنها الصغير سوى حائمة بالاسم على قازان . ولكن الأميرة كانت قد اتخذت لنفسها عشيقا أحد أمراء التتر من القرم واسمه كوشاك كان يبدو أنه قادر على اغتيال الطفل ليضفي على نفسه بعد ذلك لقب أمير قازان . وكان مكروها في المدينة لدرجة أن مؤامرة دبّت عليه من أجل وضعه في الأغلال هو وأنصاره الرئيسيين وتسليمهم كلهم للروس . ولكن كوشاك لاذ بالفرار أثناء الليل مع خمسة وأربعين من أصدقائه دون أن يتمكن من الإفلات من الروس الذين القوا القبض عليه وأرسلوه إلى موسكو مكبلا بالأغلال . ويقال إن إيثان عرض عليه أن يحفظ عليه حياته إذا تعمد واعتنق المسيحية ولكنه رفض فقتل هو وجميع الأسرى الذين كانوا معه .

وجرت محادثات لمقد الصلح وطلب القيصر استسلام صوغونبيكا وولدها . ومن أجل أن يحفظ سكان قازان سلامتهم أرسلوا الأميرة في زورق . وتروي القصة أن قازان كلها كانت تسكب الدموع على منظر الأميرة الجميلة الضعيفة صوغونبيكا التي أُجبروا على تسليمها وأن الأميرة ركعت أمام قبر زوجها صفا متمنية لنفسها ما كان يتمتع به من سلام ،

تم اتخذت مكانها في مركب زَيْن أحسن زينة (الأمر الذي يشبه أسطورة شعرية أكثر مما يشبه قصة) تقدم بجهود مجد فيه ببطء على طول نهر قازان الصغير . وقد صعد كل سكان المدينة فوق الأسوار يواكبون بانظارهم أميرتهم وابنها أتامش وحاشيتهما من التتر . وعند مدخل نهر القولغا التقت بمبعوث أقيصر الذي صعد الى ظهر المركب فعزاها وحيها باسم سيده . ثم قيدت بعد ذلك حتى مصب الأوكا بالقولغا ومن هناك الى نهر موسكفا وأخيرا الى موسكو حيث استقبلت استقبالا حافلا واعتنقت الديانة المسيحية ، وفي السنة التالية بعد ولادة ديميتري ابن إيفان احتفل بعمادين أحدهما لديميتري والثاني لأتامش .



الفصل العاشر

فتح قازان

« كل نواقيس نوفغورود تفرع لان قازان تم الاستيلاء عليها » ، هذا ما يمكننا قراءته في حولية نوفغورود القديمة . وقد قرعت نواقيس موسكو كلها أيضا . وكلما تلتقت واحدة من مدن روسيا القديمة النبا اخذت نواقيسها بالرنين . كان فرحا قوميا كبيرا فقد ضمنت قازان الى المسيحية . كان انتصارا لامة الكنيسة امة الله . والإيقونات الأرثوذكسية لن تلبث ان تخرق القولغا ، وروسيا الظافرة ببريق حفلها اصبحت على ابواب آسيا وهلال الإسلام كان يخبو نوره امام ضياء فجر السلافا .

لقد انهى إيفان سيطرة التتر على قازان . فالقربينات والمدافع والاعمال التي قام بها المهندسون الالمان اثبتت تفوقها على القوس والسيف . « فالتتر لم يكونوا يستخدمون في قتالهم اي سلاح ناري ولم يكونوا اكثر من اناس عراة يمتطون الخيول ماهرين في استعمال القوس والسيف . وثمة رواية تستحق التصديق بانهم يولدون عميا ولا يفتحون جفونهم إلا في اليوم الثالث وهذا لا يحدث إلا عندهم وانهم شعب بربري فظ يعيشون على نتاج الماشية والتغذي بها . . . وعندما يفزون اراضي أعدائهم لا يحمل احدهم من المؤونة اكثر من كيس من الطحين ياخذ منه طول مدة المسيرة حفنة يبللها بدم حار مأخوذ بواسطة إبرة مخصصة لهذه الغاية من فخذ حصانه » (١) . وهكذا كانوا يعيشون

(١) رسالة من وليام هادبون الى سير فرانسيس والسينفهام .

عبر العصور . وهم أيضاً شعب متوحش خطر كان خلال السنوات الأخيرة يهدد موسكو على الدوام ولكنه ما لبث أن أصبح أكثر لطفاً وليناً في المعاملة مع السنين . ومع أنهم كانوا أعظم فاتحي العالم بعد الإسكندر المكدوني فإنهم أصبحوا غير قادرين على الاحتفاظ بصفاء القوفا في الغاية . في القرن السادس عشر كانوا لا يزالون قادرين على الصمود في ميادين القتال ولكنهم ما لبثوا كلهم أن أصبحوا بعد ثلاثة قرون من ذلك تجاراً صغاراً وباعة ذوي ثياب رثة دون أية بارقة من طموح سياسي . وفي عام ١٥٥١ كان رأي نصف سكان قازان على الأقل أن يستسلموا لإيخان ، « فهو عاهل كريم وسنعيش في ظله في بحبوحة من العيش » . وكان يوجد من بينهم عدد من الفارين اللاجئين الى إيخان وعدد من الخونة نذكر منهم الشيخ علي الذي كان أداة في يد القيصر . فبعد رحيل صوغونبيكا دبر الشيخ علي هذا مذبة كبيرة للتتر حيث نظم مأدبة كبيرة دعا إليها كبار الوجهاء في قازان ثم قام بلدبجهم بمساعدة عصابة من القتلة ، وكان عدد من قضاو نحبهم في هذه المصيدة سبعين شخصاً .

وعندما وصل خبر ذلك الى إيخان الرهيب ، ودون أن يخفي احتقاره لهذا العمل ، ارسل أرداتشيف الى قازان ليقول للشيخ علي أن موسكو كانت تعرف تماماً أن سكان قازان البائسين كانوا عاجزين عن حكم أنفسهم وأن القيصر ينوي القدوم عما قريب للاستيلاء على المدينة . ويمنحها حمايته الجليلة كما يمنحها للأمير الشيخ . ولكن عندما دعي الشيخ لاعتناق المسيحية رفض ذلك بتعال وكبرياء . والواقع أنه كان من الصعب التعامل معه فدعي للقدوم الى موسكو للتفاهم . وعين القيصر الأمير ميكولينسكي حاكماً على قازان ، وقدم السكان للقائه عند ضفاف القوفا وقدموا له الاحترام والتبجيل . وقضى ميكولينسكي وأرداتشيف معظم وقتهما في سيفازهسك وقلما سمح لهما بدخول حصن قازان بينما لم يكن في المدينة نفسها إلا حفنة من الجنود الروس . وكان السكان يماطلون مع اظهارهم القبول بميكولينسكي حاكماً عليهم ، ولكنهم

ما لبثوا أن فكروا بالمقاومة بكل الوسائل التي تقع تحت تصرفهم وما لبث
أرداتشيف وميكولينسكي أن وجدا أبواب المدينة مغلقة أمامهما والمدفعين
يستهدفون بهما من أعالي الأسوار . ولكن إذا كان التتر لم يجدوا
الشجاعة على قتل هذين الروسيين فإنهم لن يجدوها في مقاومة إيثان
الرهيب .

في آذار مارس من عام ١٥٥٢ وفي وسط اجتماع عام لمجلس البويار
أعلن إيثان عن عزمه الانتهاء من قازان . وقال في تصريحه : « إن الله قرأ
ما في قلبي . فأنا لا أريد مجداً أرضياً ولكنني أريد سلاماً للمسيحية .
وكيف يمكنني أن أردد في صلواتي هذه العبارة : (أنا والشعب الذي
أعطيتني إياه) إذا لم أنقذه من ضراوة أعدائنا الدائمين ؟ » .

وقدم البويار نصيحتهم للقيصر بأن يبقى في موسكو تحسباً من
قيام تتر القرم بهجوم من الجنوب . ولكن القيصر كان قد حزم أمره
على أن يرافق جيشه إلى الجبهة الشرقية ليكسب بشخصه أكايل الغار
التي سيجنحها هناك . وكان يبدو للروس أن الأمر لن يعدو أن يكون
نزهة بسيطة .

ومن أجل مضاعفة فرص النجاح تم تجهيز جيش قوي جداً كان
فيه عدد من حملة القربينات الذين كان يطلق عليهم اسم Strieltsi
أي الذين يطلقون النار ، كما كان فيه كوزاق شاركوا للمرة الأولى بأعداد
كبيرة في الحروب الروسية . ثم يأتي المدفعيون مع مدافعهم . وكان المدفع
يفتن عقل الروس الذين كانوا في ذلك الوقت في الطليعة في مضمار
استعمال المدافع بالنسبة لمعظم الأمم الأوروبية .

ولزم مايقرب من ثلاثة أشهر لتجميع مثل هذه القوة كان الحظ
خلالها يبتسم بصورة متناوبة للتتر في قازان . ففي خلال طلعاتهم من
الحصن فاجؤوا الروس وقتلوا منهم أمراء وأبناء أمراء وذبحوا عدداً
كبيراً من أعدائهم وطلبوا مساعدات مسلحة من القرم ومن استراخان .

وفي الوقت نفسه تفشى وباء الإسقربوط في سفيازهسك فمات الكثيرون واسلم الناجون أنفسهم للموبقات الجنسية . وما كاد الجيش يقع في هذه الخطيئة حتى ارسل المتروبوليت رسولا هو تيموثي يحمل الماء المبارك وأمرأ بإعادة الضالين إلى التوبة والندامة . والكتاب الذي أرسله المتروبوليت وحمله إلى تيموثي كتاب يلفت النظر جاء فيه ما يلي :

« بنعمة الله وحكمة قيصرنا وبسالة جيشنا استطعنا أن نرفع حصن الكنيسة فوق أرض عدوة . فقد أسقط الله قازان بين أيدينا وازدهرت أحوالنا وغدونا مشهورين حتى صار الألمان واللثوانيون يخطبون ودنا . فكيف نستطيع أن نعبر عن حمدنا للعلي الأعلى لو أن ما تم لم يكن برعايته وتوجيهاته ؟ ولكن هل لاحظتموها أنتم ؟ . إن الشائعات أفلقت قلب المليك كما أفلقت قلبنا . فقد قيل إن نفراً منكم نسي مقت الله وغضبه فانغمس في الخطايا كما فعل أهل عمورية وسدوم وأن كثيراً من الفتيات والنساء ذوات المظهر المحتشم قدمن من قازان ليمارسن الفحش بينكم وأن رجالاً منكم يقومون من أجل ارضائهن بإسقاط لحاهم بواسطة المقص منكبين في خنونتهم أنهم من الرجال . ولكن الله سيعاقبكم ليس بالمرض فحسب وإنما بالخجل والعار . ماذا فعلتم بأمجادكم ؟ . كنتم رعباً فيما مضى على عدوكم ففقدوتم اليوم موضع سخريته وهزئه . إن الخطيئة تضعف الرجال الأقوياء والسلاح ينثلم عندما تهرب الفضيلة من القلب لقد ارتكبت أعمال شائنة ووجد بينكم خونة . . . والله وإيثان والكنيسة يأمرونكم بالتوبة والندامة . اصلحوا من سلوككم وإلا ستعرفون غضب القيصر وتسمعون لعنة الكنيسة » .

ولاشك أن هذه الرسالة كتبت بالتعاون بين المتروبوليت والقيصر . ونحن نجهل ما إذا كان انحلال الأخلاق الروسية قد وقع بعد البأساء الناجمة عن الإسقربوط أو أنها انتقلت إليهم من العادات التتارية . على أن التتر كانوا في ذلك العصر أكثر فظاظة من الروس . فنحن نرى الشيخ علي الذي كان يسمى نفسه قيصر قازان سميناً لاهثاً نهماً صاخباً خائناً دمويّاً كسولاً نموذجاً لكل هذه الصفات . ولم يتعرض في موسكو لسوء

في المعاملة بل قدم له القيصر الهدايا والعطاءات ، وبدلاً من أن يتعرض للنقمة أو يقطع رأسه أخذ يتودد إلى صونفونبيكا الجميلة التي أعجب بها ونال إذن القيصر بالزواج منها وحدث ذلك في بداية الصيف من عام ١٥٥٢ . وقد قدم الشيخ علي نصيحته للقيصر بلهجة مخلصة بأن يؤجل فتح قازان حتى الشتاء التالي ولكن إيثان كان مصمماً وقال له : « إن كل شيء جاهر وبمعونة الله سننهي هذه المهمة على خير وجه » .

وقد عهد إيثان لأخيه يوري بأعنة الحكم خلال وجوده في الجبهة ورجا المتروبوليت والأساقفة أن يسامدوه بإمداده بنصائحهم كما طلب منهم أن يقبوا من عزيمة أنا ستاسيا . فالقيصرة كانت حاملاً وقد بكت بدموع غزيرة عندما بلغها نبأ خروج القيصر إلى القتال . وبينما كانت تستند على كفيها وهي ننتحب طلب منها أن تعنى بالفقراء والمساكين أثناء غيابه وأن تحتفظ بمفاتيح السجون وأن إرادتها ستكون إرادته إذا رأت من الحكمة أن تفتح أبوابها لمن تشاء مهما كان السبب الداعي إلى الاعتقال . ونحن نتبين هنا طبيعة أنا ستاسيا ، فلو أنها كانت سيدة مجتمع باردة العواطف قاسية القلب لما أعطاها إيثان الفرصة لكي تكون امرأة طيبة على هواه .

أما في الظاهر فإن انفصال القيصر عن القيصرة كان سبباً لإقامة حفل رسمي في كاتدرائية قازان . ويروى أن أنا ستاسيا ركعت على ركبتيها وصلت من أجل صحة زوجها ونصره ومجده وكان إيثان يقف إلى جانبها أثناء الصلاة ، فلما انتهت منها نهضت وقبلته . ومضى القيصر أمام سياج من النبلاء متجهاً نحو جواده الذي كان ينتظره أمام باب الكاتدرائية فامتطاه وذهب للالتحاق بجيشه .

لم يكن هناك مجال لإضاعة لحظة واحدة . فقد كانت نصيحة الشيخ علي بالانتظار بضعة أشهر أسوأ ما يمكن أن يقال لأن كل القوى التي كان بإمكان التتر أن يجهزوها كانت تتحرك الآن . فالقبيلة القادمة من الجنوب بلغت مدينة تولا وأقامت عليها الحصار . وكان العدو يقترب

من قازان . وخان تتر القرم على رأس الإنكشارية وعدد كبير من المدفعية
ويضعة مئات من الجمال كان يقوم على الأقل باستعراض للقوة كبير .
فلو أنه تقدم إلى الشمال الشرقي بدلاً من الشمال وهاجم الجيش المفكك
في سفيازهسك لكان بإمكان الخان أن يفشل مشروع القيصر الكبير .
أو لو أنه كان يعرف موقع إيثان على نهر الأوكا لكان بإمكانه أن يتجنب
الهزيمة . ولكن الحرس المتقدم من الجيش الروسي وقع على القبيلة
مدهامة وأوقع بها هزيمة كاملة على الرغم من أنه كان أقل عدداً بكثير
جداً من القوات التتارية لدرجة أن الخان وجب عليه أن يترك كل جماله
وكمية كبيرة من أسلحته مع عدد كبير من القتلى والجرحى . أما سكان
تولا المدنيون الذين كانوا محصنين أحسن تحصين فقد ارتقوا أهالي
استحكاماتهم وهم يصيحون : « إنه القيصر ، إنه القيصر أتى لإنقاذنا » .

فهل في هذا المكان حكم على جمل بالموت لأنه لم يشأ أن يركع أمام
إيثان ؟ . ولكن إيثان لم يكن إلا في العشرين من العمر ولم يكن قد رأى
في حياته مثل هذه الكمية المجتمعة من الجمال . وكانت الغنيمة التي
تركها التتر ضخمة للغاية حتى لقد أبدى القيصر رغبة طفولية في
إحصائها وإرسالها إلى موسكو لكي تراها أنا ستاسيا وهناك عرضت
أمام الجمهور الذي كان يبصق على أسرى التتر المكبلين بالإغلال وبنقف
مذهولاً أمام الجمال .

حدثت هذه المعركة في أواخر حزيران يونيه . وفي الثالث من تموز
يوليه صدرت الأوامر إلى كل الجيش بالسير إلى قازان . وكانوا يحتفظون
في كولومنا بصورة السيدة العذراء التي كان ديمتري دونسكوي
قد جلبها إلى المعركة عندما الحق بالسلطان مامي هزيمته
الكبرى ، وقد رجا إيثان هذه الصورة أن تمنحه نصراً شبيهاً بذلك على
التتر ، فلم يكن لا هو ولا جيشه يوفرون فرصة لينطلبوا شفاعاة القديسين
من أجل النصر . واعتبرت كل التبشير الحسنة مثل خبر توقف وباء
الأسقربوط عن الانتشار في سفيازهسك وعودة روح النظام إلى الجيش
اعتبرت كل هذه التبشير رداً على ما كانوا يقدمونه للقديسين من ادعية

وصلوات ، ولم يعد بإمكان أحد أن يشك بأن الله كان في صف إيفان ،
وقدم إليه رسل من العاصمة موسكو ليحملوا إليه نبأ أن موسكو كلها كانت
تصلي من أجل نجاحه وأن ثقة القيصر به لا يعتورها نقص ولا فتور .
وقد نصحه المتروبوليت بهذه العبارة التي ألحقها به : « ولكن كن طاهراً
وعفيف الفكر ، كن متواضعاً في النصر وشجاعاً في تحمل الآلام » .

وكان يجب للوصول الى قازان تتبع الأوكا والغولغا والمرور
بكولومنا وريازان وكاسيموف وموروم ونيجنني نوفغورود . أما القيصر
فقد مضى على جواده حتى فلاديمير ومنها الى موروم ، وأما الشيخ علي
هذا الفالستاف(*) Falstaff ذو الوجه النحاسي فإنه اتخذ طريق النهر
برفقة الأمير بولغاكوف ومعهم حملة قربينات وفصيل من مهندسي
الجسور .

وفي الليلة الثالثة نصبت خيمة القيصر في غابة ساكان ، وفي الرابعة
في فسحة على ضفاف الإبرزها ، وفي الخامسة على الأتشا وفي السادسة
على الكيفسا وفي السابعة على ضفة بحيرة إيكشا وفي الثامنة في جوار
كازيموف . وحضر أمراء كازيموف وتيمنيكوف بأنفسهم مع جيوشهم
وأنصارهم ليلتحقوا بكتلة الجيش الرئيسية . وانقضى شهر تموز يوليو
في وسط الغابات ومجاري المياه التي تمت مصادفتها في الطريق الى
موروم . أما الذين اتخذوا طريقهم في المراكب فقد سبقوا بكثير رجال
المدفعية والفرسان . وفي شهر آب أغسطس خرجت مفرزة كبيرة من
الأمراء والبويار من سفيازهسك وقدموا على الخيول للاقاة القيصر
كما قدم مبعوثون من الشيريميز وقبائل أخرى يعرضون عليه ولاءهم
وخضوعهم . وقد دخل قوزاق الدون في التاريخ الروسي بعدد كبير من

(*) فالستاف Falstaff هابط انكليزي شهير كان رفيقاً لهنري الخامس في
مفاسده ، وقد جعل منه شكسبير نموذجاً للفساد والانحلال والوقاحة .

الفرسان . وعلى طول الطريق حتى القولغا كانت تتجلى للعيان كل أبهة روسيا القرن السادس عشر التي تكتنفها الأسرار . وفي الثالث عشر من آب أغسطس كان الموكب كله على مرأى من سفيازهسك التي كان قد أنشأها القيصر .

وزار إيثان هذه المدينة المحدثه بكنائسها ودار صناعتها وحصونها وبيوتها فوجدها حسنة البناء وأضاف أنه لا يوجد في رأيه في كل روسيا مدينة بمثل جمالها اذا ألقيت عليها نظرة من أعلى أسوارها . وكان ذلك تقديرا عجيبا وحديثا لهذه المدينة . وبينما كان يقيم فيها بدأت البلطات ترن بالأخشاب لأنهم أرادوا أن يبنوا له فيها بيتا أثناء وجوده . ولكن إيثان غادرها مسرعا نحو خيمته المنصوبة في احد المروج خارج المدينة حيث أرسل من هناك بمساعدة من الشيخ علي رسالة مكتوبة باللغة التتارية الى إيديجر حاكم قازان يدعو فيها سكان المدينة للاستسلام ضامنا لهم عفو روسيا . ولكن بما أن الموضوع كان في الحقيقية نزاعا بين الاهلال والصليب فقد كان من غير المحتمل أن يقبل سكان قازان منه هذا العرض . ومع ذلك فان الخيار أمامهم كان بين أمرين هما الاستسلام أو الموت لأن قازان لم يكن أمامها أية فرصة للنجاح .

وأصدر القيصر أوامره البويار بأن يقوموا باحصاء الجنود الموجودين تحت قياداتهم فوجدوا أنهم يناهزون مائة وخمسين ألفا . ومن المحتمل أن بعض البويار بالغوا قليلا في عدد من كانوا يقودونهم من الجنود لكي ينالوا رضا إيثان أو يظهروا أكثر أهمية مما كانوا عليه في الواقع ، ولكن مما لا شك فيه أن إيثان كان يمتلك من اجل فتح قازان جيشا بالغ القوة . وبسبب من طمع في الفوائد الكبيرة التي يمكن أن تجنى من بيع الأغذية والبضائع لهذه الكمية الكبيرة من الرجال وصل التجار والباعة المتجولون وأصحاب الدكاكين الصغيرة في المراكب يتبع بعضهم بعضا الى سفيازهسك من نييجني غورود وموسكو وياروسلاف وكانت حمولاتهم تشكل منظرا جميلا تحت أشعة شمس شهر آب أغسطس اللامعة .

وفي العشرين من آب أغسطس وصل جواب إيديجر بالرفض .
وكان هذا الرد مهينا وساخرا ، فقد نعت الشيخ علي بالخائن . وأبلغ
إيثان أن قازان تبصق عليه وعلى روسيا وتقاخر باسلامها وترفض
المسيحية وان « كل شيء جاهز هنا لكم ونحن تدعوكم الى وليمتنا » .
ومع ذلك فإن واحدا من المسلمين المتنفذين فر تحت جناح الظلام من المدينة
ومعه نساؤه وخدمه وأعلن خضوعه للروس . وقد ذكر أن عدد المدافعين
عن المدينة كان يبلغ حوالي ثلاثين ألفا مع وفرة من الأغذية والدخائر ،
وكان استقبال إيثان وديا لهؤلاء الهاربين . وفي صباح اليوم التالي اصدر
إيثان امره بالتقدم . وكان يقف منتصبا في معسكره أمام راية رسمت
عليها صورة المسيح ، وبينما كان يركز عليها ناظريه توجه إليها قائلا
بعصوت عال : « أبي ، باسمك نحن نتقدم » .

وتم إنزال المدافع والبارود من ظهور المراكب ، وجمعت الأخشاب
لتشييد بروج الحصار حيث كانت مجموعات يتألف كل منها من عشرة
مشاة تنقل المواد الضرورية لكل برج . ورفعت الايقونات والصلبان
والقناديل عاليا كما رفع الصليب الكبير الذي كانوا ينقلونه معهم في كل
معركة منذ عدة عصور . وكان يحرس الرموز الكنسية هذه كهنة ذوو
شعور طويلة وثياب طقسية بينما كانت رائحة البخور تتصاعد في نسيم
الصباح . وعندما اخترقت الشمس الضباب وانارت أعالي المآذن فوق
أسوار قازان القائمة بدأت الطبول تفرع ومثات الأبواق يرتفع منها
الضجيج .

ولم يكن الروس يخفون تقدمهم نحو التتر . وقد قام الجيش
الروسي كله بوقف جديدة يتلو صلواته قبل اندفاعه في الهجوم . وكان
لدى التتر كل الوقت اللازم للاستعداد قبل وصول العدو .

كانت قازان مثل موسكو تتألف من مدينة ومن حصن واسع بما
فيه الكفاية ليؤوي كل الشعب في حالة الخطر . وعندما دخل الروس
إلى المدينة في ذلك الصباح وجدوها خالية على عروشها يخيم عليها

الصمت . وكان هذا الصمت بالفا حتى ظنوا أن سكانها قد ماتوا أو لاذوا
بالفرار . وكانت الكتلة الرئيسية من الجيش الروسي قد باشرت أعمال
الحصار بينما كانت سرايا من السترييلتسي حملة القربينات تندفع في
الداخل للاستطلاع . ومرت فترة انتظار ربما كانت أكثر إقلاقاً داخل
القلعة مما كانت في الخارج . وكان نصف مقاتلي التتر مستعدين لإطاعة
الإشارة التي تأمرهم بالخروج وهم مؤلفون من خمسة عشر ألفاً من
الرجال ذوي العضلات المقتولة التي وترها الخوف والتصميم على الموت ،
أصابهم مشدودة ويقفون وراء أبواب الحصن الحديدية السمكية ،
وفجأة انفتحت هذه الأبواب وكأنها تنين مخيف واندفعت جماهير التتر
تحمل في أيديها سيوفها المعقوفة وتطلق صرخاتها المربعة لا يشكل فيها
المشاة والفرسان الا كتلة متراسة واحدة . أما حملة القربينات من
الروس فقد نالهم الدهر والهول وطاش صوابهم من مفاجأة الهجوم ومن
صراخ العدو وما هو على وجوه رجاله من تكشير وتصميم على القتال ،
فلاذوا بالفرار حالاً وما لبثت الشوارع أن أصبحت بدمائهم جداولاً
أحمر دون أن يقاوموا حتى غدوا خارج المدينة ، وعندما أصبحوا هناك
كادوا ينشرون الدهر في صفوف الجيش لولا شجاعة الشباب من الأمراء
والبويار الذين كانوا صفوف ضباط وملازمين في ذلك العصر . فقد أعاد
هؤلاء النبلاء لم الشمل في صفوف السترييلتسي Strieltsi الذين ضربهم
الرعب وجرت معركة مواجهة مخططة حسب العادات القديمة تحت
أسوار قازان . وارتدت آلاف النبلاء التتارية من فوق الأسوار على
كتل الروس المترصة . ولكن حمية المسلمين ما لبثت أن نفذت شيئاً
فشيئاً وعاد المحاصرون إلى حصنهم وتبعهم الروس وألقوا القبض على
عدد من الأسرى . وكان القوم في كلا المعسكرين يتبادلون التهاني بمفاخر
هذا اليوم .

واعتبر هذا الالتحام كافياً بالنسبة لليوم الأول من القتال وانصرف
الروس إلى إتمام الحصار الكامل على المدينة . وكان الليل هادئاً . أما في اليوم
التالي فقد انفجرت عاصفة عنيفة وبدا كأن الله لم يكن إلى جانب الروس .

ولم تكن عاصفة عادية بل كانت أشبه بإعصار ذي دوامات قلعت الخيام وقلبت الى الأرض الكنائس التي بنيت حديثا في الريف ورفعت أمواجها عالية فوق النهر واكتسحت المراكب والأساطيل النهرية وأغرقتها مدمرة ومفرقة كل شيء . فضاعت كل المواد الغذائية وكل الألبسة السمكية الصالحة للخريف وكمية كبيرة من الذخيرة ووجد أن جهود أشهر طويلة صارت الى العدم خلال بضع الساعات التي استغرقتها العاصفة . ومن حسن الحظ أن التتر كانوا ضعيفي الخيال فلم يدركوا ما حل بمعسكر العدو عندما حالت بينهم وبينه سحابة كثيفة من الرمل والغبار غطت عن أنظارهم جيش المحاصرين ، وكان بإمكان سكان قازان في لحظة من اللحظات أن ينتهوا بسرعة من جيش إيثان نفسه ، ولكن هذه المعركة الثانية كانت من « صنع الله » ولم يكن لدى التتر من حضور البديهة ما يمكنهم من الافادة منها .

عندما رأى إيثان مشهد هذا الخراب جمع التجار والباعة المتجولين واتخذ معهم التدابير اللازمة لاعادة تموين الجيش بأقصى همة ونشاط وتجهيزه بالكثير من الثياب الدافئة . وكان قد رأى أن قازان كانت أشد تحصينا مما كان يظن فقرر أن يحاصرها بكامل جيشه حتى ولو كلفه ذلك قضاء الشتاء كله في الحصار . وكانت تلك واحدة من المناسبات التي تبدت فيها ارادة إيثان الرهيب وإصراره الحازم .

كان ينبغي له وهو أقوى من المحاصرين بخمسة مقابل واحد ان يستولي على قازان بهجوم سريع . فقد كانت تحصيناتها مصنوعة من التراب والخشب ، وعلى الرغم من أن هذه المواد كانت تبدي مقاومة أكبر من التحصينات الحجرية في وجه قنابل المدفعية فقد كان من السهل فتح ثغرة فيها للمرور . ولكن مزاج الروس في القتال كان يشبه مزاج زمرة من اللدباب تنتظر وتنهك وتزمرجر وتنسحب وتعود دائما بأعداد أكبر .

كان جيش القيصر الضخم في حركة دائمة . وكان المدافعون في المدينة يلاحظون غالبا إيثان الذي لا يناله كلال ولا ملال ولكنه يبقى

دائماً خارج نطاق سهامهم . ومع ذلك فان رامي القوس كان اكثر وثوقا من رميته البعيدة المدى من حامل القربينة ، وفي معارك قازان كان استعمال القوس والسهام اوسع مدى ، وكان المحاصرون يستمرون في سكب الماء الغالي على الأعداء الذين يحاولون ارتقاء الاسوار بينما كان الروس يحاولون اجتذاب التتر الى الخارج بارسالهم مفارز صغيرة في اوضاع سيئة ما تلبث ان تنسحب وهي تقاتل عبر الغابات . وعندما كانوا يحصلون على اسرى كانوا يربطونهم الى اعمدة امام الاسوار ويجبرونهم على الصراخ امام المحاصرين بأن الاستسلام اجدى وافضل ، وكان التتر يجيبون على ذلك برمي هؤلاء المساكين بسهامهم لانه اكرم لهم ان يموتوا بنبال المسلمين من ان يموتوا ببطء على يد المسيحيين .

ولم يكن الروس يتكهنون ابدا عن بذل الوعود التتر بالحرية والحياة إذا سلموا مدينتهم . وعلى الرغم من ان ايفان كان رهيبا في ظروف أخرى فانه لم يكن يريد ان يتحمل خسائر لا فائدة منها ، فكان يضع تحت الاسوار رجالا يرددون دائما : « استسلموا ! استسلموا » بهدف ان يكون من نتائج هذه الاستراتيجية حقن الدم الروسي . ولم يكن التتر يثقون بهذه الوعود ويعرفون انها لا تساوي شيئا وانهم إذا استسلموا او هزموا فان رقابهم ستمر على حدة السيوف . وكانوا خلال الشهر الاول من الحصار يأملون بأن الجيش الروسي سيتفرق مع الوقت بعد فشله في انتصار سريع .

ولكن الروس مع بداية ايلول سبتمبر حفروا لهم انفاقا تحت الارض وتتبعوا فيها مصدر الماء الرئيسي الذي يغذي المدينة مستهدين في ذلك بحركة الشوارع التي تدور فوق رؤوسهم . وكان التتر يملكون كمية وافرة من الماء . فوضع ايفان كمية من بارود المدافع بالقرب من النبع وفي صبيحة احد الايام بينما كان معظم الناس في المدينة ينزحون مياههم حدث الانفجار وراه ايفان وهو يقف فوق تلة ترابية كان قد أنشأها لتسمح له بالمراقبة . ونجحت العملية ليس فقط في احداث تفجير كان سائغا على اسماعه وانما في انهيار جزء هام من سور القلعة وما لبثت

فرق من المهاجمين أن جهزت فوراً وأرسلت من خلال الصدع ، ولكن التتر على الرغم مما انتابهم من دهشة مما حدث تمكنوا من صد هذا الهجوم .

وفي اليوم التالي تلقى الأمير غورباتي شويسكي أمراً بتدبير نزول فوق جزء محمي من المدينة حيث كانت توجد بيوت محاطة ببساتين وحدائق . وكان الهجوم موفقاً إذ كان الالتحام حاداً وقصيراً انتصر فيه الروس واخترق جيش الأمير غورباتي شويسكي ما اعتقده نوعاً من جنات النعيم حيث كان الخبز وعسل الموسم يتوافرون بكثرة وحيث كانت القطعان ترعى تحت الأشجار المحملة بالثمار ، فأحرقوا المنازل وقتلوا كل السكان من الذكور وعادوا إلى معسكرهم وهم يفتنون وقد حملوا عرباتهم بالموثون .

ولا شك أن التتر كان لديهم في الأيام العشرة الأولى من أيلول سببهم الكثير من المشاكل التي تحتاج إلى التفكير والتدبير ولكنهم لم يكونوا أبداً متخاذلين . فكانوا يصعدون فوق الأسوار ويظهرون علامات غضبهم للروس فيعتقد هؤلاء أن ذلك إنما هو نوع من السحر ، كما كانوا يقومون تجاههم بإشارات فاحشة فكانت نتيجة ذلك السلوك حسب كل الدلائل في نظر الروس أن أخذت السماء تمطر فعرقلت نشاطهم عرقلة كبيرة مما أجبر الكنيسة على العمل بسرعة لدفع الأذى فجهزت ماء مباركاً رشقته فوق المعسكر حتى عاد الطقس الجميل .

عندئذ دفع الروس بأبراج حصارهم الصغيرة قليلاً نحو الأسوار وما لبثت أن تقدم تحت جناح الظلام بناء عظيم مبني من الخشب ويسير على عجلات حتى قارب الأسوار . وكان ارتفاع هذه الآلة اثني عشر متراً وقد وضع فيها عشرة من المدافع الضخمة وخمسون أخرى صغيرة مع جيش من المدافعين والرماة . وكان الستريليتسي (الرماة) يسيطرون من أعلى آلة الحرب هذه على شوارع المدينة ويستطيعون رمي من يحلو لهم من الناس ولكن مجال الرماية كان محدوداً على كل حال . على

أن هذا البناء الخشبي الضخم أجبر عددا كبيرا من المدافعين على أن يبحثوا لهم عن ملجأ في الكهوف والثقوب المحفورة في الأرض وأصبح وضعهم حرجاً ، ولكن القيصر قدم لهم عفوه مرة أخرى إذا وافقوا على إخلاء المدينة والذهب حيث يشاؤون .

وفي هذه الاثناء كان وضع الالغام مستمرا في مناطق مختلفة تحت المدينة ، وفي الثلاثين من ايلول من سبتمبر حدث انفجار رهيب تبعه انفجار آخر في الثاني من تشرين الأول اكتوبر . أما التتر الذين طردوا من ملاجئهم بفعل الضرر والصدمة فقد اندفعوا صفوفاً متراسة نحو الروس على أمل القيام بالتحام أخير ، وحدثت بين الطرفين معركة رهيبة دامية في آخر يوم من ايلول سبتمبر . واعتقد البويار أن الساعة قد ازفت لمعركة عامة والحوا على إيثان بأن ينتهز الفرصة للانهاء من قازان في ذلك اليوم بالذات ، ولكن إيثان لم يكن متعجلاً فقد كان ينبغي على الجيش كله أولاً أن يقوم بالاعتراف والمناولة ليكون مهياً للموت والخلود ، أما العقول الأقل ورعاً بين الروس فلم تكن مكثفية بالبقاء سلبية في هذا الموقف الديني بل أخذت تستفيد من وقت الصلوات هذا لاعداد نفسها لمواجهة الالتحام العام القادم . وهكذا كرست كميات كبيرة من المواد لردم الالحفور ورأى التتر في معسكر العدو نشاطاً غير معتاد ففهموا أنه يعد العدة من أجل القيام بهجوم لاقتحام الحصن فأعدوا لذلك أهبتهم وتهيؤوا لموقعة الغداة .

وفي صبيحة اليوم التالي بينما كان القيصر في الخدمة الدينية أصابته رجفة لدى سماعه ضجة انفجار رهيب تحت أسوار قازان . لقد انفجر آخر لغم وكان ذلك الإشارة لبدء الهجوم . أما القيصر فقد نظف القبار الذي ملأ عينيه وتابع واجباته الدينية . ونحن ندهش اليوم من رؤية شاب ذي مزاج حاد يكتفي بالسجود في الكنيسة بينما

جيشه يحقق نصراً مؤزراً وما كاد ينتهي من تلقي البركات حتى كان
النسر ذو الرأسين يخفق فوق أعلى برج قازان .

كان الجيش قد احتل الحصن ، ومضى القيصر محروسا نحو مسرح
المجزرة حيث باع كل تترى حياته لقاء حياتين من الروس . وكانت المعركة
قد انتهت بنصر كان أشد تنفيذات الأعداء رعباً . وفتح الروس طريقهم من
شارع إلى شارع وهم يقاتلون بينما الجثث يتكدس بعضها فوق بعض
في وسط الطرقات . وأمام كل باب وفي كل ممر من ممرات البيوت كان
يدور قتال يائس ، و صليل السيوف والزمجرة والصراخ والزئير كانت
وراء هذه الضجة المخيفة التي انتشرت في كل مكان . ولم يكن القيصر
والأمراء على علم كامل بما يفعله جنودهم هنا وهناك ولكنهم سمحوا
لأنفسهم بالافتراض بأن الجيش كان يتقدم في كل مكان ولم يكن هذا
الافتراض في بعض الأحيان مبنياً على أساس . وعندما وصل الموسكوفيون
إلى السوق حيث كانت توجد كميات كبيرة من الأشياء من الفضة
والأحجار الثمينة والفراء والحريز كف الجنود عن إحراق بيوت التتر
وتوقفوا عن المذبحة ولم يعودوا يهتمون إلا بالنهب والسلب ، وقد أعطى
هذا التوقف للعدو فرصة لم الصف حتى بدا للحظة أن مصير المعركة
في ذلك اليوم أسرا مشكوكا فيه .

ولكن الروس كانوا كثيرون العدد جدا ، أما الناهبون فقد أصيبوا
بذعر شديد ولاذوا بالفرار يتبعهم العدو ، وأما الجسم الرئيسي من
الجيش فقد بقي بعيداً عن الانهيار . وانتهت مذبحة التتر ، وأصبحت
الزوجات أرامل والأطفال أيتاما لأنهم لم يكونوا يوفرون سوى النساء
والأطفال الذين بيع معظمهم في أسواق العبيد . وفيما بعد الظهر من
اليوم الثاني من تشرين الأول أكتوبر كان النصر كاملاً وشكر إيفان
جنوده وطلب أن يحفظوا عليهم ما كسبه كل منهم إلا الجواهر الملكية
لأمراء قازان التي ينبغي ردها إليه وإلى بيته .

وفي صبيحة اليوم التالي تم رفع الموتى الذين كانوا يملأون شوارع
المدينة وأقيم موكب ديني غنى فيه الجميع نشيد ال «Te Deum» (*)
ورفع القيصر الصليب الذي « يعطي الحياة » في المكان الذي كانت ترتفع
فيه راية التتر الرئيسية ، وهكذا انضمت قازان الى الأرض الروسية .



(*) الأصل الكامل هو : «Te Deum Laudamus» أي « إلهنا نحن
نحمدك » وهو نشيد شهير ينشد في المناسبات الاحتفالية عند المسيحيين .
الترجم

الفصل الحادي عشر

مولد ولي العهد

في خلال هذه الحرب لم يطلق إيثان طلقة واحدة من بندقيته ولا استل سيفاً ولا وقف على رأس جيوشه إقيادتها في الهجمات ، ولا يبدو أن شخصه الملكي تعرض قط لأي نوع من الاخطار . وكان يلتف حوله حرس وافر العدد من الرجال المسلحين حتى أن نصف الجيش كان أحياناً يتفرغ فقط لحمايته . فلم تكن فيه إذن صورة البطل التي يقدمونه لنا من خلالها ولا ارتدى أية عدة للحرب ولا نزل إلى الخنادق ليرى كيف يتصرف الجنود ، بل وأكثر من ذلك أنه لم يفلت مرة من مراقبة جنوده للقيام بمغامرة ما أو حتى للدراسة أحوال العدو ، بل اقتصرت مهمة وجوده بين جنوده على أنه كان مصدراً للإيحاء والإلهام . ولم يكن من عادة غراندوقات موسكو أن يباشروا القتال بأنفسهم ، فبدأ إيثان الشاب ذو اللباس الفاخر الذي لم يكن يكف عن التماس شفاعته الله والقديسين لينصروه ، بدأ كنجمة لامعة بهية البريق .

« هنيئاً لك أيها القيصر البالغ التقى ! فبفضل مكانتك وحسن حفظك أحرزنا النصر وغدت قازان لنا . إن الأمير إيديجر بين أيدينا والناس إما قتلوا أو أسرى ، وقد جمعنا من الكنوز ما لا يعد ولا يحصى فيماذا تأمرنا الآن ؟ » .

هكذا قال الأمير ميشيل فوروتنسكي القائد العام للجيش .

« إننا نفوض العزة والمجد للعلي الأعلى » ، بذلك أجاب إيثان .

واقْتيد الأمير إيديجر إلى أمام القيصر حيث ركع وأقر بذنبه واعتذر
جهاراً فسامحه القيصر على ما بدر منه من مقاومة وتعانق الشيخ علي
وإيديجر وبدأ أن ثمة تترين على الأقل كانا سعيدين في هذا اليوم ، ذلك
الذي نجا من المجزرة وذلك الذي شارك في النصر ، وقرر إيديجر أن
يصبح مسيحياً منذ ذلك الوقت .

ويقول مدون أخبار هذه الفترة إن التبشير الكنسي في ذلك العصر إنما
يفسر بواقعة أن إشارة البدء بالهجوم والإنفجار الكبير قد حدثا في اللحظة
التي كان فيها الكاهن في خدمته الدينية يقرأ هذه الكلمات : « لن يوجد
إلا قطيع واحد . . . فكل العالم سيفدو مسيحياً » فكان ذلك أملاً
وإيماناً . وأن يصبح إيديجر مسيحياً كان معناه : « أن على كل مسلم
أن يترك دينه لأنه لن ينفعه في القتال ! » .

أما إيثان الذي كان سعيداً بما تم فقد دعا جنوده « بالمكدونيين
الجديرين بأن يكونوا أحفاداً لأولئك الرجال الذين قاتلوا تحت إمرة
الفراندوق ديمتري عندما انتصر على ملهي الشهر » ، ذلك لأنهم أحرزوا
نصراً سيكتب لهم في السماء .

ثم أقيمت الولائم والاحتفالات في المعسكر وارتفعت العقائر بالغناء
وانصرف الجنود الذين غزوا النساء في خدورهن يتسلون مع سباياهم
التريات اللواتي غداً بعضهن بدون شك تحت ضغط الظروف وبعد أن
قتل أزواجهن واقتداء بما فعله إيديجر غدون مسيحيات وأصبحن مع
أطفالهن روساً وخلفن بعد ذلك أبناء للروس وأدخلن في العروق الروسية
دماً أصبح مميزاً لهذا الجنس .

أما قازان فلم تعد شيئاً بعد أن خلت من السكان . وأمر إيثان ببناء
كاتدرائية عين مكانها في المدينة كما أمر بإزالة عدد من المساجد وأملى
إرادته بأن يرى مكانها كنائس جديدة . ولكن لم يكن ثمة عدد كاف من
المسيحيين لإقامة الصلاة في هذه المعابد إلا إذا طلب من الجيش أن يستقر

في هذا المكان الذي استولى عليه . وقد عين القيصر على المدينة حاكماً يساعده موظف إداري ، ومنحت امتيازات لتجار موسكو ونيجني نوفغورود ومع ذلك لم يكن ذلك كافياً لإعادة الحياة الى قازان . ففي خلال قرون عديدة كانت هذه المدينة قد أصبحت أكبر سوق في الشرق . وعندما كانت مدينة بلغارية في الأزمان الفابرة كانت قازان تتاجر مع الصين وفارس وبخارى وسمرقند وكانت كل آسيا تعرفها حتى أصبحت تتمتع بالرخاء والثراء . ولكن الروس التابعين للقيصر لم يكونوا قادرين على متابعة هذه التجارة الواسعة مع الخارج فما لبثوا أن تنهبوا الى أن من الواجب منح عفو كامل لكل الهاربين التتر الذين التجؤوا بعد تلك الحروب الوحشية الى الغابات ولكل مسلمي البلاد الذين نالهم الرعب والإحباط . وهكذا ، وعلى الرغم من انتصار الكنيسة وجدت أعداد كبيرة من التتر المستعدين للإقامة في بيوت ودكاكين أولئك الذين قتلوا ونهبت أموالهم من قبل . وكل ما تطلبه إيفان من هؤلاء هو أن يقسموا يمين الولاء وأن يدفعوا من كل فرد منهم الى جابي الضرائب مبلغاً مساوياً لذلك الذي كانوا يدفعونه في الماضي لاميرهم . وهكذا لم تكف قازان قط عن أن تكون حصن التتر الحصين ، وحتى تحت حكم روسيا كان لا يزال فيها وحتى يومنا هذا عدد كبير من سكانها التتر .

ثم تهيأ إيفان للعودة الى موسكو . وكان قد أرسل السعاة ينقلون أخبار النصر مع كلمة للمتروبوليت وأخرى لآناستاسيا وثلاثة لأخيه يوري يخبرهم فيها عن عودته الوشيكة مع الجيش . وترك في قازان حامية مؤلفة من خمسين ألفاً من الجنود من أصلهم ألف وخمسمائة من ذوي المحتد النبيل وثلاثة آلاف وخمسمائة من السترييلتسي (حملة البنادق أو القربينات) والقوزاق وعين غورباتي شويسكي حاكماً وسيربراني نائباً للحاكم . وقد تطلبت هذه التدابير ما بين عشرة واثني عشر يوماً اتخذ بعدها إيفان وجيشه طريق الرجوع . وفي أثناء الطريق تلقى نبأ هاماً أخبره به رسول موفد من موسكو أن القيصرة وضعت ولداً .

وفي اليومين الرابع عشر والخامس عشر من تشرين الأول أكتوبر
صعد القولغا على ظهر مركب حتى بلغ نيجني نوفغورود حيث كان في
انتظاره جمهور غفير من الناس استقبلوه وهم راكعون . وكانت هتافات
الجمهير وتهليلها عالية لدرجة أنها خنقت اصوات رجال الدين ،
فنوفغورود كانت في اتم سعادتها لأن عدوها وخصمها قد دمر تدميراً
كاملاً واصبح سوقها الكبير في نجوة من كل منافسة تترية وستزدهر
تجارتها ازدهاراً كبيراً بفضل تدمير اسواق قازان .

وبعد أن تحدث إيثان الى الشعب بما ينبغي اتخذه إيثان طريقه الى
عاصمته على ظهر جواده . وعندما وصل الى ثلث الطريق ووجد نفسه
قريباً من فلاديمير قابل قاسيلي تراخانيوت موفداً من قبل اناستاسيا .
وعندما علم أنه أصبح له ولد ذكر كان فرحه بلا حدود حتى أنه قفز من
فوق جواده وقبل تراخانيوت ثم صلى وحمد الله واخذ يرقص كمجنون .
وبدون أن يفكر قدم جواده ورداءه هدية للرسول تعبيراً عن شكره لأنه
جلب له هذا الخبر السعيد . فلو أنه رزق بنت لما كان ذلك يعني له
شيئاً ، أما أن يكون له صبي فإن معناه أنه يسمع القدر يجلجل باسمه
في نكير .

ومن المثير للفضول أن هذا النبأ جعله يبطئ المسير ، فهو لم يستعجل
مشية حصانه ولا عدا به ليلبغ القصر بل توقف في فلاديمير ليصلي
وأرسل الى اناستاسيا رسائل رقيقة يعبر فيها عن شكره ووداده .
كذلك توقف في سوزدال ليصلي فيها أيضاً . وأخيراً عندما وصل بعد
بضع ساعات الى موسكو توقف في دير سيرجي ترويتسكي حيث قام
بالعبادة أمام قبر القديس سيرجي وهناك قطع الخبز مع الرهبان وتلقى
زيارة أخيه وعدد من النبلاء الذين قدموا من الكريملين وكان ذلك في
الثامن والعشرين من تشرين الأول أكتوبر ١٥٥٢ ، وفي اليوم التالي دخل
موسكو على صهوة جواده .

وتأكدت أهمية فتح قازان البالغة بالاستقبال الشعبي الباهر الذي نظم لإيخان في شوارع موسكو كلما تقدمت به الخطا حتى أنه كان من المستحيل عليه أن يتحرك أحيانا لكثرة ازدحام الجماهير المتكتلة كي تقبل يديه أو رجليه . فالروس كانوا يقبلون أول قياصرتهم لأنهم كانوا يرون فيه ضمنا لمستقبل مجيد لروسيا ولأولاد أولادهم ، والشعب يستطيع في بعض الأحيان أن يحسن تقدير معنى حادث تاريخي أكثر من الحكومة أو السلطان .

نزل إيخان عند باب ستريتينكا لينحني أمام إيقونة أم الله التابعة لفلاديمير بحضور المتروبوليت وحضور أسقف كل كهنة موسكو فاعترف بذلك بقدرة الصلاة على غفران خطايا صباه ، تلك القدرة التي سمحت له بأن يمشي الى قازان ويقضي على من فيها من الوثنيين . ثم انتهى في صلاته الى هذا الدعاء :

« والآن إنني أتضرع إليك . اكملني شفاعتك المقبولة أمام عرش الله كي أتمكن من إقامة القانون والحق وحسن الأخلاق في الدولة ولكي يصبح الوطن المتمتع بالسلام قادرا على التنعم بالفضيلة التي تزدهر المسيحية في ظلها ، ولكي يتمكن رعايا روسيا الجدد من الكفار من التعرف على إله الحقيقي فيحمدوا ويكرموا الثالوث المقدس عبر العصور ، آمين » .

بعد ذلك أعلن ماكاري العجوز في لهجة مؤثرة قبوله للنصر الذي تحقق باسم الكنيسة وباسم الدين الحقيقي . ثم صرخ وكأنه يلفظ حكم الله نفسه : « أيها العبد المبارك ! لقد كنت مخلصا في هذا الأمر الصغير وإنني سأكلفك بمهمات كثيرة في المستقبل » . ثم انحنى المتروبوليت بعد ذلك هو وكهنته أمام القيصر حتى لامست جباههم التراب .

أما القيصر فقد نزع عنه درعه ذا الزرد ورمى سيفه ليعود الى لبس الأرجوان . وكان صليب كبير يزين صدره بينما كان يلمع فوق جبهته

تاج مونوماخ . وأصطف المتروبوليت ورجال الدين وحملة الصليبان والإيقونات في موكب واتجهوا بخطا بطيئة نحو الكرملين وهم ينشدون .

وأخيراً دخل إيثان إلى قصره واقترب من سرير اناستاسيا التي ضمت إليها بطلها وهي تبكي من الفرح ، فنزع إيثان تاج مونوماخ وأخذ بدوره يعانق القيصرة ويقبل وريثه الطفل ديميتري برقة وحنان ، وكان إيثان في ذلك الوقت قد أصبح في الضحى من بداية عهده .



الفصل الثاني عشر

تعميد ثلاثي

انقضت نهاية عام ١٥٥٢ وسط مجموعة من الأعياد . فبعد تلك الحملة المتعبة أخذ القيصر للراحة هو وبلاطه وحاشيته . ففي الثامن من تشرين الثاني نوفمبر أقيم في القصر الرحب عشاء ساهر دمي اليه كل كبار الوجهاء ومن يتمتعون بنفوذ كبير كالمترولوجيت والامير يوري واناستاسيا التي استعادت عافيتها والاساقفة والامراء والقويقود (كبار الموظفين) وعدد من رجال الطبقة الراقية . وفي هذه المناسبة تم توزيع العطاءات والهبات مقابل الخدمات التي قدمت في الحرب . وكان بين العطاءات فراء السمور وانسجة من البروكار واكواب من الذهب والبسة وخيول واكياس مليئة بالقطع الذهبية وسجاجيد واسلحة ، وكانت هذه الهدايا تمثل مبالغ هائلة من النقود . وقد وجد من نال الى جانب هذه العطاءات اراضي وهم كثيرون . فالقيصر كان يبدخ عن سخاء ، والقيصرة كانت تصب الخمر لكبار النبلاء الذين كان لهم الامتياز في ان يقبلوها قبله احتفالية .

ودامت الولايم والافراح ثلاثة ايام واصبحت بدون شك اكثر صخباً ومرحاً بعد رحيل رجال الدين . وإذا لم نتكلم عن الطعام والشراب اللذين تم ابتلاعهما بكل نهم وشراهة فإن هذه المآدب قلما ارتفعت الى مستوى التسلية الراقية المهدبة . فهم لم يكونوا يرقصون ولم يكن ثمة مهرجون ولا اقنعة ولا من يطلقون النكات الذكية ، فروسيا لم تكن تمتلك شيئاً من المسارح ولم يكونوا يقدمون حتى ولا المسرحيات

الدينية ، ولكن كان القيصر مغنون قدموا للفناء من أجله فتغنوا بمآثر جيشه في قازان في كلمات جديدة صاغوها على ما الفوه من الحان . وكان الموسيقيون يلعبون على آلة الغوسليار Gousliar وهي نوع من القيثارة لمرافقة الموشحات ، ذلك لأنه في الشهر الذي تلا الاستيلاء على قازان انتقلت القصة الى موشح Ballade يستفيض في رواية القصة وينشرها في جميع أنحاء روسيا .

وربما لم يكن الاستيلاء على قازان هو ما كانوا يتغنون به بل الانتصار على تيمورلنغ وجنكيز خان وآسيا ، فأيشان كان ينتقم للوك الأرض من ذلك الوحش الذي خرج من الشرق ، وكان الفرع يعم كل روسيا .

في هذه الحقبة من الحماسة الوطنية اقيم بناء كان روعة في فن الهندسة المعمارية ومثار دهشة للأجيال هو كاتدرائية فاسيلي بلاجهيني التي تنتصب الآن في الميدان الأحمر . في ذلك العصر وضع تصميمها وأمر القيصر ببنائها ذكرى لحماية الله له في قازان .

وعلى الرغم من أننا المحدثون الى أن رجال الدين قد انسحبوا من الوليمة قبل البويار والأمراء بقليل إلا أن ذلك لا يعني أن الأساقفة والمترولين العجوز ماكاري لم يمثلوا في هذه المناسبة . فقد كان القيصر وماكاري كلاهما من أوحيا بمخطط فاسيلي بلاجهيني ، ومن المحتمل أن خيالهم استمد المساعدة يومذاك من نشوة الخمرة التي شدت من أزره . فليس ثمة اسم لأي مهندس معماري ارتبط ببناء هذه الكنيسة الغريبة . وقد رووا بعد مائة عام أن القيصر فقا عينيه كي لا يتمكن من بناء أية كنيسة تنافسها ، ولكنها واحدة من تلك الحكايات التي يحكيونها حول اسم هذا القيصر الرهيب . والكنيسة لا تشبه أي واحد من أبنية القسطنطينية أو أبنية روسيا القديمة وإنما هي تعبر فقط عن عبقرية إيشان .

وقرر القيصر أن تكاليف بناء هذه الكاتدرائية ستدفعها مدينة
قازان غرامة عليها . فيمكننا إذن أن نفهم أن انتصار الأرثوذكسية على
الإسلام انعكس الى حد ما على مفهوم فن العمارة ، فالعصر كان عصر
فتح وعصر دخول عدد من المتري في الدين المسيحي ، وهذا ما يفسر لنا
مثل هذه المؤثرات .

ثم ما لبث الطفل ديميتري أن اقتيد الى دير سرجي ترويتسكي
وتم تعميده بوجود مخلفات القديس سرجي . وتبع هذا التعميد تعميدات
أخرى كان أكثرها إثارة للاهتمام تعميد أتامش ابن صوغونبيكا وتعميد
إيديجر حاكم قازان القديم . وقد أشرف نيكاندر مطران روستوف على
حفلة تعميد ديميتري الصغير ، أما المتروبوليت فقد أشرف بنفسه على
تعميد أتامش وأعطاه اسماً مسيحياً هو الكسندر . ولم يصلنا شيء عما
كان يفكر به الشيخ علي ولكن القيصر الذي تذكر أنه ترك يتيماً في صباه
تكفل بالصبي التتري الصغير وأمر أن يعيش في القصر وأن يبدؤوا العناية
بتربيته . وأما تعميد إيديجر فقد تم في ٢٦ شباط فبراير ١٥٥٣
واضطروا من أجل الحصول على ماء التعميد الى كسر الجليد فوق نهر
موسكفا . وكان المتروبوليت عرابه دون أن يلتزم بخطاياهم لأن إيديجر كان
في سن النضج . وقد شهد القيصر وبلاطه عملية ارتداد الأمير عن دينه
المحمدي . وكانت موسكو المغطاة تغطية كاملة بالثلج لا تزال غارقة في
قسوة الشتاء ، والذين حضروا حفلة العماد كانوا يرتدون كلهم ملابسهم
الاحتفالية باستثناء إيديجر وكثيرون منهم كانوا يتغطون بالفراء . أما
التتري ذو السحنة السمراء فكان يقف بينهم متدثراً فقط بثوب من
الكتان . وسئل إيديجر ما إذا كان يترك دينه تحت تأثير القوة أو العنف
الخارجي فأكد بجرأة أنه يفعل ذلك متبعاً رغبات قلبه : « إنني أحب
يسوعاً وأكره ما عداه » ، بذلك صرح بصوت أمكن لكل الناس أن
يسمعه . ثم غطسوه في الماء الجليدي وانتهى الاحتفال وأصبح يحمل
اسم سيميون منذ ذلك الوقت .

على اثر ذلك قدم القيصر للأمير سيميون بيتاً واسعاً في الكرملين كي يسكن فيه . وعلى الرغم من سقوط قازان فإن هذا الأمير احتفظ بشيء من ثروته ، كما أن القيصر تفضل عليه وأعطاه حاشية ومركزاً يكادان يضارعان ما يتمتع به أمير من العائلة المالكة . وفي السنة ذاتها ١٥٥٣ تزوج سيميون من ماريا كوتوسوفا وعاش سعيداً حتى مات أو طواه النسيان .

ولكن حقبة الأحداث المفرحة التي جرت في موسكو هذه رافقتها مصيبة رهيبة وقعت في الشمال الشرقي من روسيا حيث انتشر طاعون ذو قروح دمر تدميراً يكاد يكون كاملاً سكان بسكوف ونوفغورود فيليكى . وقد ابتدأ في بسكوف ونشر ذعراً دفع نوفغورود من أجل الدفاع عن نفسها لأن تصدر قراراً بمنع كل قادم من بسكوف أن يقترب من حدود ولاية نوفغورود . وإذا ما كشفوا في هذه المدينة شخصاً قادماً من بسكوف فإنه كان يلقي بالنار هو وكل مايتعلق به . ولكن ذلك لم يكن كافياً لحماية المدينة ، فالوباء مالم يثبت أن ظهر فيها بصورة غامضة كما لو أنه لم يصل إليها من أية جهة خارجية ، وفي ليلة واحدة قضى نحبه فيها الآلاف من الأشخاص . وبعد قليل أصبح عدد الموتى أكبر من إمكانية دفنهم على يد الأحياء ، أو أن الأحياء كانوا يخافون لمس هؤلاء الأموات من أجل دفنهم ، فانتشرت الجثث في الشوارع وانفجرات الغابية التي كانت تحيط بالمدن ، وبدأ أن الله أرسل غضباً ليس له سبب مفهوم بعد النعمة التي أسبغها العلي القدير على المؤمنين في قازان . ولكن الروس لم يكونوا يحاسبون الله الحكيم فغضب الإنسان أيضاً يمكن ألا يكون له سبب مفهوم إذا قمنا بمقارنة متواضعة بينه وبين غضب الإله .

من بين الذين هلكوا بالطاعون كان سيرايبون مطران نوفغورود فيليكى الذي كان طبيباً لدرجة اهتمامه بالمحتضرين دون أن يخشى على سلامته . وبما أن المطران كان قد تلقى من الله مهمة حراسة نوفغورود

فإن موته كان مساساً جدياً بالايمان وبمحبة الذات الإلهية ، واختير بدلاً من سيرابيون راهب بالغ التقى هو يمين من صحراء أندريا نوفسكي ، وصلى القيصر والمتروبوليت كثيراً لتوفيق الأخ يمين وحمله كمية كبيرة من الماء المبارك والمهيا خصيصاً لتطهير نوفغورود . ويقال إنه هلك أثناء تلك السنة نصف مليون من السكان في المدن وعلى أراضي بسكوف ونوفغورود .



الفصل الثالث عشر

مرض القيصر

لم تكن ولاية قازان قد هدأت هدوءاً كاملاً بعد . فالقبائل الهمجية وبخاصة تلك التي كانت من أصل مغولي وهم الشيرميز والمورديقين والشوقاس والقوتياك والباشكير هذه القبائل لم تقبل بتغيير الحاكم . ورفضت دفع الضريبة بالرغم من أنها حددت بنفس المبلغ الذي كان من المفترض أنها كانت تدفعه لأمراء قازان . ومن المحتمل أن الموظفين والبويار الذين تركوا كمعتمدين هناك كانوا أقل نزاهة من حكامهم السابقين فبالغوا بالمطالبات . ولم ينته السلب والنهب اللذان بدءا منذ لحظة الفتح بانسحاب الجيش وإنما استمرت الحامية الباقية تطلب الغنيمة ولم ينجح الأمير غورباتي شويسكي في مهمته في الحكم ولا كان الأمير بطرس شويسكي حاكم سفيانزهدسك في أمان في إدارته .

وقد اتسم عيد الميلاد من عام ١٥٥٢ بمشهد مثير للقلق هو مشهد عدد من المشانق تدلى عليها أربعة وسبعون من المحمدين المتهمين بقطع الطرق والفرار من الجيش . هذه الأنباء التي وصلت من قازان إلى موسكو أثرت في القيصر إيماناً تأثراً لأنه كان يعتقد أن نصره كان كاملاً أو أنه كان يأمل بأن يكون كذلك . ثم وصلت رسالة من حاكم قازان بأن الضرائب الواصلة إلى خزانته أصبحت كافية . وكانت هذه الضريبة تدفع على شكل فراء تقوم مقام الأموال كما جرت العادة في ذلك الزمان . ولم يكن المكلفون بجباية هذه الضريبة يظهرون أية شكوى من طريقة الدفع هذه لأنهم لو كانوا يتلقون الضريبة مالاً لصرف مقدارها على وجه الدقة ، أما إذا تلقوها فراء فإن قيمتها عند تسديدها ستكون موضع نقاش .

ونجم عن ذلك حركة تمرد . وبنى التتر حصناً على بعد ثمانين كيلو متراً من قازان وهيؤوا أنفسهم جهاراً للقيام بهجوم لاحق على الروس . وفي مطلع آذار مارس قاموا بقتل جامعي الفراء . وثار قطاع من قازان على الروس رغم أن الشعب كان يفتقر إلى السلاح إلى أبعد الحدود . ومع ذلك فقد فقد السترييلتسي ثلاثمائة وخمسين من رجالهم بينما فقد القوزاق أربعمائة وخمسين ، وكانت الهزيمة صاعقة حتى بدا للبعض أن قازان التي تم فتحها بمثل ما وصفناه من نصر كانت بعد كل شيء مكاناً يتعذر الاحتفاظ به ، وحتى قام عدد من البويار بتقديم نصيحة مذلة للقيصر بأن يسحب حاميته من قازان ويتخلى نهائياً عن المدينة للمسلمين . ومثل هذا الجبن الذي بدا من مستشاريه كان ينتزع من إيفان جزءاً من مجده ومن هيئته كبطل للمسيحية ، وقد جعله هذا يفترض أن وراء ما كان يتلقاه من مDAHنة ورياء كان يختبئ نوع من الحسد والبغضاء .

هذه الاخبار السيئة وصلت للقيصر في العاشر من آذار مارس وفي اليوم التالي أصبح في حالة خطيرة من المرض إذ انتابته حمى قال عنها الأطباء إنها غير قابلة للشفاء . ولم تكن هذه الحمى وباء الطاعون لأن هذا الوباء كان قد تجنب موسكو ولكنها لم تكن أفضل منه لأنها جعلت القيصر طريح الفراش دون قدرة على الحركة وهو ينتظر الموت . وانتشر هذا النبا السيء بسرعة الصاعقة مما دفع شعب موسكو لأن يسرع نحو الكرملين حيث حاصر القصر وهو يجار بالصلاة والدعاء . لقد كان الشعب يحب سيده كثيراً وقد رأى في هذا الهجوم المفاجيء يد الله بدون شك ولكن أحداً لم يكن يعتقد مع ذلك بأن مرض إيفان كان بسبب خطاياه لأن تقاه كان واضحاً لجميع العيون وقد أرسله الله هبة لهم ولم يكن سوى قديس على هذه الأرض . بل إن الشعب كان يعتقد بكل تواضع بأن خطاياه هو كانت أكبر مما استطاع أن يتصور لأن الله كان يهدده بسحب الهدية التي منحه إياها عندما أرسل إيفان .

الا ان الامراء والبويار لم يكونوا يصلون ويدعون بمقدار ما كان يفعل الشعب لانهم كانوا قد سئموا إيثان بعض الشيء لكثرة ثقاه الذي كان مبالغاً فيه في نظرهم حتى في عصر التقى ذاك . كان حقاً ديمقراطياً إلى ابعد الحدود ، وبدا قادراً على حكم البلاد بدون حاجة الى نصائحهم حتى انه اتخذ له مستشارين ذوي منشأ وضيع وجعلهم مساوين لهم إن لم يكن يفضلهم عليهم . وكان زعيم هذه المعارضة السرية للقيصر رجلاً اسمه فلاديمير اندرييفتش ابن الامير اندري الذي كانت هيلانة قد أمرت بقتله . وقد تشكلت طباع هذا الامير في عصر آل شويسكي المضطرب ، وكان أكبر سناً من إيثان وأقل ورعاً ولكنه كان من افضل المقاتلين . فقد شارك في حملة قازان واعتبر البطل الحقيقي في احتلال المدينة . وبما ان يوري أخا إيثان كان قد بقي في موسكو أثناء هذه الحملة فقد أصبح الامير فلاديمير إلى جانب القيصر في الجيش الشخصية التي تنتمي الى أرفع الأنساب . وفي اثناء العودة المظفرة تلقى من العطاءات أكثر من أي امير آخر ولكنه كان يتألم في سره من وجود وريث لإيثان . فلو ان هذا لم يصبح له ولد من الذكور لأمكن اعتبار فلاديمير المرشح الرئيسي للعرش بعد إيثان لانه كان يتمتع بمكانة أعلى من مكانة يوري أخى القيصر .

هذا الادعاء وهذا الأمل في المستقبل قد يبدو ان سخيئين إذا عرفنا ان إيثان حكم واحداً وثلاثين عاماً ، ولكن الله كان يخبىء قدره عن العباد، وقد بدا أول الفياصرة في آذار من عام ١٥٥٣ مسجلاً على قائمة الاموات .

كان إيثان يتمتع بمزاج مرضي ولكنه يتمتع بحيوية ليس لها مثيل ، فعلى الرغم من أنه كان في الثانية والعشرين من عمره إلا أنه لم يكن قد بلغ اقصى نموه الجسدي بعد . وكان يقابل ورعه الديني وثقاه حساسية مفرطة . وينبغي ان نعترف بأنه يمتلك توازناً كاملاً في سنواته الأولى لان ثقواه لم تكن تنتزع منه نشاطه ولم يكن ميالاً بذوقه الى العزلة والتنسك بحيث يكون غير صائح لاعتلاء العرش . كان يعيش في خوف مما فوق الطبيعة ومن سلطان الاموات على الاحياء ولكن جسده من

الناحية المعنوية كان ينبوعاً للحياة . أما عقله الذي كان في موقع وسط بين البيزنطينية(*) Byzantinisme وبين متطلبات الجسد فكان عنيفا بطبعه . وكان يجد من الناحية الفكرية صعوبة في تفهم الشدة التي يبديها الله في غضبه على عباده ولكن طريق الشك أو عدم الإيمان كان مع ذلك مغلقا تماما أمامه . فهو لا يشك أبدا . وبما أنه كان مؤمنا ثابتا على إيمانه فقد توجب عليه أن يرى في المصائب التي يرسلها الله عقابا على الخطايا . وصلواته وخشوعه كان يقدمها تكفيرا عن خطايا شعبه . والحملة على قازان إنما قام بها بنية الحصول على رضا الله عنه وعن بلده روسيا . ولو أنه كان يعرف وسيلة يتصرف بها كما تصرف المسيح بأن يقدم نفسه ضحية وفداء وكفارة عن كل الذنوب التي اقترفتها روسيا لما تردد في فعل ذلك . كان يقدم تضحيته بحسب ما يعرف ويدرك ولكنه لم يكن يستطيع أن يوقف يد الله التي كانت تضرب دون أن يعرف سببا لها في ذلك . وفي عام ١٥٥٣ ظهرت غيوم غطت النور السماوي وجعلته مظلمًا وسودت وغيرت نور النهار إلى ليل .

في معركته الدينية لمصلحة شعبه كان إيثان يتلقى المساعدة من الكاهن سيلفستر الذي فسر الحملة على التتر تفسيراً صليبيًا . ولكن على هذا السرير الذي كان يشبه سرير موت في آذار من عام ١٥٥٣ بدا له أن سيلفستر قد تخلى عنه وأن هذا الراهب لم يكن منفصلا عن هذا العالم وإنما كان يعمل من أجل مستقبله ويبدل فيه اهتمامه . فلو أن القيصر مات وأن سيلفستر تزوج القضية الخاسرة فانه قد يضيع كل نفوذ . فالمسألة كانت هل سيربط سيلفستر مصيره بمصير عائلة القيصرة آل زاخارين أو سيربطه بعصبة ابن عم القيصر فلاديمير اندرييفتش . وقد بدا لسيلفستر أن الأمير فلاديمير سيكون هو الأقوى فسانده ، وفعل مثل ذلك الكسي أرداتشيف وكذلك أبوه فيدور .

(*) البيزنطينية ميل إلى المناقشات اللاهوتية على الطريقة البيزنطية - المترجم -

—ويكاد يكون من المؤكد أنه لو مات القيصر فان الأمير فلاديمير كان سيستولي على الحكم اذا لم يستول على العرش نفسه . وعندما وقع القيصر طريق الفراش نظمت مؤامرة على وجه السرعة وبدأ الأمير فلاديمير وأمه الطموحة إيفروسين بمداهنة البويار وتوزيع العطايا وجمع الانصار بغية القيام بثورة في القصر . ومن المحتمل ان تكون أنا ستاسيا القلقة على صحة زوجها قد أحست بالمؤامرة التي تحاك خيوطها ولم يكن عماها دانيال وفلاديمير زاخارين يجهلان أمرها أيضا . ولو أن الأمير فلاديمير أندرييفتش قد كتب له النجاح لاختفت القيصرة بسرعة عن المسرح ونحي ابنها ديمتري جانبا إن لم يتعرض لخطر القتل . ولكن من حسن الحظ أن إيثان على الرغم من إصابته بالحمى كان يمتلك قدراته تماما ولا يزال يستطيع أن يفعل شيئا للمحافظة على الشرعية لو أنه استدعى العصاة المتمردة لجلسة علنية درامية تعقد الى جانب سريرته . وفي هذه الأثناء تجرا ميكائيلوف على أنه ينصح المريض بكتابة وصيته ولم يعترض إيثان على ذلك لأن الفكرة كانت حسنة . وهكذا أملى وصيته ووقعها بعد أن عهد بالسلطة الى ابنه ديمتري الذي عينه خليفة له والسيد الوحيد لروسيا .

ثم طلب من كل عضو من أعضاء البلاط أن يقسم يمين الولاء لولده . وتضايق فلاديمير وأصدقائه من وجود سيلفستر الذي لم يكن بإمكانه أن يحنث بيمينه في المستقبل على الرغم من أنه كان سرا من بين المتآمرين . فهو لم يكن يستطيع أن يقبل الصليب الذي قدمه القيصر له ثم يتخلى عن ولي العهد بعد موت أبيه ، بينما كان بإمكان الآخرين أن يعرضوا للخطر سلامة أنفسهم التي لا تموت لأنه كان شائعا أن يؤدي المرء يمين الولاء ثم ما يلبث أن ينساه تحت ضغط الأطماع . ومهما يكن من أمر فقد بدأ الأمير فلاديمير ولانصاره أن من الحكمة الحضور فوراً الى إيثان ومجالسته . وبعد كل شيء كان يمكن ألا يموت القيصر وتحدث المعجزة ، فالصلوات كانت قائمة قاعدة وكان لإيثان أكثر من أي فرد في روسيا أوثق العلاقات مع مخلفات القديسين صانعي المعجزات فلو أنه شفي فان أولئك الذين رفضوا أداء اليمين سيكونون دائما تحت ظل التهديد .

لقد أدى الأمر الذي صدر للأمرء والبويار بالقدوم لأداء اليمين إلى حدوث ذهول ووجوم . واستدار المتآمرون إلى الكسي أردادشيف الذي كان خير من يتحدث إلى إيشان . وشعر هذا أنه في موقف حرج ، فكيف يستطيع الاقتراب من إيشان الذي كان يحبه وغمره بنعمائه ليقول له إنه في حال موته سيتخلى عن أسرته ؟ ، وهكذا أرسل مكانه أباه الذي كان عجوزاً مسالماً ولكنه عنيد ، كما أنه كان يشعر بنفور شديد تجاه آل زاخارين . ولما اقترب من القيصر قال له :

« قد نقبل الصليب من أجلك ومن أجل ولدك ولي العهد ديمتري أيها القيصر ولكننا لن نفعل ذلك من أجل دانيا وفاسيلي زاخارين . وابنك لا يزال في المهد ، ومعنى ذلك أن آل زاخارين هم الذين سيحكموننا ونحن نعرف أمثلة عما يعني ذلك ، وانت نفسك تذكر طفولتك ! » .

وكان القيصر أضعف من أن يعترض . اكتفى بفرقة خافته دون أية حركة . كان يصفي لهذا الفيض من الحجج والكلمات الغاضبة التي كانت تتساقط عليه كالضربات . أما الأمير فلاديمير فوروتنسكي أخلص أصدقاء القيصر فقام بتكذيب الأمير فلاديمير أندريفتش (زعيم المؤامرة) وتسفيهه بعصبية وغضب حتى كادت تقوم بين الأميرين مبارزة في غرفة المريض .

وكان ينبغي أن يكون أول من يقبل الصليب دلالة على الولاء للطفل ديمتري هو الأمير أندريفتش باعتباره الأرفع نسباً . وانتظر الآخرون أن يبدأ ولكنه رفض أن يفعل .

وكان الليل قد تقدم عندما انتهت هذه الخلافات الحادة وتقدم نحو السرير أولئك الذين كانوا يريدون تقبيل الصليب وأداء القسم وهم الأمير إيشان موتيسلافسكي والأمير فلاديمير فوروتنسكي وإيشان شيريميتييف وميشيل موروزوف وديمتري بانيتسكي ودانيال زاخارين وفاسيلي زاخارين وعدد من رجال الدين والموظفين . فالموافقون لم يكونوا إذن كثرة . لقد خذلوا القيصر أو كادوا ، والمتآمرون كانوا هم

الأكثرية بصورة لا يقوم عليها أي اعتراض . وربما كان معنى هذا الوضع هو ما ساعد القيصر على الشفاء لأن المقاومة أثارت إرادته القوية ودفعته للعمل إذ لم يكن الرجل الذي يسمح لنفسه بأن يأخذه الاحباط . ثم أملى وثيقة خاصة كان ينبغي أن يوقعها الأمير فلاديمير الذي أدخل عليه ولكن هذا الأمير العنيد رفض بكل صراحة وأمام إيثان أن يؤدي اليمين . وأنذره إيثان بأن خطيئة الرفض ستزح ثقيلا على نفسه ثم طلب من البويار الذين أدوا اليمين بأن يبقوا مخلصين لوعدهم وأن يعملوا بمقتضاه إذا أدركته المنون .

وفي اليوم التالي أخطر إيثان هؤلاء البويار بأن عليهم في حال موته أن يحموا القيصرة وأن يقودوها هي وطفلها الى بلد أجنبي يكونان فيه بأمان .

ثم صاح ملتفتا الى العمين : « أنتم يا آل زاخارين ، لقد خفتم ليس كذلك ؟ ، ولكن لاتصدقوا أن يقوم سلام بينكم وبين البويار ، فستكونون أول الجثث التي سيجرونها الى الخارج . اظهروا أنكم شجعان واحموا ولدي وأمه ولا تسمحوا للخونة بإذلال زوجتي ! » .

وكان من بين الأنصار الرئيسيين للأمير فلاديمير الأمراء بطرس تشيشيناتوف وإيثان برونسكي وسيميون روستوفسكي وديمتري أوبولنسكي وقد أخافهم الكلام الغاضب الذي وجهه إيثان لآل زاخارين . ولم يكن يبدو أن القيصر سيموت فعلا ، والمرارة والحقد اللذان تبديا في أقواله أظهرا لهم أخطار ما ورطوا به أنفسهم من مؤامرات . وبعد مداولة جديدة فيما بينهم قرروا أداء اليمين وراقب بعضهم بعضاً أدق مراقبة عند تقبيل الصليب .

بعد هذه المجهودات ارتدى إيثان على سريرته ولكن ليس من أجل أن يموت ، فقد صمم أن يعيش بعون الله ، وصلى بصوت خافت وظنوا أنه في غيبوبة بينما كان في حالته هذه يقدم نذرا بأنه إذا استرد صحته

سيقوم مع اناستاسيا ومع ابنه بحج صعب في الشمال الى معبد القديس سيريل بالقرب من كيريلوف . وفي اليوم التالي كانت الحمى قد زالت ونهض من سريره سليما معافى .

كان المرض الذي عانى منه يعرف في ذلك الوقت باسم « الحمى الحارة » التي لم تكن مفهومة ولا معروفة العلاج . ولقد كان شفاء القيصر مفاجئا كما كان مرضه .

وبعد أن تم للقيصر الشفاء كان مليئا بالتسامح والحب فجزي الخير بالشر . فرفع والد ارداتشيف الى رتبة بويار لأنه تصرف مثلهم وينبغي أن يكون منهم . أما الكسي ارداتشيف وسيلقستر « اللذان أرادا مثل هيرود تدمير أطفاله » فقد سامحهما في الظاهر . وتقدم الأمير فلاديمير أندرييفتش الى إيثن مترددا يهنئه بعوده صحته اليه فدأب القيصر رأسه وعامله كأن لم يبد منه ما يغضب . وعندما رأى بقية البويار القيصر في مثل هذا المزاج الرائع المتسامح هرعوا يتملقونه بدورهم وحدوا الله على شفائه . وأخذ إيثن يفكر : فقد كان يعرف من كانوا أعداءه حتى اليوم : إنهم البويار ! .

أما تطلعات القيصر المستقبلية فكانت تختلف عما أبداه من تسامح لأنه كان قد أضاع ثقته بالكسي ارداتشيف كما أضاعها بسيلقستر إذ أحزنه ما أظهره من عدم الولاء . وشعر بعزلته كملك وتجمدت عواطفه تجاه الآخرين . ومثل هذا الطبع المرضي الورع كان بحاجة لمؤثر ملطف في علاقاته الاجتماعية . ولم يكن يستطيع أن يغمض عينيه أو يخدع نفسه وكانت أناستاسيا تمنعه من النسيان لأن ارداتشيف وسيلقستر قد أربابها ولم تعد تطيق أن يبقيا محل أثمان زوجها .

ومع ذلك فقد كان الله رحيما وأعاد العافية للقيصر . وكان على إيثن أن يفي بنذره بالحج مع عائلته . ويعتقد البعض بأنه كان قليل التبصر بالابتعاد عن موسكو ورعاية شؤون الدولة في تلك اللحظة بالذات . فقد كان عليه أن يهتم بتسوية الأوضاع الخطرة في قازان . لذلك سادت

فكرة بأنه كان ضعيف الإرادة وأن من السهل التأثير عليه لتغيير نواياه .
ولا بد أن هذا الرأي كان مصدره ما كان يبدو من استشارته لمختلف
المستشارين أو لتسامحه بطريقة حليلة مع أولئك الذين عارضوا إرادته
إثناء مرضه . وكان يوجد في ذلك الوقت رجل اسمه مكسيم الإغريقي
كان تقياً أصيلاً التقى وشخصية حية تفوح منها رائحة القداسة ويعيش
في زناينة تنسك في سيرجي ترويتسكي . وكان الفرانديك فاسيلي والد
إيخان قد نفاه ولكن إيخان نفسه عفا عنه ورده وأصبح أبرز وجوه النساك
في دير القديس سيرجي الكبير . وكان المتنسكون الحقيقيون من الروس
وعددهم يبلغ الآلاف يحتفظون بكلامهم لله وقلموا تحدثوا مع القياصرة
وبقية الرجال . ولكن كان لا بد للاديرة من أن تتباهى بشخص من النخبة
يعيش في القداسة والطهر ، وكان مكسيم في زناينته مطلعاً على طرائق
المناقشات البيزنطية كما كان ذرب اللسان وهو نموذج الرجل الذي كان
إيخان يحب أن يتحدث إليه ، ولكنه قبل أن يباشر رحلة حجه الطويلة
إليه مع عائلته زاره زيارة عاجلة ليتعرف عليه .

يقال إن أولئك الذين كانوا يهتمون بأمر هذه الرحلة سبقوه إلى
مكسيم الإغريقي ولقنوه الحجة التي ينبغي عليه أن يرددها أمام إيخان :
« ان اتمام الدور البعيدة عن الحصافة ليس مقبولا من الله . فالله سيكون
أكثر رضا إذا قمت بحملة جديدة على التتر اعترافاً منك بجميله على
الصحة التي ردها إليك » . وكان هذا بوجه خاص مخطط سيلفستر
وإرداتشيف اللذين كانا راغبين جداً في حمل كل عناية القيصر إلى
الشرق .

« ان الله في كل مكان وتستطيع أن تجده في قازان مثلما تجده
في كيريلوف » .

ولكن إيخان عندما كان على أبواب الموت وعد بأن يذهب إلى كيريلوف
لا إلى قازان . وهو سيذهب إلى القديس سيريل لأن أمه كانت قد ذهبت
إليه قبل مولده لكي تصلي من أجله ، فكان فيها إذن في الماضي ولكن
عندما كان في بطن أمه وسيقتفي خطاها نحو ينبوع الحياة . من أجل

ذلك لم يصحّ بسمعه الى نصائح مكسيم الإغريقي فقررروا عند ذلك إثارة الخوف في نفسه ولكن بدون نجاح . فيروى أن الكسي أردت شيف حمل فعلاً الى القيصر رسالة بعد أن ترك زنازة الناسك تتضمن نبوءة بأنه اذا أصر على القيام بالحج الى الشمال فإنه لن يعود بوالي العهد ديمتري حيا من هناك .

ومن المحتمل أن مثل هذه النبوءة لم تقدم بمثل هذا الوضوح بل صار الناس يتذكرون بعد الحادث المشؤوم بعض التحذيرات الغامضة التي ظهرت قبل السفر عن الأخطار التي يمكن أن تتهدد صحة الغلام فتذكروها كنبوءة كتب لها التحقيق عندما كان الناس يطلبون إشارات من الله . اما ما وقع فهو أن إيفان انتظر في موسكو الاحتفال بأعياد الفصح ثم ارتحل لحفلة ذوبان الجليد مع أخيه يوري وزوجته وولده ديمتري وقد جرت الرحلة أساسا في المركب على نهر أوغليتس نحو الشمال حتى التقاء تشيكسنا بالقولغا الأعلى ومن هناك صعدوا في التشيكسنا لمسافة مائة وستين كيلو مترا عبر بلاد كثيفة موحشة حتى وصلوا الى دير كيريلوف ، وفي خلال هذه الرحلة مات ولي العهد الصغير العزيز . ونحن نجهل ما اذا كانت هذه المصيبة قد نجمت عن نزلة رئوية أو حادث كل ما نعرفه هو أنهم لم ينقلوه الى الكرملين إلا جثة هامدة . فاية مهزلة ! كان البويار قد أقاموا ألف صعوبة كي لا يقسموا يمين الولاء للطفل عندما اعتقدوا أن الاب سيموت ، وها هو ذا الاب يعيش الآن بينما يذهب الفتى الى مملكة الاموات .

لم يحمل الينا رواية ذلك العصر ما سببه هذا الحادث من ألم وخيبة أمل ويأس ولم يعرف أحد مدى تأثيره إلا إذا استثنينا Anastasia والقيصر . وكان ذلك مثيراً للدهشة والفضول . ففي خلال حج تم تنفيذاً لنذر نذر الله قام العلي الأعلى بتوجيه ضربة جديدة لايفان وAnastasia وروسيا ؟ ، وانضمت هذه المصيبة كغيرها من المصائب . فماذا كانت خطيئتهما وخطيئات روسيا التي عاقبها الله هذا العقاب ؟ هل هي خطايا أكبر بكثير من أن تكون قابلة للغفران ؟ .

الفصل الرابع عشر

مولد ولي العهد الثاني

تم دفن ديمتري الطفل في شهر حزيران يونيه في كاتدرائية ميشيل رشانج تحت قدمي جده الفراندوق فاسيلي الثالث ، وبعد تسعة أشهر وضعت أناستاسيا طفلها الجديد إيثان وكان القيصر عند عودته من الحج لا يزال يحتفظ بلطفه الذي أبداه عندما أبل من مرضه . فكان يجزي الخير بالشر ، وإذا اضمر بعض الضغينة فانه لم يظهرها قط . واستمر يصفي لنصائح سيلفستر ويعامل الكسي أرداتشيف وكأنه لم تحدث بينهما أية قطيعة . وكان أكثر تسامحا وتحببا تجاه ابن عمه الأمير فلاديمير أندرييفتش ولم يمارس أي انتقام مع كبار الأمراء الذين جروا وراء فلاديمير في آذار الماضي مما سبب لكل هؤلاء قلقا من هذا الموقف الذي كان يقفه منهم إيثان . فكان الأمراء المتمردون ينتظرون في كل لحظة أن ينالهم العقاب فيجعلهم ذلك في أقصى درجات التوتر والعصبية حتى أن بعضا منهم كالامير سيميون روستوفسكي رتبوا مخططات للفرار من موسكو والالتجاء الى الخارج .

وانتشرت إشاعة عن حديث صدر عن إيثان خلال الحج . فقد قابل راهبا عجوزا شرسا اسمه فاسيان كان أسقفا قديما لكونولومنا ومستشارا روحيا لوالد إيثان الفراندوق فاسيلي ثم طرده البويار ونفوه من منصبه أثناء طفولة إيثان ، وبما أنه كان صديقا حميما للفراندوق فإن القيصر رغب بحرارة أن يتجاذب معه اطراف الحديث .

ونحن نجهل من الذي استطاع أن يحصل على فحوى هذا الحديث الخاص الذي جرى بين القيصر وبين هذا الراهب المتفرد ، ولكن الأمير كوربسكي أكثر رجال العاشية ثرثرة وثقافة أخذ علماً بها . ويروي أن القيصر سأل الراهب الشيخ : « كيف اتصرف من أجل أن ألجم النبلاء » فأجاب فاسيان بحسب رواية كوربسكي : « لا تبحث عن مستشارين أكثر حكمة منك . حافظ على هذه القاعدة بأن تكون أنت المعلم لا أن تتلقى العلم من الآخرين . كن قائداً ومطاعاً فتكون راسخاً فوق عرشك وتمسك بكل شيء بين يديك » . ويضيفون أن إيفان قبل يدي الراهب وأجاب : « لو أن أبي كان حياً لما نصحتني بخير من ذلك » .

على أن إيفان لم يستدع الراهب من عزلته ولا أعاده لمنصبه الديني ، كما أن فاسيان الذي كان على حافة قبره لم يطلب شيئاً منه . وقد افترض كوربسكي أن فاسيان الذي كان ضحية البويار كان يفدي في نفس إيفان انتقاماً منهم ويحرضه على أن يضع حد سيفه في رقابهم . ولكننا إذا أخذنا بعين الاعتبار سلوك إيفان عند عودته لوجدنا أن من العدل افتراض أن فاسيان إنما قدم لإيفان نصيحة مسيحية خالصة : « إجز خيراً بشر واجتذب شعبك إليك بمحبتك إياه » .

وهكذا مضى إيفان يحكم بدون عنف ولا قسوة كما كان يفعل منذ حريق موسكو وتوبته العامة عن خطايا الشعب . وكان لا بد أن يحدث تغير في هذا السلوك ولكن لم يكن أوانه قد آن بعد . فبعد رجوعه من الحج انكب على دراسة المشكلة التي كانت تتطلب قراراً منذ أن كان يعاني من آلام الحمى وهذه المشكلة هي تهدة منطقة قازان . وكانت قد هزمت حملة تآديبية برئاسة بوريس سولتيكوف الذي أصبح أسيراً عند القبائل . ثم أرسل دانيال أردتشييف أخو الكسي إلى مناطق العمليات بمساعدة القوزاق فألحق بالعدو بعض الخسائر ولكن ما كان تحت إمرته من قوات لم يكن كافياً . عند ذلك جهز القيصر جيشاً كبيراً عهد بقيادته إلى ميكولنسكي وموروزوف وشيرميتييف وكوربسكي . وفي خلال شتاء ١٥٥٣ - ١٥٥٤ قام الروس بمهاجمة القبائل وقتلوا منهم الآلاف وسبوا

وأُسروا عدداً كبيراً من النساء والأطفال . وهلك في هذه المعارك الأمير
التتري يانشورا كما هلك اليكا أحد زعماء الشيرميز الرئيسيين . ودُمر
الحصن الإسلامي الجديد على نهر الميش ، فكان كل ذلك سبباً بإشاعة
الفرح والسرور في قلب إيثان الذي أرسل بالأوسمة الذهبية الى
كل القواد .

ولم يَقم إيثان هذه المرة بحملة صليبية مع جيشه بل بقي في
عاصمته . وقد وصل اليه فيها رسول من دير القديس نقولا الذي يقع
عند مصب نهر الدفين في البحر الأبيض يبلغه عن مركب كبير جداً لم
يروا له مثيلاً من قبل ألقى مراسيه في هذا المكان ونزل منه رجال غرباء
ينتدون الى أمة لم يسمع بها أحد من قبل . فكم كانت شديدة رغبة
جلالته في إقائهم .

كان مركباً إنكليزياً اسمه بوناڤانتور Bonaventure وكان الوحيد
الذي نجا من بعثة تجار مغامرين كانوا تحت قيادة السير هيوغ ويلوغبي
بينما قضى الباقيون نجبتهم من البرد على ساحل لابونيا الروسية . وقد
ألقى البونا فانتور مراسيه في ٢٤ آب أغسطس عام ١٥٥٣ .

وقد هرب الروس القاطنون عند خليج القديس نقولا كما أو أنهم
راواً أشباحاً ، ثم سجدوا بعد ذلك أمام ريشار شانسيلور صاحب
المركب . « لقد انتابهم هلع شديد كأنهم رجال نصف أموات وسجدوا
أمامه محاولين أن يقبلوا قدميه » ، أما هو « فقد طمأنهم بإشارات
وحرركات » وساعدهم على النهوض بأن مد لهم يده . وبعد ذلك غدوا
أصدقاء ولكنهم لم يتجرؤوا على المتاجرة إلا بعد إذن من ملكهم .

على أننا لن نعرف أبداً كل الحكايات الخيالية التي شاعت في
خولمافورا مرفأ الدفين الشمالي الرئيسي في ذلك الوقت لأنه لم يكن ثمة
أي مترجم ينقلها إلينا ، إلا أن من المؤكد أن الفضول قد بلغ مداه وانتقل
الى موسكو وإلى القيصر عند وصول الرسول القادم من الشمال . وقد

أمر إيثان بأن تهيأ خيول وعربات على نفقته للمسافرين وتتخذ كل الإجراءات لإيصالهم الى موسكو سالمين . ولكن الرسول انتابه في رحلة الرجوع تأخير كبير « لأنه تاه وقتاً طويلاً في الطريق » ، إلا أن شانسيلور الذي كان قد اتخذ سبيله نحو الجنوب التقاه اثناء المسير ، واخذ الناس الذين استشارتهم رسالة القيصر يتسابقون ويتشاجرون من اجل ان يكون لهم الشرف في تكدين خيولهم الى عربة الضيف ، ولم يكن لدى شانسيلور أدنى فكرة عن المكان الذي كان يقاد اليه ، ولم يكن يخطر له على بال أنه كان يبعد مسافة تقرب من ٢٤٠٠ من الكيلو مترات . وقد وصلت هذه البعثة الى موسكو في كانون الأول ديسمبر ١٥٥٣ .

وأبدى القيصر امام هؤلاء الرحالة الإنكليز كثيراً من مظاهر الترف والبلذخ وبذل جهده في التأثير عليهم لأنه كان يتمتع بخيال واسع كما كان على طريقته الطليعة المبكرة لبطرس الأكبر . كان يمتلك تلك « الغريزة الخالدة لروسيا في أن تتخلص من كونها دولة نصف شرقية وان تتخذ لنفسها طابع الغرب . وبما أنه كان واقعاً تحت تأثير الكنيسة والمثروبوليت سيلقستر وأرداتشيف فإنه دفع بالحدود نحو الشرق ، ولكنه بدأ الآن يتطلع بانظاره نحو الغرب ، نحو البلطيق ونحو السيطرة العالمية . فهو لم يتخذ لقب القيصر لولا أنه كان يشتهي الحصول على إمبراطورية واسعة ، وستبقى انكلترا الغامضة تداعب آفاق خياله حتى آخر يوم له في الحياة .

إلا أن الغامرة الشرقية كانت لا تزال مهمته الكبرى . فبعد سفر الإنكليز بدأ التجهيز لفتح القولفا الأدنى وتم إعداد حملة على أمير أستراخان . كما كان لا بد من توجيه ضربة أخرى لوالد صوغونبيكا الذي كان لا يزال يغذي حقداً مميتاً على الروس . ولم يكن خان تتر القرم قد هباً بعد قواه بعد هزيمته على يد الروس ، وبدأ أن الإسلام كان خالياً من فكرة القتال .

وقد عهد إلى الأمير يوري شيميالكين بقيادة جيش من القوزاق والسترييلتسي (حملة البنادق) والنبلاء الشباب ذي عدد كبير تنقل في المراكب ونزل مع نهر الفولغا . وترددت في جوانب أمنا الفولغا أصدااء الأغاني والأهازيج وإيقاع المجاذيف كما لو أن الرحلة كانت حفلة للمسرات . ولم تظهر مقاومة في أي مكان . وهربت حامية استراخان الشركسية - التتارية فوراً وتمت ملاحقتها في كل الجهات . واستولى الروس على مرفأ بحر الخزر وعينوا واحداً من التتر لإدارته على شرط أن يكون للروس الحق في الصيد في كل اجزاء الفولغا بين قازان وبحر الخزر . وينبغي على سكان استراخان أيضاً أن يدفعوا جزية سنوية مقدارها ألف إسترجون وأربعون ألف التين . وتم قبول كل ذلك وغدا دريش التتري الذي تم اختياره قيصراً محلياً وأول ذواقه لأفضل ناثير في العالم .

وصل خبر هذا الفتح لإيخان في الخامس والعشرين من آب أغسطس الذي يصادف عيد ميلاده . كان في دوامة العيد الذي يحتفل به مع اناستاسيا ومع البلاط والمثروبوليت فوصلت الأخبار السعيدة في اللحظة المناسبة . كان القيصر في الرابعة والعشرين وكانت روسيا تنمو وتكبر معه . واسترعى الحدث انظار العالم ، وسمعة إيخان التي لم تكن إلا اهلية محلية شاعت شهرتها سرباً في الآفاق . وعلى الرغم من المصائب التي كانت تنصب عليه وعلى روسيا فإن ذلك العصر كان بلا مرأى عصر ظفر وتوسع . وقد تبنى القيصر صيغة جديدة يبدأ بها مراسيمه وكتبه . . . « في هذه السنة الخامسة والعشرين من حكمنا لروسيا ، الثالثة بعد قازان والأولى بعد استراخان » .

كانت الشمس تلمع مرة أخرى فوق إيخان . فالله الذي كان قد أخذ بدا يعيد من جديد . كان مطلقاً في القضية المسيحية ، فقد خضعت له قازان خضوعاً تاماً وموسكو تتمتع بالسلام والرخاء ، وبدأ أن المؤامرات والتحزبات قد فشلت أمام لطف إيخان ، فقد كان له علاقات طيبة مع ابن عمه فلاديمير الذي بدا أنه عاد إلى ولائه وإخلاصه ، واستمرت حياته

مع اناستاسيا رضية دون ان تعكرها الغيوم بعد ان اعطته وريثاً هو
الطفل إيثان الذي بدا أنه كان اشدّ عوداً من أخيه البكر .

وقد لجأ القيصر الى كتابة وصية جديدة جعل فيها الأمير فلاديمير
أندرييڤيتش وصياً على ولي العهد في حالة وفاته وحاكماً على البلاد
ووريثاً شرعياً للعرش إذا ما مات ولي العهد . فنحن نرى هنا نتيجة
تبصرات إيثان فيما كان قد حدث من قبل . كان يشعر أن بإمكانه الثقة
بالأمير فلاديمير حتى ولو لم يتمكن من الثقة بأمه الأميرة إيفروسين . وكان
قد أحضر إليه الأمير فلاديمير الذي أقسم أمامه على أن يكون مخلصاً
لمصالح ولي العهد وأن يحمي القيصرة وأن يمنع أمه من أن تلحق الأذى
بأقيصرة أو بالطفل ولا يكون منحازاً في إدارة الدولة ولا يعمل سراً ضد
القيصرة أو المتروبوليت أو مجلس البويار . وقبل بأن يخفض عدد
أفراد خدمه المسلحين الى مائة وثمانية . أما يوري أخو القيصر فكان
قاصر العقل ولم يكن له أي ادعاء بورئاسة العرش .

وكان الأمير فلاديمير قد نصح قبل ذلك بالتخلي عن بطانته فاتخذت
عائلة روستوفسكي على أثر ذلك دون شك قرارها بالانسحاب الى
ليتوانيا . ولو أن إيثان كان لديه النية في معاقبتهم على سلوكهم غير
الموالي الذي أظهروه في السنة الماضية فإنه لم يكن لهم من حاسم ولا
شفيع . وما حدث هو أن الأمير سيميون والأمير نيقولا روستوفسكي
أوقفوا كلاهما عند الحدود الليتوانية وقدم الأمير سيميون للمحاكمة
وحكم عليه بالموت بتهمة الخيانة سمع لبقية أفراد عائلته بالخروج وهم
بين مصدق ومكذب . ولكن المتروبوليت مكاري وسيلڤستر وعدداً من
الأرشمندريثات طلبوا منه الرحمة للأمير فاكتمى بدلاً من سجنه بإبعاده
الى بيلو أوزيرو . وكان الدفاع الرئيسي الذي قدمه الأمير سيميون أثناء
محاكمته ادعاه بأنه ضعيف القوى العقلية . وكانت نتيجة كل ذلك أن
أصبح آل روستوفسكي في ذلك الموسم موضوعاً للسخرية والتندر .
وربما كان إيثان قد أراد قتلهم ولكن سيلڤستر وأرداتشيف منعاه كما
ادعى بعد ذلك .

الفصل الخامس عشر

روسيا تنطلع إلى الغرب

قامت صعوبات مع بولونيا وليتوانيا بسبب الاعتراف بلقب القيصر الذي حمله إيثان . فسيجيسموند أوغست غراندوق ليتوانيا وملك بولونيا المنتخب لم يكن متأكداً من معنى كلمة الإمبراطورية . فهو لم يكن يحب الألقاب الجديدة ولم يكن بإمكان إيثان الرابع بدون شك أن يضع نفسه على قدم المساواة مع إمبراطور الإمبراطورية الرومانية المقدسة أو مع السلطان ! . وكانت بولونيا يومذاك دولة واسعة مزدهرة ولا تعتبر نفسها بطبيعة الحال أدنى مرتبة من موسكويا . وعلى الرغم من أن موسكويا كانت مسيحية فإن ذلك لم يجعلها أقل بربرية . وكانت بولونيا تعتبر نفسها أكثر تمدناً ولذلك فإن سيجيسموند لم يعترف لإيثان بلقب قيصر وأرسل له سفراء يحملون أوراق اعتماد موجهة لبلاط « صاحب الجلالة غراندوق موسكو » لا إلى « جلالة قيصر روسيا » وفي مقابل ذلك أرسل إيثان رسائل إلى غراندوق ليتوانيا متغافلاً عن تسميته ملكاً لبولونيا .

وفي عام ١٥٥٣ عندما وصل سفراء سيجيسموند إلى موسكو ردت إليهم أوراق اعتمادهم ولم يدعمهم القيصر إلى العشاء رغم أنهم أوضحوا أنهم اتوا لعقد معاهدة « سلام خالد » ، ولكن سكرتير القيصر رد عليهم : « إن هذا ممكن ولكنكم لم تبدؤوا بحصافة وذوق » . وأجاب السفراء : « ينبغي عليكم أن تردوا كل الأراضي التي ضمتوها إليكم في الماضي والتي كانت تخص دوقية ليتوانيا وعندما يتم ذلك نعقد معكم معاهدة

سلم دائم ، ثم بعد ذلك نناقش موضوع لقب القيصر الذي ينبغي ان يعترف به البابا والإمبراطور أيضاً » .

ولكن إيثان لم ير ضرورة لعقد مثل هذا الاتفاق فعاد السفراء أدراجهم إلى بولونيا « وقامت نتيجة لذلك حالة حرب مبدئية بين البلدين . إلا ان الخطر التتري الإسلامي لم يكن قد انتهى امره بعد فأعطى القيصر تعليماته إلى مبعوثيه بأن يحصلوا من بولونيا على سلام مؤقت ، والحقيقة ان سيجيسموند أوغست لم يكن ينوي قط محاربة موسكويا ، أما إيثان فعلى الرغم مما بدله المتروبوليت وسيلقستر وأرداتشيف لشنه عن عزمه فإنه لم يكن يتخلى عن تصميمه في أن يعلن الحرب على بولونيا وليتوانيا في يوم من الأيام لكي ينقذ كييف من السيطرة البولونية . وبقيت مسألة لقبه غير المعترف به بدون حل وأرسل إلى سيجيسموند مذكرة مفصلة في هذا الموضوع .

فبالإضافة إلى الشرعية التاريخية لهذا اللقب كان إيثان قد استولى على قازان التي كان أمراؤها يتلقبون بلقب قيصر فما أحرى بفلاح إمبراطورية ان يتسمى بهذا الاسم . . وبعد فتحه لأستراخان أبلغ سيجيسموند أوغست بالسبب الجديد الذي يعتمد عليه للاعتراف له بهذا اللقب . ولكن سيجيسموند هنا إيثان على نصره على الكفار دون ان يسميه بلقب قيصر . كان ملك بولونيا عنيداً يرفض الاعتراف بهذا اللقب ويصر مع ذلك على سلم خالد . فأرسل إلى إيثان بعثة أخرى مؤلفة هذه المرة من أحد النبلاء هو اليان تيشكوفيتش الذي لم يستقبله القيصر بل عهد إلى المتروبوليت ان يستقبله بكل مظاهر التشريف .

ولم يستطع تيشكوفيتش ان يقدم ترضية في موضوع اللقب ومع ذلك تعرض لضرورة قيام معاهدة سلام دائم بين الطرفين . وكان الذي إيثان مايكفي من الاسباب لإعلان الحرب لولا ان ساعة تصفية الحساب مع بولونيا كان لابد لها من أن تتأخر لان إيثان كان قد مس وتراً حساساً في الشمال وغدا في حرب مع السويد .

كان الروس والبولونيون يرغبون في القتال ، ولكن عداءهما كان قائما على نوع من النفور المتبادل أكثر من أن يكون قائما على ضرورات اقتصادية أو حيوية . ومع ذلك فإن الحرب من أجل الحصول على مرافئ حرة على البaltic كانت مكتوبة في ألواح القدر بالنسبة لروسيا ، وما بدا به إيثان سيكون من نصيب بطرس الأكبر أن ينهيه . أما روسيا القرن السادس عشر فقد كانت مدفوعة بغريزتها العمياء عندما تحولت إلى فتح مقاطعة ليفونيا .

وعندما وصلت إلى موسكو بعثة جديدة من التجار الإنكليز كان إيثان مشغولا جدا بمشاريع حروبه الجديدة لدرجة أنه لم يكن لديه الكثير من الوقت لتخصيصه لهم . فقد كان القيصر عائدا من ميلادين القتال في الشرق لأن خان تتر القرم كان طوال الصيف الغائب يسير على خطا الحرب . والسبب في ذلك هو أن الخان كان قد استعاد ستين ألفا من الخيول معظمها من نوع الخيول الصغيرة الحجم المألوفة في تلك السهوب كانت في أسر الروس ، ولكن كان بينها مائتان من خيول الحرب ذات الدم النقي كانت ملكا للنبلاء . وجرت معارك دامية ووقعت خسائر جديرة في كل من الطرفين جرح فيها إيثان شيريميتيف وقتل الناسل الهمام فويغور سيدوروف ، ولكنهم تخلصوا من تتر الجنوب لشتاء آخر وأصبح على إيثان أن يلفت انتباهه إلى الغرب إلى ليتوانيا وليفونيا والسويد .

أما ليفونيا التي كانت قد كفت منذ زمن طويل عن الوجود كمملكة جغرافية فقد أصبحت ولاية تتألف مما يعرف اليوم بروسيا الشرقية ومن جزء من لاتفيا ومن إستونيا . وكان فيها نواة من أغنياء التجار يقيمون في ريغا وريغال ودوربات . وكان سكانها من الفينيين والليتوان والألمان ولكن الروس كانوا يطلقون عليهم كلهم اسم الألمان دون تمييز . وكانت خاضعة لنظام فرسان التيوتون ورئيسهم الكبير ، وهو نظام يعود إلى القرون الوسطى وعلى وشك الانقراض . وكانت إدارتها متراخية ضعيفة من الناحيتين السياسية والعسكرية ، كما كانت ثرواتها التي

لا يحميها احد تشكل إغراء لجيرانها الكواسر . وتلقى الكسي أرداتشيف مهمة إظهار مواهبه في تنفيذ تطلعات القيصر .

وسأل أرداتشيف : « لماذا تأخرت دوريات في دفع ما عليها من جزية ؟ » .

وفوجيء الليفونيون ولم يفهموا هذا المزاح فاجابوا : « اية جزية هذه ؟ . إننا لم نسمع قط شيئاً عن ذلك والا رأينا وثائق عن جزية تدفع لدوق موسكو الكبير » . واجاب أرداتشيف : « اوه ، انتم تفاجئونني . ألا تعرفون إذن أن أجدادكم الذين قدموا من الطرف الآخر من البحر غزوا ليفونيا ودخلوا أراضي غراندوقات موسكو الذين لم يشاؤوا إراقة الدم المسيحي فتركوهم يستقرون على أن يدفعوا جزية لهم ؟ . ولم تدفع هذه الجزية فاضطررنا الآن للمطالبة بهذه المتأخرات » .

وكانت هذه الجزية قد فرضت بالفعل ولكن على أن تدفع عسلا لا نقداً فطالب الآن أرداتشيف بأن تدفع ذهباً . وبما أن الليفونيين لم يكونوا يجرؤون على الرفض فقد التمسوا مهلة ثلاث سنوات رافة بهم واعدن بأن يسددوا بعدها كل ما يطلب منهم . وكانوا يأملون أن يجدوا في هذه السنوات الثلاث حلفاء في السويديين أو الليتوانيين يساندونهم على روسيا . ورغم أن السويديين والليتوانيين كانوا قوماً أشداء فيانهم لم يكونوا أشد خطورة مما كان عليه جيرانهم من الروس .

أعلن غوستاف ملك السويد الحرب على إيشان بسبب بعض التجاوزات على أرضه على سواحل خليج فنلندا . ولكن ما كان يعرفه عن قدرة روسيا من الناحية العسكرية كان يعود الى ماض بعيد ، فما أن بدا القتال حتى أدرك أنه اساء تقدير قوة عدوه . فقد القى الروس الحصار على فيبورغ واجتاحوا الأراضي المجاورة أسرين الكثيرين من الأسرى حتى انحدر ثمن الفتاة السويدية الى خمسين من الكبيكات أو اقل .

وانتشرت الإشاعة في الخارج عن أن روسيا ستدخل مع إنكلترا في علاقات تجارية ، فاغتاظ من ذلك تجار ليفونيا وتمت في ريفيا مقاطعة البضائع الروسية وأظهر التجار السويديون قلقهم ووجهت السويد توبيخات تكاد تكون سخيصة إلى إنكلترا . واهتم التجار الفلامنديون بالامر . وبينما كان شانسيلور وأصدقائه يتفحصون البضائع في سوق نوفغورود الكبير قام الفلمنديون فزجهم بالسجن لأنهم كسروا احتكارهم لولا أن إيثان أصدر أمره السريع بإطلاق سراحهم . وكان للتجار البولونيين والألمان أيضاً مخاوفهم وشعروا بالغيرة تأكلهم . ولا شك أن هذا الاتفاق التجاري الأول بين روسيا وإنكلترا خلق لروسيا الكثير من الأعداء .



الفصل السادس عشر

هموم وغزوات

استمر الترك والتتر يقومون بتهديداتهم بشكل دوري لأن الخان كان في كل ربيع يقرر الأخذ بالثأر لإضاعته قازان وأستراخان . ففي كل ربيع كانت قوافل الجنود والجمال المحملة والخيول الصغيرة الحجم التي لا يحصيها عدد والانكشاريون والأمراء التتر ورجال المدفعية وحملة السهام والفرسان الأتراك من حملة السيوف ينقضون نحو الشمال مجتاحين السهول ومهددين وادي الأوكا ومدن تولا وكولومنا وموسكو . وكان سلطان تركيا يشجع هذه الغزوات ويشعر بالغضب لأنه كان مقصراً في حق الإسلام . وأخيراً كان لا بد للتتر وفي عهد إيثان نفسه من بلوغ غايتهم بالوصول إلى موسكو وإحراقها وإيادة سكانها . فالخطر كان حقيقياً وكان يبدو في بعض هذه الهجمات ضراوة تكاد لا يمكن مقاومتها .

وفي عام ١٥٥٦ بينما كانت القبيلة(*) تتقدم هوجمت بغتة من جانبها على يد القوزاق الذين أحرزوا نصراً مظفراً بين الدون والدينير فازاح هذا النجاح بدون شك خطر التتر لبضع سنوات . وقد دفعت هذه المناوشات التي كانت تقع في الجنوبي الغربي لبيلاريتوانيا ذا سمعة طيبة هو الأمير فيشنيفتسكي إلى الخروج من بلده مع كوكبة من الفرسان للدخول إلى جانب الروس في هذه المعارك المقدسة فأغضب الملك

(*) القبيلة La Horde يقصد بها التتر

- المترجم -

سيجيسموند اوغست الذي كان يحب أن يترك الروس يضعفون وهم يقاتلون وحدهم قوات المسلمين .

وكان سخط سيجيسموند لعدة أسباب : كان يعتمد على السويديين لمقاومة اطماع روسيا في البلطيق ، ولكن غوستاف ملك السويد المسالم سحب جيشه البائس ورضي أن يوقع مع روسيا معاهدة كانت لمصلحتها . وكان لا يعجبه أيضا موقف إيثان العدواني تجاه الليثونيين بعد أن اتخذ بين ألقابه لقب « سيد الأراضي الليثونية » . وربما لم يكن هذا وحده هو ما كان يسبب الاعتراض لأن سيجيسموند نفسه كان قد اتخذ له بدوره لقب « غراندوق روسيا » .

وفي شباط فبراير ١٥٥٧ وصل الى موسكو من جديد موفدون ليثونيون . ولكن ما أن لوحظ بأنهم لم يكونوا يحملون الجزية معهم حتى طردوهم الى ليثونيا بعد أن قال لهم إيثان : « إذا لم تأتوا معكم بالجزية حالا كما كان وعدكم فاننا سنجد الوسيلة لأخذها منكم » .

وكلف الأمير شاستوتوف بمحاصرة الحصن الواقع عند مصب نهر ناروفا مقابل نارفا . فغادر في نيسان ابريل ، وفي تموز يوليه كان قد استولى على الحصن واطلق عليه إيثا نفورود ، وهكذا يكون إيثان قد نفذ الى البلطيق في وقت مبكر وحصل على قاعدة تجارية للاتصال بمدن الجامعة التجارية الهانسية(*) *Hanseatiques* . ولم تكن هذه القاعدة في منجى كامل عن كل هجوم ، فهي تقع مقابل نارفا ذات الحماية القوية المؤلفة من الليثونيين . وقد استعد إيثان لغزو قطاع هام من ليثونيا لاعتقاده هو والبويار بأن هذا الفتح سيكون هينا . ومضى كل الصيف في

(*) الجامعة التجارية الهانسية *Ligue Hanséatique* مؤلفة من مدن ألمانيا الشمالية الغربية وعلى رأسها لوبيك . وكانت تشمل أيضا هامبورغ وبريمن وكولون . أنشئت عام ١٢٤١ للدفاع عن مصالحها المشتركة ضد القرصان وازدهرت عدة قرون .

— المترجم —

الاستعدادات العسكرية . وكان الأمراء الشراكسة بعد سقوط أستراخان قد قدموا من مجرى الثولغا الأدنى وسهوب القوقاز الشمالية إلى الشمال مع كتائب كبيرة من فرسانهم للدخول في خدمة القيصر ، وهكذا فإن روسيا كانت مع توسعها قد ضاعفت من قوة جيشها . وكان التسليح بالمدافع يسير في المقدمة كلما نما الجيش . « كان عندهم مدافع جميلة من النحاس وقواعد ومدافع متوسطة وصغيرة وصقور وحنشيات (أنواع من المدافع القديمة) ومدافع مزدوجة وملكية ، وعندهم ستة مدافع لها قدائف طول كل منها تسعون سنتمترا بحيث يستطيع المرء بسهولة أن يتتبع مسارها عند خروجها من المدفع . كما كان لديهم عدد كبير من مدافع الهاون والفتحات الجدارية التي كانوا عن طريقها يقذفون بالنار اليونانية » .

وكان إيثان قد ألغى الخدمة الاجبارية الاقطاعية التي تتم عن طريق السخرة في الجيش وفرض رسوما على التجارة والأرض كان يجبيها الملتزمون ويوردونها إلى خزينة القيصر . وكانت ملكية الأرض لا تزال تجبر صاحبها وأتباعه على الخدمة ولكنهم صاروا يحسبون أجر الرجل من هؤلاء ويحسبونونها من الرسم المفروض على الأرض . والاقطاعات الكبيرة التي لم تكن تستطيع أن تقدم حصتها من الرجال كانت تنتقص مساحتها أو يفرض عليها غرامة لتغطية الفارق بين ما تقدمه من الرجال وما هو مفروض عليها من رسوم . ونشأت مصلحة للمساحة أصبح بالإمكان عن طريقها معرفة القيمة التقديرية لعدد الجيش . وكان كل من يعمل ينال أجر عمله ، وهذا ما يفسر التوسع الكبير في القوات التي كان يتصرف بها إيثان .

في وسط هذه الاستعدادات العسكرية الكبيرة التي كانت تتم بغية توسيع الحرب في ليثونيا وصل إلى موسكو أحد كبار المستكشفين التجاريين وهو انكليزي اسمه أنتوني جنكنسون كان قد زار سوق بخارى مع أحمال من البضائع المختلفة . وثمة من يسخر من خنثايات الرحالة في ذلك العصر ، ولكن أنتوني جنكنسون وضع واحدا من أفضل وأثمن

التقارير عما كان موجودا في روسيا سواء باللغة الروسية أو بلغات أخرى ولم يشر فيه قط الى « الرجال الذين كانت رؤوسهم تحت اكتافهم »(*) .

وتمت دعوة جنكنسون إلى العشاء . « كان يجلس على الطرف العالي من المائدة صاحب الجلالة الامبراطور وأخوه يوري وامبراطور قازان اديجر الذي كان أسيرا ، وكان امبراطور قازان يجلس أدنى بمرتبتين وكذلك ابنه ذو السنوات الخمس . وتحتة كان يجلس القسم الأكبر من نبلاء الامبراطورية . وعلى ما ئدة أخرى قرب الامبراطور جلس راهب بمفرده ولكن الخدمات كانت تقدم له من جميع النواحي تماما كما كانت تقدم للامبراطور (هو المتروبوليت) . وعلى طاولة أخرى كانت تجلس أنواع أخرى من الناس يسمون بالشراكية كان الامبراطور يحتفظ بهم الى جانبه كرجال حرب » .

هذا العشاء الذي قدم في صحاف وأكواب من الذهب دام خمس ساعات . وبينما كان المدعوون يأكلون ويشربون كان ستة من المنشدين يقفون في مواجهة القيصر ويتغنون بأمجاده . وبعد اثني عشر يوما من عيد الميلاد وبمناسبة عيد الغطاس ذهب رجال البلاط كلهم للتبرك بالمياه وحضر الزوار الانكليز هذا الاحتفال . ومن جل هذه الغاية فتحو نفرة مربعة كبيرة في الجليد للوصول الى مياه نهر الموسكفا .

« في البدء وفي المقدمة مشى شبان يحملون قناديل من شموع مشتعلة بينما كان أحدهم يمسك بفانوس كبير . بعدئذ تقدمت رايات وصليب وايقونات نوتردام والقديس نقولا (صاحب المعجزات) وقديسين آخرين يحملها رجال على اكتافهم . ثم تقدم كهنة عددهم مائة أو يزيد . وبعد المتروبوليت أتى الامبراطور وعلى رأسه التج . وبعد جلالته أتى كل النبلاء . وقد امتدوا على هذا الشكل حتى شاطئ النهر . وعندما وصلوا بالقرب من الثقب الذي كان قد صنع في الجليد تحلق حوله الكهنة .

(*) يقصد الرجال التافهين الذين لا يستحقون الحديث عنهم . - المترجم -

فعلى أحد جانبيه قامت منصة خشبية وقف فوقها المتروبوليت بينما وقف صاحب الجلالة الامبراطور فوق الجليد . بعد ذلك بدأ الكهنة بالغناء والتبريكات وحرق البخور واحتفلوا بخدمتهم ، وعندما انتهوا كان الماء قد أصبح مباركاً . وبعد أن تطهر الماء تناول المتروبوليت شيئاً منه ورشه على الامبراطور وبعض الدوقات (النبلاء) . وأتى بأكثر من خمسة آلاف وعاء للملئها من هذا الماء لأنهم كانوا يعتقدون أن أي موسكوفي لا ينال منه سيناله الشقاء . وغطس في هذا الماء كثير من الناس ما بين رجال ونساء واطفل . »

ومن بين الملاحظات الوصفية الأخرى التي قدمها جنكنسون، وصفه اميد الشعانيين في موسكو : « هنالك جواد مغطى بقماش أبيض يتدلى حتى الأرض . وقد اطالوا أذني الحصان بالقماش نفسه لتصبح شبيهة بأذني حمار . وعلى ظهر الجواد جلس المتروبوليت على هيئة الأمازون(*) ، وعلى ركبتيه كتاب جميل مفتوح رُصع غلافه بصليب من صنع صائغ . وكان يمسك هذا الكتاب بثبات بيده اليسرى بينما يمسك بيده اليمنى صليباً من الذهب لا يني يبارك الشعب به كلما تقدم وهنالك ثلاثون رجلاً يمدون ثيابهم أمام الجواد فما أن يمر فوقها حتى يسرعون لجمعها ويجرون ملدها من جديد أمام الحيوان بطريقة يستطيع بها الجواد أن يسير دائماً فوق هذه الثياب وكان أحد نبلاء الامبراطور يقود الحصان من رأسه بينما يسير الامبراطور نفسه على قدميه وهو يمسك بطرف اللجام بإحدى يديه بينما يمسك بالأخرى غصناً من النخيل . »

وكان يتبع هذا الموكب جمهور من النبلاء وأناس من الشعب ذهبوا كلهم من كاتدرائية في الكريملين الى كاتدرائية أخرى . « وما أن انتهى هذا الطواف حتى ذهب جلالة الامبراطور وبعض النبلاء للعشاء في منزل المتروبوليت حيث لم يكن يخلو الأمر من أنواع الأسماك اللذيذة والمشروبات الطيبة المذاق . »

— المترجم —

(*) أي جعل رجليه في جانب واحد من الحصان .

الفصل السابع عشر

الحرب في ليقونيا

عاد السفراء الليقونيون يحملون الهدايا الى إيثان دون أن يحملوا الجزية فرفض القيصر هداياهم . حقا قدم لهم عشاء وأولم لهم الوليمة الفاخرة المعتادة في مثل هذه الظروف ولكنه كن يهزا منهم لأنه أمر بالآ يقدم الى السفراء الا صحون لا لحم فيها ولا دهن . ولا بد أن التسلية على حسابهم كانت مشوقة . وكان الشيخ علي ينتظر عند الحدود الليتوانية مع أربعين الفا من الرجال يكادون كلهم أن يكونوا من الشراكسة والشيريميز جندوا من الجنوب الشرقي على أساس أنهم أكثر نزوعا من الجنود الروس الى القتل والسلب والنهب . وكان يوجد مع الشيخ علي زعماء بواسل من أمثال إيثان شيريميتيف ودانيال أرداتشيف وسيربراني كما كان يشترك معه في القيادة أندره كوربسكي وميشيل فاسيليفتش غلينسكي . أما السفراء فقد عادوا أدراجهم وأصدر القيصر أمره بالاجتياح .

وكان الفرسان التوتون الذين يسكنون القصور الجميلة قد غدوا مخنثين وغدا نظام فروسيتهم ملهاة مضحكة تصلح لإبهار النساء أكثر من صلاحيتها لقتل الرجال . وفي هذه النقطة كان مؤرخو الطرفين متفقين ، فالفرسان لم يكونوا يستطيعون إبداء مقاومة كبيرة أمام الروس . وهكذا اخترق الشيخ علي البلاد وقام بمذبحة كبيرة وحصل على غنائم كثيرة لأن ليفيونيا كانت بلاداً سميئة صالحة للنهب . وقد بدأ الغزو في الثاني والعشرين من كانون الثاني يناير ١٥٥٨ دون أن ينتبه

الفرسان اليه لانهم كانوا يحتفلون بزواج مواطن رفيع المقام من ريفال فاجتاح الجيش القيصري البلاد في الجنوب والغرب من دوريات على جبهة طولها مائتان واربعون كيلو متراً حارقاً المزارع والقرى وقتلاً الرجال وفائداً إلى العبودية النساء والأولاد . فالعنف والقسوة البالغة كانا كما يقال صفة هذه الحملة . فكم من الفتيات اغتصبن وكم من الرجال اختطفهم الموت على يد الجنود البرابرة . فالمسألة لم تكن تملأ مسألة حرب لانه لم تقم إلا مقاومة ضئيلة في وجه الغزاة بل ربما لم تقم مقاومة قط ، وإنما كانت حملة تأديبية غايتها نشر الرعب وإقناع الفرسان والتجار وسيدهم الكبير وأسقف دوريات انه سيكون من الأسلم لهم ان يتفاهموا وأن يدفعوا ما عليهم من جزية عن يد وهم صاغرين .

ولم يحاول الجيش الروسي ان يستولي على المدن المحصنة مثل دوريات بل احوال الى رماد التجمعات السكانية الهامة مثل مارينبورغ والتنهون ونيلهاوس . وقد حاولت الجيوش الألمانية القيام بخروج من دوريات ولكن الروس ردوها بعد ان كبدها خسائر فادحة . عند ذلك اندفع جزء من الجيش نحو الشمال حتى سواحل البلطيق مستولياً على القرى بدءاً من ويسمبيرغ وعلى امتداد الساحل حتى وصل الى بعد خمسين كيلو متراً من ريفا . وفي حوالي نهاية شباط فبراير عاد الغزاة من هذه الحملة مثقلين بالغنائم وقد مروا امام نارفادون ان يهاجموها ودخلوا ايضاً نفورود التي غدت قاعدة روسية منذ ذلك الوقت .

أما القيصر فقد أبدى موافقته على الطريقة التي عومل بها الليثونيون وأما الحملة فكان لها شعبيتها لانها حملة مجزية . وقد احسن الشيخ علي التصرف وكذلك الامراء بينما نسي غلينسكي نفسه لدرجة انه قاد بعض العصابات فوق الارض الروسية وصار يقوم بالسلب والنهب والاغتصاب كما كان يفعل في ليفونيا ولكن القيصر انبه بكل قسوة وامره بأن يصلح ما افسدته من المزارع التي قام باحراقها وان يعيد اليها ما انتزعه منها من غنائم .

عندئذ سعت ليفونيا الحزينة المنتحية الى الصلح . ورد الشيخ علي على المبعوثين : « انتم تعرفون الشروط » . وسعى السيد الكبير لإرسال سفراء جدد الى موسكو . وأعلن إيثان هدنة تبدأ بابتداء الصوم الكبير وتنتهي بعيد الفصح . إلا أن الفرسان في نارفا خرقوا الهدنة وأداروا مدافعهم نحو إيفانغورود فأرسل إيفان الأمير تيمكين على جناح السرعة بمهمة لتدمير اثنتي عشرة قرية ليفونية ردا على الطلقات التي أطلقت من نارفا . ولكن هذا التدبير لم يؤثر على الفرسان الذين استمروا بإطلاق مدافعهم على إيفانغورود رغما عن إرادة عمدة المدينة وتجارها . وكان سكان نارفا يخشون أن ينالهم نفس ما نال سكان القرى الليفونية الأخرى من مصير . فأرسلوا تحت جناح الظلام مبعوثين الى إيفانغورود يفاوضون باسمهم ويعلنون أنهم لا يرغبون بديلا عن أن يكونوا رعايا القيصر المسلمين المخلصين . وتوجه مبعوثون منهم إلى موسكو مكلفين بالدفاع عن قضيتهم . ولكن إيفان وضع شرطا لذلك أن يضعوا بين يديه مفاتيح المدينة ويسلموه شيلنبرغ قائد الفرسان .

أما أن يكونوا قد نفذوا هذا التسليم فامر مشكوك فيه ، ولكن المعركة أثناء غيابهم غدت أشد ضراوة وصاروا ينتظرون الإمدادات من السيد الكبير(*) وكان الروس مفتاظلين الى أبعد الحدود ومستعدين للإفادة من أول فرصة للأخذ بثأرهم . وانفجر الحريق في نارفا . وتروي الأسطورة أن جنودا ثملين من الألمان دخلوا منزل تاجر روسي كبير كان يسكن المدينة وانتزعوا ايقونة للسيدة العذراء رأوها تتصدر المكان وألقوا بها في مدفأة المطبخ فوقعت على الجمر ووجهها الى الأسفل ولكنها لم تحترق بل تسببت في إشعال الحريق . وقد لوحظ أن نصف المدينة قد أمسكت به النيران فاستفاد الجيش الروسي من هذه الفرصة للاستيلاء عنوة على أسوارها . وقد انقض الجنود دون أن ينتظروا أوامر من فوادمهم واجتاز بعضهم نهر تاروفا في قوارب بينما

(*) يقصد بالسيد الكبير رئيس الفرسان التيوتون وحاكم ليفونيا - المترجم -

انتزع آخرون ابواب بيوت ايفا نفورود واستخدموها لاجتياز النهر
وبنى آخرون لهذه الغاية اطوافا من الاخشاب . وعندما رأى الامراء
هذا الهجوم العفوي لم يستطيعوا التخلي عن دعم هذه المأثرة المشرقة
واعطوا أوامرهم للقسم المتبقي من الجيش بأن ينضم للمهاجمين . وقد
برع في هذه العمليات كل من الامراء دانيال ارداتشيف والكسي باسمانوف
وايفان بوتورلين . وساد هرج ومرج بين المدافعين الذين لم يتمكنوا من
صد الهجمات وسقطت نارفا بأعجوبة بيد الروس .

قام الفرسان فطلبوا الصلح فوراً واعدوا بمفادرة المدينة
مع نسايتهم . وخفق العلم الروسي فوق نارفا . ووجدت ايقونة السيدة
العدراء بين الرماد . وما ان عادت الى مكانها واسترجعت مكانتها حتى
هدأ الحريق . وقد استولى الروس على مائتين وثلاثين مدفعا وعلى
الثروات التي تركها الفرسان ساعة الرحيل . واكتشف ان معظم السكان
كانوا من حزب الروس فلم يتعرضوا للاذى بينما اقسام الجميع طواعية
يمين الولاء القيصر .

هذه الانباء ملأت قلب ايفان نشوة وسرورا فقام بخدمات شكر في
الكاتدرائيات واقامت الولائم في القصور ، وكان المتروبوليت سعيدا
ايضا فأصدر أوامره بتطهير نارفا من الدنس اللاتيني واللوثري وبناء
كاتدرائية توضع فيها الايقونة الصغيرة العجائبية للسيدة العذراء .

بذلك أصبح السيد الكبير مرغماً الآن على دفع غرامة كبيرة فارسل
مبعوثيه ليقدموها مقابل الصلح . ولكن ايفان رد على ذلك بأنه استولى
على نارفا وأنه يريد الاحتفاظ بها وأن بإمكان السيد الكبير ان يحصل
على الصلح اذا أصبح من اتباع ايفان والا فان روسيا ستستولي على
كل ليثونيا وتحتفظ بها . وبما ان هذه الشروط لم تكن مقبولة فإن
الحرب كان لا بد لها من ان تسمر . وكانت الملامح المميزة لهذه الحرب
منذ تلك اللحظة بعيدة بعض الشيء عن السلب والنهب والاعتصاب
وتتركز على استسلام الحصون الصغيرة وانخراط الاهالي في الرعوية

الروسية . اما السيئو الحظ من الليتون والالمان فلم يكونوا مسرورين ابدا من تادية قسم الولاء من اجل الحصول على سلامتهم الشخصية واضطر السيد الكبير فورشتنبرغ أن يتنازل عن منصبه لمصلحة فارس شاب طموح هو كيتلر قام بطلب المساعدات من كل المناطق المجاورة فلقي الكثير من العطف ولكنه لم يتلق الا القليل من العون .

اما سييجسموند اوغست فكان اهتمامه بالغا بالنجاحات الروسية ولكنه لم يكن سهلا عليه ولا حصيفا ان يدخل الحرب ضد الروس رغم ما كان يشعر به من خطر ومن خوف كبير .

واما الامبراطور شارل الخامس الذي كان بإمكانه مساعدة كيتلر فكان قد تنازل عن العرش منذ قليل وانسحب من الحياة العامة . ولم يشأ فرسان الجزة(*) الذهبية ان يمدوا يد المساعدة للفرسان التيوتون فلم يأت احد لمساعدتهم . وفي الثامن عشر من تموز يوليه عام ١٥٥٨ استسلمت مدينة دوريات الكبيرة الى الأمير شويسكي وجيشه وبذلك تكون كل ليفونيا الشرقية التي تكاد تشمل اليوم كل اراضي إستونيا الحالية قد انتقلت الى يد الروس . ولكن الحرب استمرت في الغرب خلال الخريف والشتاء حتى وصلت الى حدود بروسيا وابواب ريغا ترافقها الحرائق والمذابح والتدمير مما لا يفي بوصفه كلام .

وفي شباط فبراير من عام ١٥٥٩ بالغ الأمير سيريبراني فارسل للقيصر رسالة روى فيها ان ليفونيا لم يعد لها وجود . وتوسط ملك الدانمرك لمصلحة ليفونيا فعقد إيثن هدنة معها بعد أن أصبح مهددا مرة اخرى من خان القرم . وكان التتر قد غزوا روسيا والمملكة البولونية - الليتوانية فكان ذلك دافعا لعقد اتفاق بين سييجسموند وإيثن . ولكن الوضع أصبح معكوسا الآن ، فبعد أن كان سييجسموند يسعى جاهدا

(*) الجزة الذهبية Toison d'or الجزة هي مجموع ما يقص من صوف الغروف .

- الترجم -

منذ بضع سنين لأن يعقد صلحاً دائماً مع روسيا أصبحت روسيا هي التي تسعى هذه المرة لعقد مثل هذه المعاهدة. ولذلك أجاب سيجموند: « ردوا لنا مدينة سموانسك نتعاقد معكم ونمضي لقتال المسلمين » .

إلا أن إيفان كان أبعد ما يكون عن التفكير بإعادة سموانسك التي كان الروس قد انتزعوها من بولونيا في القرن السابق ، بل إنه كان يفكر دائماً بالاستيلاء على بودونيا وأوكرانيا اللتين كانتا روسيتين من حيث اللغة والعادات وتقعان تحت النير البولوني ، وهكذا لم تكن إعادة سموانسك موضوعاً للمفاوضة. وفي السادس عشر من أيلول سبتمبر ١٥٥٩ اشترك سيجموند في حرب ليفونيا أخذاً على عاتقه حماية نظام الفرسان التيوتون وممتلكاتهم والوقوف إلى جانبهم في وجه روسيا . وبغضمة بالغة كتب إلى إيفان بأن يخلي ليفونيا ويتخلى عن كل غزو جديد يقوم به في أراضيها لأن ليفونيا أصبحت تحت حمايته .

وكان دانيال أردادتشيف قد أرسل لمواجهة خان القرم يساعده الأمير فيشنيفتسكي فأحرز سلسلة من الانتصارات المدوية خلال صيف عام ١٥٥٩ . وسمحت هذه الحملة لليفونيا بأن تتنفس لأن الجيش الروسي كان مشغولاً جداً عنها في ذلك الصيف . وأوإن الروس لم يسحقوا القبيلة التتيرية لتمكنت هذه أن تحطم العوائق وأن تصل إلى موسكو وتجعلها عرضة للانتهاك . فقد كان التتر في كل الحالات يشكلون خطراً أكبر بكثير مما يشكله البولونيين والليتوانيون ، فهؤلاء الآخرون لم يهددوا العاصمة الروسية قط .

وفي أثناء ذلك اعتقد كيتلر بأن البولونيين سيحركون قواتهم لمواجهة الروس فألقى الحصار على دوربات والحصون الأخرى التي كانت في قبضة الروس . وأدت هذه المناورة إلى عودة القوات الروسية الرئيسية إلى ليفونيا وهي تحمل سيف الانتقام . وصار أندري كوربسكي ودانيال أردادتشيف طوال صيف عام ١٥٦٠ يلاحقان فرسان التيوتون من قصر إلى قصر مجتاحين البلاد وجاعلين قوة ليفونيا تحت الأقدام . ولم يقم

سيجسموند أوغست بأي عمل لمساعدة هذا البلد الذي جعله تحت
حمايته المزعومة . كانت الشمس تلمع فوق الأسلحة الروسية وكل شيء
سار على ما يرام . ولكن ما لم يكن في الحسبان حدث في شهر تموز
يوليه ، إذ أن القدر وجهه الى إيقان ضربة رهيبة ، ضربة أكبر من أية
هزيمة يمكن تخيلها في ساحات القتال ، فقد وقعت القيصرية اناستاسيا
مريضة وماتت وتفطر قلب القيصر وإيمانه وربما كانت هذه المصيبة
سببا في تفطر عقله أيضا .



الفصل الثامن عشر

موت أنا ستاسيا

بعد فتح قازان اظهر إيفان مزاجاً أقل نزوعاً الى الحرب ، فقد ترك الآخرين امر العناية بالقتال دون أن يعرض نفسه للمخاطر . حقا كان الجيش قد ازداد ثقة بنفسه ولم يعد بحاجة لأن يشد في عضده وجود القيصر ولكن من المدهش أن هذا الفتى لم يعد متعطشاً للأمجاد العسكرية . يضاف إلى ذلك أن حرب ليثونيا لم تكن حرباً مقدسة وحصيلتها لم تكن جليلة بالنسبة للأمير كان يقاتل بالصلاة . كان المسيحيون يتقاتلون مع مسيحيين ، فالحرب إذن دنيوية ولها غاية نفعية ولم يكن الأمر يخرج عن توسيع سلطة روسيا وهيمنتها الزمنية . ويمكننا أن نفترض بأن القيصر الذي لم يكن يعتبر نفسه قائداً عسكرياً ما كان له أن يلعب في ليثونيا . ولكنه في المعارك المختلفة التي قامت ضد التتر الغزاة بقي سلبياً أيضاً . فقد خرج مرة أو مرتين على حصانه كما لو أنه ينوي قيادة جيشه ولكنه لم يشتبك مرة واحدة مع العدو . أما فكراً وعقلياً فقد بدا نشيطاً إذ كان الإرادة والإلهام وراء أردادشيف وشيرمينتييف وغيرهما من قواد الجيش ، وفي خلال ثماني سنوات كان يمارس حياة خاشعة .

السبب الأول في ذلك هو أن إيفان لم يكن جندياً . فالقيصر الذي لم يكن يميل كثيراً للصيد لم يكن يهتم بحياة المعسكرات ولا بميادين القتال . ولم يكن دمه القليل الحرارة يدفعه الى المععان . والسبب الثاني كان الحرص . فقد كان يحمي مستقبل القيصرة والوريث . فمنذ

خيبة الأمل التي تعرض لها أثناء مرضه عام ١٥٥٣ اجتاحه الخوف من أنه في حال موته فإن البويار سيعزلون ابنه وولي عهده إيثنان ويسجنون أناستاسيا في دير بعيد . حقاً كان قد أجبر ابن عمه فلاديمير أندرييقتش أن يساند ولي العهد تحت طائلة القسم ولكنه لم يكن من النادر أن يرى المرء رجالاً ضحوا بسلامهم الأبدي من أجل العرش . كان يشق بابن عمه ، ولكنه إذا مات فهل لن يمارس البويار ضغطاً على فلاديمير ليحملوه على التنكر لقسمه والاستيلاء على العرش ؟ . أما الكسي أردادشيف فعلى الرغم مما أدى له القيصر من الخدمات وما منحه من العطايا فإنه لم ينس ما قام به هذا الشاب من إغراض في اللحظة الحرجة من عام ١٥٥٣ . وكان لا يزال مستمراً في الإصغاء لنصائح الكاهن سيلفستر ولكنه كان يعرف مع ذلك أن هذا الراهب لم يكن يحب أناستاسيا . وكان بإمكانه الاعتماد على إخلاص المتروبوليت ولكن ماكاري كان مريضاً وضعيفاً . وعلى الرغم من كل سلطة الكنيسة فإن الحبر لم يكن ضماناً لمستقبل أمراته ووريثه . كانت الضمانة الوحيدة هي في أن يحافظ على حياته الشخصية كدرع ودرية حتى يبلغ ولي العهد سن النضج .

كان بإمكانه أن يتخلص من كل أولئك الذين عارضوا مخططاته لولا أن أناستاسيا كانت تعارض الشدة وسفك الدماء في البلاط . « فلنحارب أعداء روسيا لا أن يحارب بعضنا بعضاً » . فتلك الأخلاق العظيمة التي تتألق بالحكمة كانت إلى أبعد الحدود من تأثير القيصرة التي تقوم سعادتها على تخفيف آلام الآخرين . كانت بعد كل نصر في ساحات القتال تمنح الحرية لعدد كبير من الأسرى على أنها نعمة من نعم الله . ومن أجل هذا تمكن رحالة غربي أن يقول عن إيثنان في عام ١٥٥٨ : « اعتقد أنه ليس من أمير في المسيحية من هو محبوب أكثر منه » .

وفي الكرملين كان إيثنان يعيش عيشة الشرف . ولم يكن يظهر إلا في أبواب بهية من الذهب مرصعة بالأحجار الكريمة أو في ملابس أرجوانية متوهجة وفراء . وكان يتصرف بكبرياء عظيمة ويتلقى العرائض من الجميع حتى أن أفقر الناس في البلاد ولأول مرة في التاريخ الروسي كان

بإمكانه أن يجد السبيل مفتوحاً أمامه إلى ملكه . وفي مجلس البويلو كان شعلة نشاط . وكان أعضاء هذا المجلس يحق لهم بكامل حريتهم أن يدافعوا عن آرائهم حتى ولو كانت متعارضة مع رايه . وفي بعض الأحيان كان أرداتشيف يعارضه بشكل صريح دون أن يحمل عليه أية ضغينة . وفي أغلب الأحيان كانت آراء أرداتشيف الصائبة تقود خطاه ويتبعها بينما في حالات أخرى كان يصر على رايه كما حدث في موضوع الحرب في ليثونيا وكان أرداتشيف ينصاع في النهاية إلى أوامر القيصر . لم يكن يقطع الرؤوس ولا يحرق الناس في المحارق ومع ذلك كانوا يطيعونه كما لم يطيعوا أي حاكم غيره ، ولو أنه طلب إلى شخص « أن يشنق نفسه » فإن ذلك الشخص يخرج طواعية لتنفيذ الأمر . وقد ترك الرجال شعورهم تنمو وتطول عندما أعجبه ذلك ولم يعودوا إلى الحلاق إلا عندما عادت البسمة إلى شفثيه .

وعند أداء واجباته الدينية كان القيصر يظهر ورع رجل من رجال الدين الذين كانوا يعيشون في القرون الوسطى كما كان مخلصاً بشكل ملحوظ للكنيسة وللمتروبوليت ماكاري . ولم ترتد إصلاحاته ثوب الاغتصاب والاستلاب الذي قدر لها البعض أن ترتديه . وكان همه الأساسي هو أن يكون الرهبان رهباناً حقيقيين يقيمون الصلاة لا تجاراً ولا مزارعين لأن فساد الأخلاق إنما أتى من التجارة والجري وراء المنافع . وكان يشجع التقشف والزهد حتى أنه لم يشهد أحد مثل ما قام به من صوم لا من حيث الشدة ولا من حيث عدد الأيام . وكان يوزع الصدقات بسخاء وعلى أوسع نطاق كما أنه أنفق الكثير من الأموال على بناء الكنائس . وقد ارتفعت الكاتدرائية التي أمر ببنائها في الميدان الكبير دليلاً على شكره لله على النصر الذي منحه إياه في قازان ، ارتفعت رائعة الجمال أمام عينييه وأطلق عليها اسم كاتدرائية الشفاعة للسيدة العذراء . وبعد ست سنوات من بدء حفر أساساتها كان بناؤها قد تم . ولم يكن قد أتى بعد فاسيلي بلاجهيني أو (فاسيلي البريء) لينتقص من قدر القيصر بسبب خطايا فينسب اسمها إليه . والخلاصة أنه لم يكن في حياة إيفان ما يمكن أن يلام عليه .

وفضلاً من ذلك بدأ أن غضب الله قد هذا . ففي عام ١٥٥٣ تم عن طريق الصلاة طرد الطاعون الذي تفشى في نوفغورود وبسكوف . والله الذي دعا اليه ولي العهد ديمتري عوض عنه في السنة التالية بولي العهد إيثان . وأبدى الله رحمته أيضاً بحمايته موسكو مرات عديدة من غزو انوثنيين . وبارك إيثان في ذريته بأن اعطاه ولداً آخر هو فيدور Fedor الذي ولدته أناستاسيا عام ١٥٥٨ . والآن إذا كان على واحد من هذين الولدين أن يموت فإن الآخر سيبقى لورثة العرش . والرغبة المتعصبة في أن تبقى وراثته العرش في أبنائه تعود الى حماسه المتطرفة في حبه واحترامه لأبيه و أمه المتوفيين . والشفقة التي حملها هذا اليتيم على بتمه بقيت في كيانه حية تحيط بها قناديل ندرية غير قابلة للانطفاء . وقد ابتسم الله أيضاً للحرب المشبوهة التي خاضها إيثان في الغرب ، وبشفاعة من العذراء المقدسة استسلمت نارفا إليه .

على أن حرب ليفونيا كانت مشروعة تم تنفيذه برغبة من القيصر . أما أرداتشيف وسبلفستر وكوريسكي وكثيرون آخرون فقد عارضوا أقبها ولم ينقصهم حتى أفت نظر القيصر الى أنه إذا أصابه زكام أو مرضت القيصرة والأولاد فإن ذلك سيكون عقاباً من الله على مثل هذا المشروع الملعون . وفي تشرين الثاني نوفمبر من عام ١٥٥٩ ذهب إيثان وأناستاسيا للصلاة في دير موزهيسك ولكنهما عندما كانا على وشك الإياب الى موسكو وقعت القيصرة فريسة المرض . وكان في رفقتهما سبلفستر الذي بدلاً من أن يأخذ بالصلاة بلغت به الوقاحة أن رأى في ذلك دليلاً على غضب العلي الأعلى . أما أرداتشيف الذي كان مسؤولاً مسؤولية جزئية عن رحلة القيصر فقد فاته حسن التنبؤ في هذه المرة . ولم يكن ثمة دواء . والأسوأ من ذلك أنه لم تكن توجد زحافة مناسبة لنقل المريضة الى موسكو . فمم كانت تشكو أناستاسيا على وجه الدقة والتحديد ؟ لا أحد يعرف ! . أما الراي الذي يقول بأن سماً سكب لها

في كأسها فليس إلا من قبيل التخمين . على أن حالة القيصر لم تكن مجرد وعكة بسيطة لأن أناستاسيا كانت مريضة بشكل جدي وتتطلب معالجة بدون تأخير . ولم يكن الدفء وبقيّة أشكال العناية متوفرة في دير موزهيسك المتقشف القاسي خلال الشتاء . وكان القيصر الشديد القلق غاضباً إلى أبعد الحدود . وكان نقص العناية الذي تعرضت له المريضة لحظة وقوعها في المرض سبباً في تفاقم حالتها التي أودت بها في السنة التالية إلى الموت .

ومن العجيب ألا تصل إلينا عن مرض أناستاسيا أية تفاصيل حتى ولا عندما ادعى كوربسكي بعد بضع سنوات بأنها تعرضت للسم . ومما لا شك فيه أن الطبيب الإنكليزي ستانديش استدعي لمشاورته ولكننا لا نعرف عن ذلك شيئاً، أما القيصر فلم يكن يعتقد أنها ماتت بالسم، وكانت إصابته الأولى قد وقعت في تشرين الثاني نوفمبر من عام ١٥٥٩ ولكنها ابلت نصف إبلالة من مرضها ثم ما لبثت أن تعرضت لنكسة خطيرة في تموز يولييه من عام ١٥٦٠ وبالمرض نفسه . وزاد في حالتها سوءاً تعرضها لرعب شديد إذ نشب حريق في الأرباط دفعته الريح الشديدة فانتشر مزجراً مهدداً بتدمير المدينة كلها كما حدث في سنة زواجها . ووصل الدخان إلى الغرفة التي كانت ترقد فيها واستطاعت أن تسمع زمجرة النيران وتري من النافذة انعكاس اللهب الأحمر حتى أصابتها هزة عصبية لم يستطع تهدئتها الكاهن ولا الطبيب . وبدل القيصر كل ما يستطيع ، فحملها بعيداً عن الخطر بأقصى سرعة حارساً محفتها حتى بيتها في قرية كوليمنسكو بالقرب من موسكو ثم عاد ليعمل مع كل حاشيته للسيطرة على الحريق . وقد نجح في ذلك على الرغم مما سببه الحريق من خسائر جسيمة .

وأخيراً عاد إلى أناستاسيا فلم يجدها قد هدأت بعد . كانت تهدي وتخيّل أنها ما زالت في وسط المدينة التي تلتهمها النيران . ولم يكن

انكهان ولا الطبيب بقادرين على التخفيف عنها كما لم تستطع ذلك صلاة
الاحتضار الرهيبة القلقة التي رفعها إيثان . وفي السابع من آب أغسطس
في الساعة الخامسة صباحاً أسلمت القيصرة الروح .

وسكب شعب موسكو الدموع . أما القيصر فقد تبع الموكب الجنائزي
منتحياً حاسر الرأس من التاج .



الفصل التاسع عشر

نكة أرداتشيف و سيلقستر

يبدو أن طباع القيصر تغيرت بعد موت أناستاسيا . وربما عاد إلى ما كان عليه قبل التوبة والهداية في عام ١٥٤٧ . وقد مارس حياة سليمة ومستقيمة خلال ثلاثة عشر عاماً صديقاً للفقراء وأكثر القياصرة الذين عرفتهم روسيا فطنة وبعد نظر . لقد تركنا « الرهيب » مشغولاً بحرق لحى سفراء بوسكوف المتنوعة بالثودكا . ومنذ ذلك الوقت مر فاصل زمني طويل كان فيه إيغان يتصرف تصرف ملاك . فقد طرد من قلبه شياطين العنف والفساد وأوصدت أناستاسيا عليهم الباب بعيداً عنه . أما الآن فقد انفتح هذا الباب من جديد ودخل منه الشياطين جاثمين ومتعطشين للانتقام .

وكانت الكنيسة الأرثوذكسية تعلم أن الاستسلام لليأس معناه ارتكاب أبشع الآثام ، والأخطر من ذلك التشكك بالعناية الإلهية وإنكار الإيمان والاعتراض على إرادة الله . ومن البديهي أن اليأس لدى الصلف من الناس ليس إلا سخطاً على النفس وليس له مثل هذه النتائج ، ولكن إيغان كان مطلق الإيمان ويعيش مع الله ويفسر كل حادث ، في ضوء أعمال الإله تجاهه هو نفسه ونحن لا ندري ما أمكن للقيصر أن يقوله في يأسه لأن إخباري العصر لم يفيدونا بشيء في هذا المجال . فهل شتم الإله الظالم ؟ ، هل لعن كما فعل أيوب نور حياته ؟ . « فليهلك اليوم الذي ولدت فيه والليل الذي قيل فيه إن ولداً ذكراً قد حملت به أمه ؟ » .

ما نعرفه أنه أثناء الجنازة وخوفاً من أن يرتكب عملاً عنيفاً تجاه نفسه رافقه أخوه يوري وابن عمه فلاديمير وذكره المتروبوليت بأن، على المسيحي ألا يقف من النكبة موقف اليأس . ونحن نجد التفسير الرئيسي لحالته العقلية في هذا الظرف في أن القيصر انصرف بعد المآثم إلى الشراب، ولم يمض أسبوع واحد على الحادث إلا وكانت له عشيقة بين ذراعيه . . « فبعد موت القيصرة بدأ القيصر في أن يصبح همجياً ونزاعاً إلى الفحشاء » كما وصفه أحد كتاب العصر (١) .

طبعاً كانت الحاشية كلها تدرف الدموع ولم يكن ثمة إلا تعازٍ وأحزان ووجوه كالحة . ولكن ما أن تغير مزاج القيصر حتى وضع البويار جانباً حزناً لم يشعروا به قط . فقد كانت أناستاسيا صديقة لشعب موسكو الفقير الذي حزن على موتها حزناً صادقا . كانت تقية جداً وفاضلة جداً بحيث لم يكن بإمكان طباعها تلك أن ترضي البلاط . وأقربها آل زاخارين كانوا محدثي نسمة في أعين النساء بالوراثة . وكان القيصر قد احتفظ بضفائه على سيلفستر وأرداتشيف فكان يدعو هذا بالكلب وذاك بالمتناق . ولم يكن من الصعب أن تصل إلى آذانه دمدمات وهو سكران بأنهما لا بد قد استعملوا السحر ليبدوا في عيني جلالته لا غنى عنهما كل هذا الزمن الطويل . »

في أثناء مرض القيصرة كان القيصر قد قاطع سيلفستر الذي قدم بركاته لإيخان وانسحب إلى الصحراء في دير يقع على بعد بضعة مئات من الكيلو مترات من موسكو ولكنه قريب مع ذلك ويساعد على الرجوع السريع فيما لو رضي القيصر عنه . فهل صلى هناك من أجل شفاء أناستاسيا ؟ . إذن لكان ذلك عظيم الفائدة له . فلو أنه كان يقدر النفوذ الذي كان يتمتع به على ضمير القيصر وإرادته لكان من المهم جداً بالنسبة له أن تتماثل القيصرة للشفاء . أما أنه أراد بها الشر فيما مضى وفضل إقالة ولي

(١) مخطوطات 'سينود' Synode رقم ٣٦٤ .

لعهد لمصلحة الأمير فلاديمير أندرييفتش فهدا شيء لم يستطع القيصر قطعاً أن ينساه . وماتت Anastasia . فحلت النكبة بالكاهن ونفي إلى أبعد الأديرة وأكثرها كآبة في ذلك العصر وهو دير شولوفتسك على البحر الأبيض حيث طواه النسيان وابتعد نهائياً عن العالم وانقطع نفوذه في التاريخ حتى أننا لا نعرف كيف مات . ونحن نجد وصفاً لخيبة أمل إيثان العميقة بسيلفستر في إحدى رسائله التي يقول فيها إنه لم يكن لديه الرغبة قط في أن يحاكم هذا الكاهن في هذه الحياة الدنيا بل ستكون المحاكمة هناك حيث تمثل نفسها أمام « الحمل الإلهي » .

وكانت أوهام القيصر أقل من ذلك تجاه « الكلب » أرداتشيف الرجل الذي رفعه من الأسفل ليضعه في الواقع وزيره الأكبر والمدير الرئيسي لروسيا ، وأقيمت دعوى لم يكن أرداتشيف مخولاً بالمشول أمام المحكمة للدفاع عن نفسه فيها . ولم يكن له في المجلس إلا القليل من الأصدقاء . وقد تشفع به المتروبوليت كما فعل من أجل سيلفستر من قبل ولكن شفاعته رفضت . وقدر إيثان أن باستطاعته التخلي عن الحكمة وعن سلطة الكنيسة فأصدر أمره باعتقال الكسبي أرداتشيف في دوريات حيث مات هناك بعد شهرين بالحمى كما يقول البعض أو مقتولاً كما قال آخرون ، أو مسمماً نفسه مقراً بذلك بذنبه لأن ضميره لم يسمح له بمتابعة الحياة . إلا أننا يجب ألا ننسى كم كان على الإنسان أن يكون قوي البنية كي يتمكن من تحمل قسوة السجن في القرن السادس عشر .

ونحن لا نكاد نشك بأن أرداتشيف كان رجلاً ذا شجاعة وحصافة ، فعظمة الملوك لا تتأتى غالباً إلا من مقدرتهم على اختيار الرجال ذوي الكفاءة والشرف ليسندوا إليهم أعمال الإدارة . وعندما هاجم القيصير بشدة مناقب أرداتشيف فإنما كان يهاجم صدق حكمه على الرجال في باكورة شبابه . والنجاح الذي لقيه هذه حتى ذلك الوقت إنما يعود إلى فطنة هذا المستشار أكثر من دعوته إلى أية ظروف أخرى . وخطأ هذا المحظي أنه لم يقف إلى جانب القيصر في عام ١٥٥٣ عندما امتقد أن

إيثان كان على وشك أن يموت وأن من الأفضل مساندة فلاديمير أندرييڤيتش . ولكن هذا الموقف الحكيم أخرجه من دائرة الاعتراف بالجميل والولاء البسيط لأنه كان إهانة فادحة لم يقل أحد إنه طلب عنها الصفح والغفران . وقد انتظر إيثان وراقب واستمر في الإفادة من خدماته ولكن الرباط الشخصي بينهما كان قد انقطع . وفيما عدا ذلك يقال إن أرداتشيف نفسه كان طبيباً وطالما وزع الصدقات من سعة وسخاء ، وكان يحتفظ في منزله بعشرة ممن أصابهم الجذام ويقوم على تغسيلهم بيديه .

بعد أن تخلص القيصر من سيلفستر وأرداتشيف فكر القيصر بأنه يحسن صنعا لو طلب النبلاء إلى قسم ولاء جديد . وكان هؤلاء قد سروا من النكبة التي لحقت بحديث النعمة ولم يصلوا إلى أعماق طباع القيصر ولم يفهموا أنه كان في بدء سلسلة من الأعمال الانتقامية التي كان قد صبر عليها طويلاً حتى الآن . فهو سينتقم من كل أولئك الذين وقفوا ضد القيصرة في ١٥٥٣ ومن خلفاء أولئك الذين أساؤوا إليه وهو في طفولته .

لقد انصب غضب القيصر في بادئ الأمر على خاصة الكسي أرداتشيف فقام فجأة باعتقال أخيه دانيال الذي كان جندياً باسلاً وبطلاً في عدة حملات وأمر بإعدامه على الفور دون أية جريرة أو اتهام وحتى بدون أن ترد كلمة الخيانة على أي لسان فأرادة القيصر ليست بحاجة لأن يكون لها أسباب . وهكذا قتل دانيال أرداتشيف وقتل معه ابنه ذو الإثني عشر عاماً من العمر ولا يعرف أحد كيف قتل . ونحن إنما نلاحظ ما في هذا العمل من وحشية بمقارنته بلطف معشر القيصر خلال سنواته الثلاث عشرة السابقة . فالقيصر الواسع التقى الأخذ بالنصيحة المعتدل في حكمه يرتكب مثل هذه الجريمة العنيفة المشيرة . وكان يعرف أنها جريمة أو بالأحرى « جريمة فظيعة » . وهكذا من أجل أن ينتقم لنفسه من الإله ارتكب هذه الخطيئة الدنيئة وعيناه بصيرتان مفتوحتان لقد كان إيثان أكثر ذكاء من رئيس الكنيسة ماكارى الذي كان يعتقد

بالسحر والسحر الأسود كما كان قادراً - وهذا ما فعله دون شك - على إرسال الكثيرين من السحرة إلى المحرقة . أما في هذه الحقبة فلم يكن إيثان يؤمن كثيراً بالسحرة ويعرف جيداً أن الكسي أرداتشيف لم يمارس عليه نفوذاً آخر غير نفوذ ذكائه وعقله . فعندما كان يلعب الشطرنج معه لم يكن أرداتشيف يستعمل الأحصنة ولا يتخذ أي تدبير لمحاصرة ملكه . وعندما احترقت موسكو حتى أساساتها في عام ١٥٤٧ رفض القيصر قبول نظرية المتروبوليت بأن الحريق كان من عمل السحرة بل رأى في هذه المصيبة عقاباً من الله على الخطايا . ويمكننا الآن أن نفكر بأنه عندما كان يخضع لسيطرة الخمرة كان يسمح بنشر الإشاعة عن بعض الأشخاص بأنهم كانوا سحرة وكان يأمر بقتل بعض الناس تعويضاً عن الضربة التي وجهها الله إليه .

وكانت أبشع خطاياهم الجديدة مقتل ماري مادلين وابنائها الخمسة وكانت ماري مادلين هذه أرملة تخلصت بعد وفاة زوجها عن العالم ودخلت في حالة من الزهد والتقشف عن طواعية وطهارة وقيدت جسدها بسلاسل انتهى بها الأمر إلى أن احترقت اللحم . وبعد سنوات من الصيام والتأمل والصلوات وصلت المرأة العجوز إلى مرتبة القداسة التي أثرت في خيال الجماهير حتى نسبوا لها لقدرة على الشفاء . وكانت بطبيعتها حانية على الفقراء والبؤساء وهذا ما فتن بها الكسي أرداتشيف ، وربما بتأثيرها كان يغسل يديه المجدومين الذين كانوا يقطنون عنده . وكان من المعروف عنها صلاتها الحميمة مع أرداتشيف . وكثرت الأقاويل في أذان القيصر أنه بسبب ممارساتها السحرية اكتسب الكسي القدرة على السيطرة على عقل القيصر فأمر هذا بقتلها وقتل أولادها .

وتلك كانت خطة إيثان أن يقتل الأسرة كلها لا أفراداً منها فحسب . وليس ذلك بسبب من حذر أو خوف من أن يقوم الأبناء الأحياء بالانتقام لموت آبائهم وإنما كان بدافع من وحشية محضة . وعندما يقضي على الأسرة كان يصادر ممتلكاتها .

وهكذا فإن القيصر الشهير « ذا البلاط الذهبي » الذي كان قد لقيه الرحالة الغربيون قد تحول الآن إلى كائن غريب مثير للسخرية يحمل تاجه مائلا قليلا على رأسه ويترنح في القصر بعد العشاء برفقة خظيات جديديات من نوع جديد . ولم يعد ثمة من أرداتشيف مستقل أريب ولا سيلفستر كفي ليرفع يده باسم الملك سيد الجميع ، ففرائز القيصر الجديدة هي التي كانت تتحدث إليه في أذنيه عن النساء المرغوبات وعن زواج جديد . وأعلن إيفان أنه يريد الزواج من إحدى اخوات عدوه ملك بولونيا ثم أصبحت هذه النزوة التي صدرت عن رجل ثمل فكرة ثابتة . وقد بدا له في غرووره أنه ليس عليه إلا أن يطلب من سيجموند أوغست أجمل اخواته حتى يحصل عليها على الفور . وهكذا طلب من سفرائه أن يتفحصوا هؤلاء الفتيات ويروا من هي التي ينبغي من بينهن إرسالها إليه . كانتا اختين آنا وكاترين وكان على السفراء أن يختاروا من بينهما أكثرهما امتلاء . وإذا كانت إحدهما قد تجاوزت الخامسة والعشرين فهذا سبب كاف لغض النظر عنها . كان ينبغي ألا تكون يابسة العود وإنما سليمة وبدون عاهة أو عيب .

وكان القيصر يعيش بين مخالب حياة داعرة دمرت حياته الدينية نفسها . فقد نسي الصيام أو أهمله ولم يعد يذكر إلا قسوة ماضيه وتجربته مع النبلاء في صفه فأخذ يعامل حتى الاتقياء الحقيقيين من البويار على أنهم منافقون وبدا أنه أغفل في تصرفه هذا شرف روسيا . وفي إحدى الليالي تسبب بعض مدعويه الدين كانوا يحملون اقنعة على وجوههم بقيام ضجة في القصر . وكان القيصر الشمل نفسه يحمل قناعا أيضا وحاول أن يضع قناعا على وجه الأمير رنين فرفض هذا مبادرته وانتزع القناع من يد القيصر ورماه على الأرض وداسه بقدميه . « يستطيع الملك أن يجعل من نفسه مهرجا أما أنا البويار النبيل وعضو المجلس فلا أريد أن أكون الأحمق الغبي » ، هكذا قال الأمير . وغضب إيفان غضبا شديدا وطرده من القصر . وبعد بضعة أيام أرسل من اغتاله . ويروي كوريسكي إنه قتل بينما كان راكعا في الكنيسة ، ولكن كوزيسكي

كان دائما يروي الأحداث في أسوأ ظروفها لأن القيصر قال في إحدى رسائله أن رنين لم يمت في الكنيسة ولكنه قتل على كل حال لأنه أبدى ملاحظة للقيصر .

ونحن نستطيع أن نضيف عدرا هو أن القيصر كان ينوي يومذاك إسلام نفسه لتوبة جديدة تكون نهائية ويتنازل عن العرش ويقص شعره على حياة الرهبان ويقضي بقية أيامه في دير القديس سيريل القاسي في بيلو أوزيرو حيث كان قد عاقب العديد من رعاياه ، وكان يسوغ حالات سكره بقوله : « لقد قتلوا أناستاسيا » أو يكتب إلى كوربسكي : « لو أنهم لم يفصلوني عن جيبتي لما صار هذا العدد الكبير من الضحايا » . وإنه لمن السائغ أن نتأمل أنه على الرغم من هذا التغير الكبير الذي كان يعانيه فإنه لم يكن يتنكر لأيام السعادة التي عاشها مع أناستاسيا . وعلى الرغم من أنه كان يسعى لزواج جديد في أسرع وقت فإن ذكرى القيصرية الفريدة كانت لا تزال مقدسة في قلبه ، وعلى الرغم من إهماله لبعض الصلوات فإنه لم ينس قط أن يصلي من أجل أناستاسيا وأن يقوم باسمها بالعظيم من الصدقات . ولكن سفراءه كانوا قد مضوا للتجسس على أحوال الاختين البولونيتين ولم يخطر على بال إيشان قط أن أحلامه كانت مستحيلة التحقيق .

كان سيجسموند يكرهه ويعارض مخططاته منذ أن اتخذ لنفسه لقب القيصر . وكان في تلك اللحظة في حرب مع روسيا بعد أن أعلن نفسه حاميا لليفونيا وطائب الروس بإخلاء أراضيها . ولم يكن جيشه قد التقى بعد بجيش القيصر ولكن تصادما وشيكاً كان مقدراً له أن يحدث في أي وقت على الحدود الليتوانية .

ومن البديهي أن يصاب سيجسموند بالدهشة ولكنه لم يقل فورا إن هذا الزواج غير معقول لأن البولونيين لا يقولون « لا » أبدا بشكل صريح . وقدم موفدون من موسكو إلى فرصوفيا ليروا اختي الملك ويقوموا فاختاروا كاترين التي كان لها المهر الأكبر على كل حال . وأبدى

سيجسموند أوغست ملاحظة هي انه لا يعارض الزواج من حيث المبدأ وإن كان يفضل أن تكون المرشحة له هي أنا وعلى شرط أن ينال موافقة الإمبراطور وضمناً على أن اخته ستبقى على مذهب الكنيسة الكاثوليكية الرومانية ، وهكذا أعطى موافقته أو بدا للناس أنه أعطاها بينما لم تكن له في الواقع النية إلى ذلك . كان على العكس يريد أن تكون كاترين والسلاطمة بعيدين عن متناول إيفان . وتم إرسال المارشال زيمكوفيتش إلى موسكو يحمل شروط الملك في الزواج . فالقيصر ينبغي له أن يتخلى لتاج بولونيا وليتوانيا عن مدن نوفغورود وبسكوف وسمولنسك وكذلك عن الأراضي المتاخمة لليقونيا . وقد وصل سيمكوفيتش إلى موسكو في السادس من شباط فبراير عام ١٥٦١ محملاً بعروض كثيرة كل منها أكثر ازعاجاً من الأخرى . وكان يروى بين الناس أن سيجسموند أرسل له بدلاً من امرأة « حصاناً أبيض » . ولكن بما أن سيمكوفيتش قد مكث اثني عشر يوماً في موسكو فربما لم تكن مهمته مذمومة إلى هذا الحد . ومع ذلك فإن الشروط التي قدمها كانت مطبوعة بشيء من الاحتقار الذي لم يتسامح معه إيفان . وهكذا تخلى عن فكرة ارتباط زواجي مع بولندا وقرر الانتقام منها في ميادين القتال .

ولكن القيصر بدا متيماً . فهو على الرغم من أنه لم يشاهد كاترين فقد كان وطم نفسه على الزواج منها ولم تكن إرادته تحتل المعارضة . ويقال إنه كتب إلى سيجسموند ينبئه بأنه حفر حفرة ليظهر فيها رأس ملك بولونيا عندما سيقطعه له . وسواء كان ذلك صحيحاً أم لا فإننا نستطيع أن نتخيل رغبته باهراق الدم يغسل به مهنته . أما البلاط فقد حل الأمر بحمل الاستخفاف تماماً كما كانوا يقولون: « أناستاسيا كانت عذبة ولكن كان يوجد غيرها » ، والآن كانت كاترين أبعد من أن تكون وحيدة عصرها فالبولونيات كن زوجات صالحات ، وفي إمبراطوريته نفسها كان يوجد من هو أفضل منها ويعدن بمباهج أكبر في الزواج . وكان الأمراء الشراكسة يدعون بأن نساءهم كن الأجمل في العالم وامتدحوا القيصر مفاتن ابنة أحد الأغنياء من الشراكسة وأحضروا هذه الفتاة المسلمة إلى

البلاط فرفعت نقابها لترى كيف يحكم إيفان على جمالها . كلا لم يكن
الامراء الشراكسة مبالغين . كانت ابنة تيمغريوك جميلة . ولكي يخفف
القيصر عن ضميره ويقدم الراحة لجسده قرر الزواج منها . ولكن لم يكن
ذلك بدون شعور منه بالخطيئة ان ترك نفسه يسعى لهذا الالتحام الجنسي
الدنس . كانت لحظات توبته شديدة . وعلى الرغم من قراره المرضي
بالتخلي عن العرش وان يجعل من نفسه راهبا كان يشعر بعائق كبير يقف
دون هذا التقشف هو تخليه عن الجنس . ولا بد ان المتروبوليت كان
منذ موت اناستاسيا ومن اجل هذا السبب يطالبه دائما بأن يتزوج من
جديد . ولولا الكنيسة وشعوره بأنه يرتكب خطيئة لكان قد فضل اتخاذ
هذه الفتاة الشركسية خلية له . ومن اجل إعدادها للزواج تم تعميدها
ولكنها لم تكن تحمل في حياتها الزوجية ظلا من شعور مسيحي لتكون
قادرة على ان تكون اما جديدة لاطفال إيفان . كانت جاهلة اسيوية ابنة
قبيلة تجهل روسيا جهلا تاما ، والغريزة والتربية لدى النساء في القبائل
الاخذة بتعدد الزوجات تجعلان هؤلاء النساء قادرات على الارضاء في
فراش الزوجية ، وكانت ابنة تيمغريوك بدائية شهوانية ، وتروي
الأسطورة التي ربما كانت تسعى للاضرار بها انها بعد زواجها كانت ذات
اخلاق متساهلة . وقد اعطوها اسم ماري عند التعميد واحتفل بزواجها
في ٢١ آب اغسطس عام ١٨٦١ قبل اربعة ايام من بلوغ إيفان الحادية
والثلاثين من العمر .



الفصل العشرون

القيصر يصبح أكثر نزوعاً للحرب

في خلال الصيف من عام ١٥٦٠ قام جيش كبير مؤلف من ستين ألف رجل بين فرسان ومشاة ومعهم أربعون من آلات الحصار وخمسون مدفعا من اصفر عيار بحملة احتلت مدينة فيلتن الحصينة وأخذت السيد الكبير السابق فورستاتنبرغ أسيراً وأرسلته الى إيثان. وقد عامله القيصر بلين ورفق كان يحتفظ بهما دائما للملوك المهزومين وأعطاه إقطاعا في كوستروما حيث قضى بقية أيامه بسلام .

وفي عام ١٥٦١ عندما تم هجر مشروع الزواج بين إيثان وكاترين أرسل سيجسموند أوغست جيوشا دون ان يكون واثقا من نجاحها للدفاع عن ليفونيا . وبما ان الفرسان التيوتون كانوا دائما يتعرضون للمصائب فقد كانوا على حق في افتراض ان نيته انما كانت الاستيلاء على جزء من ارض دولة كانت تحتضر . فالسويد كانت قد دخلت ريثال بناء على اتفاق ، والسيد الكبير كتلر تخلى علنا عن السلطة وكان اقتسام ليفونيا بين جاراتها على وشك ان يتم . وفي الثامن والعشرين من تشرين الثاني نوفمبر ١٥٦١ أعلن سيجسموند أوغست نفسه ملكا على ليفونيا ورخي كتلر بان يكون تابعا له . ولكي يرد ردا حاسما على طلب القيصر يد كاترين قام سيجسموند أوغست فعقد معاهدة زواج مع السويد بخطوبة اخته كاترين من جان دوق فنلندا والوريث لعرش السويد وحدث الزواج في عام ١٥٥٢ . وكانت بولونيا منذ قرون عديدة تتمنى ان تصبح دولة بحرية وبدا ان هذه الوحدة العائلية قد آمنت لها منفذا على بحر

البلطيق . ولكن من أجل دعم مثل هذه الادعاءات كان لا بد من ضمانات من قوة مادية . ولم ينتظر إيثان أكثر من ذلك إذ كتب إلى قواد جيشه أنه في حالة حرب مع ليتوانيا لأن الحرب جرت في الواقع ضد ليتوانيا لا ضد بولونيا أي ضد غرانديوك ليتوانيا لا ضد ملك بولونيا رغم أنهما كانا شخصا واحدا .

وكان إيثان قد عقد العزم على أن ينتقم لنفسه من الإهانة التي وجهها له سيجسموند أوغست برفضه طلبه الزواج من أخته . ولم يكن لغزو الجيوش الليتوانية لليفونيا واستيلائها على أراض منها باسم سيد جديد من الأهمية في نظر إيثان ما كان للإهانة الشخصية التي وجهت إليه . فحشد أحد أكبر الجيوش التي خشدتها للمعركة في حياته حتى ليقدّر عدده بمائتين وثمانين ألفا من الرجال ، وربما كان هذا الرقم مبالغا به بأن أضيف إليه العدد الكبير ممن تبعه من خلائق .

وكان إيثان قد خسر بعض أفاضل قادته من أمثال دانيال أردادشيف المتوفى والأمير ميشيل فوروتنسكي الذي نفى مع عائلته إلى بيلو أوزيرو والأمير ديمتري كورلياتيف الذي قتل مع أفراد عائلته ، وقد اختفى هؤلاء جميعهم بسبب صداقتهم لالكسي أردادشيف . وكانت تلك خسارة كبيرة للجيش . وإذا استثنينا ابن عمه فلاديمير أندرييفتش الذي بقي سالم الرأس حتى الآن فإن حياة أركان الحرب كانت مؤلفة من الأسويين بوجه الخصوص . وكما لو أن نفوذ زوجته الجديدة كان هو السبب فإن إيثان كان محاطا بعدد من التتر والشراكسة المتحمسين سواء اعتنقوا المسيحية أو لم يعتنقوها من أمثال الشيخ علي وكيبولا وإيباك وتوختميش وبيكبولات ، ولكن بقي عليه طلب المساعدة والنصيحة من الأميرين إيثان موتيسلافسكي وبطرس شويسكي اللذين كانا يقودان الجيش في ليفونيا خلال عدة سنوات . ولم يكن إيثان شيرميتيف قد وضع بعد في السجن ، ولم يكن كوربسكي قد لاذ بعد بالفرار ، ولذلك خدما كلاهما في الجيش الكبير الذي أعده إيثان .

بمثل هذا الجيش الهائل الذي لا يعد ولا يحصى والذي يتألف نصفه من الشرقيين مشى إيفان الى ليتوانيا وكأنه أحد الخانات الكبار . ولم يكن سيحسموند يتخيل أن بإمكان إيفان أن يحشد هذا العدد الكبير من الجنود والواقع أنه لم يصدق ذلك . فأصدر امره لقريبه رادزيويل بأن يتقدم مع أربعين الفا من الرجال حشدوا في منسك ، ولكن رادزيويل أصابه الخوف عندما أصبح وجها لوجه أمام هذه (القبيلة) الروسية الزاحفة . وفر الليتوانيون وقد أخذ منهم الدعر والقزع كل مأخذ افواجاً افواجاً أمام القيصر الذي بلغ في الحادي والثلاثين من كانون الثاني يناير ١٥٦٣ أسوار مدينة بولوتسك التجارية الكبيرة ، وفي السابع من شباط فبراير كانت قد سقطت دفاعاتها الخارجية بعد الهجوم عليها ، وفي الخامس عشر سقطت المدينة كلها وأضاف إيفان الى اسمه لقباً جديداً هو غراندوق ليتوانيا .

ولم يكن الليتوانيون قد دافعوا عن مدينتهم الا قليلا . لذلك لم يكن غضب الروس من الشدة بحيث يعملون السيف في رؤوسهم بل اكتفوا بنهب المدينة كما فعلوا من قبل في قازان . وكانت الغنائم كبيرة إذ استولى القيصر على الخزينة وعلى كل ما كان يملكه الاغنياء من المواطنين . واتخذت كميات كبيرة من الذهب والفضة طريقها الى موسكو . وكان من سكان المدينة عدد كبير من اليهود الذين سببوا للمفجرين من الصعوبات اكثر مما سببه تجار التتر عند فتح قازان . وقد قام القيصر بتعميدهم بالقوة ومن قاوم منهم اغرق في النهر . ومحيت الكنائس اللاتينية من الجذور ثم كرست من جديد ووضعت فيها مخلفات ارثوذكسية . وقام التتر بقتل أعداد من الرهبان العائدين للكنيسة الكاثوليكية الرومانية .

وارسل القيصر ابن حميه ميشيل بيمغريوك الذي اعتنق المسيحية بدون شك في الوقت نفسه الذي عمدت فيه أخته، الأرسلة القيصر برسالة شخصية الى القيصرة ينبئها فيها بالنصر الجديد وارسل معه الى المتروبوليت صليبا مرصعاً بالالماس . كان إيفان راضياً عن نفسه . فما فعله في قازان عام ١٥٥٢ اعاده بعد أحد عشر عاماً في بولوتسك . ولا

ينبغي ان ننسى انه اصبح الآن اقل اهتماما بالصلاة ، فبتأثير من زوجته المسلمة كان يحارب اكثر ويصلي اقل . ومع ذلك كان عليه ان يقاتل في سبيل الله حتى عندما كان خصومه من ابناء دينه المسيحيين ومن هنا اتت بدون شك هجماته على اليهود . ولكن كان من الصعب عليه ان يخفي ما كانت تحمله هذه الحرب من كفر وزندقة لانها كانت حرب عدوان . حرب انتقام شخصي يكمن فيها الغيظ والكيد . كانت بولوتسك مدينة حصينة جداً وفتحها كان يؤمن للقيصر امتلاك ليتوانيا كلها لذلك كان سعيدا لانه اظهر لسيجسموند اوغست انه اكبر وا أقوى سطوة منه . ومع ذلك كان بإمكان ملك بولونيا ان يحصل على الصلح بشرط ان يتخلى عن كل ليفونيا ويسلم كاترين . « ولكن متزوجة من دوق فنلندا ! » ، « وماذا يهمنا في ذلك ؟ » فالقيصر سيحتفظ بها رهينة ويولي شخصها اعظم احترام .

وعندما رأى الجيش الذي احتل بولوتسك ضعف ما واجهه من مقاومة قام بجتاح البلاد مهددا مدن فيلنا وموتيسلاف ومدمرا المزارع والقرى وجامعا كمية كبيرة من الغنائم . وعلى الرغم من ان سيجسموند اوغست كان من خير الملوك الذين حكموا بولونيا كما تدل على ذلك سمعته لا انه لم يكن ملكا محاربا . ولم يكن على رأس جيش يمكنه تصفية حساباته الشخصية مع القيصر المتعجرف . وقد سمع انهم اتوا معهم الى بولوتسك بتابوت فاخر صنعوه في موسكو ليكون مسكنا له اذا وافق هواه ، فقرر الابتعاد ما أمكنه عن هذا التابوت . كان خائفا جدا . لذلك أرسل برسالة الى خان القرم ينصحه فيها بالافادة من الفرصة وقيادة التتر الى موسكو التي غدت بدون دفاع ، وهو عرض عجيب من ملك مسيحي يقدم الى وثني(*) وقد وعده الخان ، ولكن كان من الصعب عليه ان يقود فرسانه القساة عبر المروج المغطاه بالثلوج

(*) لم يكن خان القرم وثنيا بل كان مسلما ولكن المؤرخ يستعمل مصاهيم ذلك العصر .

وهكذا لم يتحرك . ومن حسن حظ سيجسموند وليتوانيا أن ايثان كان قلقا وقد تلاشت حماسه للقتال واكتفى بالاستيلاء على بولوتسك . وبدلاً من أن يفيد من الفرصة ليضم إليه أكبر جزء من ليتوانيا اتخذ قراره بالعودة الى حياة النعيم والمباهج والاحتفالات التي تنتظره في موسكو . وقد أمر بأن يعاد النظر في سكان بولوتسك فيطرد منها الاناس الخطرون وتنزع الاسلحة من الباقين ، وبنى فيها تحصينات حديثة بأسرع ما يستطيع وترك حامية تحت قيادة بطرس شويسكي وفاسيلي وبطرس سيربراني . وأخيراً عقد هدنة مع سيجسموند أوغست يناقشان أثناءها شروط الصلح . وكان ذلك تخفيفاً كبيراً عن كاهل ملك بولوانيا الذي وعد بارسال مفوضين مطلقي الصلاحية الى موسكو لهذه الغاية دون أن يكف مع ذلك عن تحريض التتر بالمسير اليها . واتخذ القيصر طريق العودة الى عاصمته ليتلقى التهليل والتحيات من شعبه ويحصل على بركات الكنيسة المعتادة ثم اسلم نفسه للشرب ليصبح أكثر جنونا واشد قسوة .



الفصل الحادي والعشرون

عودة إلى عنف أشد

كشفت سلوك القيصر غير المنطقي عن نوع من المرض العقلي بل ربما عن إصابة زهرية في المخ ، وكان من الصعب التنبؤ عن مكان ضربته القادمة . وكنا قد أشرنا من قبل الى أنه كان قد صمم على الانتقام من الزمرة التي رفضت في عام ١٥٥٣ أداء قسم الولاء الى ولي العهد ديميتري الذي أصبح اليوم في عداد الأموات . ولكن ما فعله في الواقع بعد موت أناستاسيا لم يكن يدخل في عداد هذا المنطق . فقد رافقه في حربه في ليتوانيا ابن عمه فلاديمير اندرييفتش الذي كان يكن له أعظم تقدير . وبعد أن أحرز النصر أرسل برسالة خاصة الى والدته الأميرة وهي الأميرة الطموحة أفروسين التي كانت تعيش في أراضيها في ستاريتسا ، ولا بد أن هذه الأميرة فهمت عند ذلك بأن بإمكانها أن تعود الى الحظوة عندما سمح لولدها مع حاشية كبيرة بالقدوم اليها للاحتفال بعودة الجيوش الظافرة . ولكن ما أن مضت بضعة أيام على ذلك حتى أجبرها القيصر على أن تصبح راهبة ونفاها الى بيلوزيرسك ثم أغرقها في البحيرة .

وفي موسكو استقبل الشعب إيفان استقبال الظافرين إذ أراد أن يحيي ذلك الاستقبال المسرحي الذي حظي به لدى عودته من فتح قازان . وكانت القيصرة الشركسية من أجل أن تقلد أناستاسيا قد ولدت في غيابه ابناً له . ولكن هذه العودة لم يكن لها بهاء عودته من

قازان لأن الاستيلاء على بولوتسك لم يكن نصراً للمسيحية ، ومع ذلك فقد كان الحادث مناسبة لإقامة عدد من ولائم القصف والتسليّة .

على أن اشد ما ارتكبه إيثان من أعمال القسوة غير المعقولة كان اعتقاله للأمير إيثان شيريميتيف أحد أبطال الحرب وصديق القيصر الذي وقف الى جانبه عام ١٥٥٣ والرجل التقى ذي الحياة الفاضلة . وقد ألقي به في زنزانة نتنة وأخضع للتعذيب بالرغم من أن أية تهمة محددة لم توجه اليه . ثم نفى بعد ذلك الى كيريلوف وصدر أمر بمصادرة أملاكه ولكنهم لم يجدوا شيئاً لأنه كان قد أعطى كل شيء للفقراء . ويدخل القيصر الوقح العديم الشعور زنزانة شيريميتيف المقيّد بالسلاسل ، فهل فعل ذلك من أجل أن يرى الأمير أنه لا شيء وأنه هو القيصر كل شيء ؟ . كل ما نعرفه عما دار بينهما من حديث يتلخص بالسؤال التالي : « أين خبأت أموالك ؟ » .

عام ١٥٦٣ كان عام وفيات . ففي اواخر نيسان ابريل توفي فاسيلي آخر أبنائه بعد خمسة أسابيع من ولادته . وفي السنة نفسها توفي المتروبوليت ماكارى فانكسرت بذلك حلقة أخرى من الحلقات التي كانت تربط إيثان بالماضي . وكان ماكارى قد سعى منذ بعض الوقت لأن يتبعد عن البلاط حيث رأى أن الأمور صارت تسير في مسار سيء . وكان يفهم أنه أصبح عجوزاً جداً بحيث لم يعد يستطيع أن يوجه التأييد الى القيصر على خطاياه . كان ينبغي وجود متروبوليت أكثر شباباً ونشاطاً للوقوف في وجه مفاسد القيصر . وأراد الشيخ العجوز الانسحاب الى الصحراء ليعيش فيها سنواته الأخيرة في تقشف وزهد لولا أنه كان ينصح دائماً بالانتظار حتى وافته المنية أخيراً وجعلته ينسحب من المسرح الذي لعب فيه دوراً ذا شأن . ولا شك في أن المتروبوليت في أثناء حياته لم يكن الرجل الذي يقدم النصيحة الحكيمة ولم يمارس على إيثان نفوذاً سليماً جداً وملائماً ، وإنما كان قد أصبح منذ زمن طويل شيخاً وعاجزاً إلا عن الصلاة .

وفي تلك السنة ذاتها وقع يوري أخو القيصر الصغير مريضاً ثم غادر الحياة وأقيمت له في الكرملين جنازة حافلة بدا فيها إيثان شديد التأثير . كان يوري عطوفاً محباً ولم يقف قط في وجه أخيه لأنه لم يكن طموحاً ولا ذكياً ، كما كان موالياً وصديقاً ممتازاً للقيصرة أناستاسيا . أما زوجته أوليانا فكانت امرأة صالحة جداً وتكاد تشبه أناستاسيا في سلوكها وتصرفاتها . وبعد وفاة زوجها دخلت الدير عن رغبة منها وطواعية ، ولكن القيصر فرش لها مقصورتها فرشاً باذخاً كما لو أنه لم يشأ أن تضحي بطيبات هذا العالم . ووجب على أخت الإحسان المتواضعة أن يكون لها بلاط وحاشية حتى ولو كانت تسكن مقصورة في دير . إلا أن أوليانا كان لها عناد المتدينة الناعمة فاعترضت على محبة القيصر المفردة فكان أن اغتاظ وغضب غضباً شديداً وأمر بقتلها .

ثم وجهت التهمة للأمير فلاديمير أندرييفتش بعدم الولاء . وقد استخدموا لذلك كلمة نيبراڤدا Nepravda التي يمكن ترجمتها بالنفاق أو عدم الصدق ، وشمل الاتهام أمه أفروسين أيضاً . ولكن القيصر سامحه بفضل تدخل عدد كبير من الأشخاص على أن ينسحب الأمير إلى ممتلكاته في ستاريتسا وأن يبدل حاشيته بحيث يستطيع إيثان أن يتلقى معلومات جديدة بالثقة عن أعماله ونواياه . وهكذا يكون القيصر قد قام بعمل متناقض وغريب بأن يظهر له محبته وعطفه في الوقت الذي يضعه فيه تحت المراقبة ثم يذهب بين الحين والآخر إلى ستاريتسا مدعواً إلى ولائمه .

وكان إيثان في تلك الفترة يتسلح دائماً بعصا طويلة من الخشب تنتهي بسن من الفولاذ . كانت عصا ضخمة طولها مائة وعشرون سنتمراً ذات حربة ثقيلة ومقبض حسن النقش ، وقد اعتاد القيصر أن يضرب الناس بهذه الحربة فيؤدي بهم الحال أحياناً إلى الموت . ولم يكن أحد يدري مسبقاً ما إذا كان القيصر غاضباً أو حسن المزاج . وقد بدأ بأن يكون ذا نزوات إجرامية ، وبدأ الخوف الأكبر منه في عام ١٥٦٣ وهو التاريخ الذي بدؤوا يطلقون عليه فيه لقب الرهيب « Le Terrible » . ولم يؤد

زواجه ولا انتصاره في ميدان المعركة الى التلطف من طبعه . وما ان بدأ به الأمر بموت أناستاسيا حتى كان بديهياً أن يستمر فيه وأن تتفاقم حالته الى الأسوأ بمرور الوقت . وتجنب الناس الدخول في خدمته . ولوث القضية المسيحية فكانت النتيجة ان عاد الصليبي فيشينفتسكي الى وطنه وقدم خضوعه لسيجسموند أوغست . وكان ملك بولونيا مستعداً للتسامح مع هذا الصليبي على شرط ان يخدم في الجيش الليتواني ويقاتل الروس رفاقه السابقين في السلاح . ولكن الرجل الشريف لم يقبل فأسلمه ملك بولونيا الذي لم يكن ذا ذمة ولا عهد الى السلطان التركي الذي دبر له مينة قاسية .

وهرب الأميران الشركسيان الكسي وغبريال الى بلاد الأعداء ، كما ان من المؤكد ان عدداً كبيراً من الروس تركوا في ذلك الوقت روسيا ووضعوا أنفسهم في خدمة بولونيا ، وكان الأشهر من بينهم هو الأمير اندري كوربسكي الذي كان فيما مضى صديقاً حميماً للقيصر في زمن الصبا . وقد لجأ الى فولمار ودخل في الجيش البولوني . وفي إحدى المرات كتب الى إيفان من مكان أمين . ويروى ان القيصر عندما تلقى الرسالة القى بثقله على العصا الحديدية التي وضعها فوق قدم الرسول الواقف امامه حتى خرقها ، ثم امر الرسول بفتح الرسالة فجاء فيها ما يلي :

« الى صاحب جلالة كانت فيما مضى صافية وقد جعلها الله مشهورة بفضلها ولكنها الآن اظلمت بالخطايا والكراهية الشيطانية التي تحرق قلبها وتميت فيها الضمير . أيها الطاغية الاوحد بين اكثر الاسياد ضلالاً في العالم اسمع هذه الكلمات ! في زحمة الألم الذي يخنقني لا أستطيع ان اكتب إلا القليل من الكلمات ولكنها ستكون الحقيقة . لماذا تفرق في ليأس رجال الله الاقوياء وزعماء الحرب الأشداء الذين أرسلهم لك العلي الأعلى سافكاً دمهم المقدس هم الذين حملوا النصر الى كنائس الله ؟ . اليسوا متحرقين حمية لقيصرهم ووطنهم ؟ . بإشاعات ملفقة وجدت ان

البويار كانوا خونة والمسيحيين سحرة والضياء ظلمة واللفظ مرارة .
اليس بهؤلاء الرجال كنت قد كسرت نير التتر ؟. اليسوا هم الذين
استولوا على حصون الألمان على شرف اسمك ؟. ثم كانت مكافأتنا الموت
فهل تعتقد نفسك خالداً ؟. اليس هناك إله ومحكمة عدالة ينصبها العلي
الأعلى لمحاكمة القيصر ؟. في اضطراب قلبي لا أستطيع ان اذكر كل
ما سببته لي من ألم . لن اقول إلا شيئاً واحداً هو أنك حرمتني من
روسياتي المقدسة ، والجراح التي تلقيتها في خدمتك أفوض امرها الى
الله فهو يقرأ ما في قلبي . لقد تفحصت ضميري ووزنت اعمالتي وتقصيت
خفي افكاري فلم اجد البرهان على أنني تجنيت عليك . لقد قدت كتابتك
ولم ادر ظهري قط للعدو وكان مجدي مجدك . ولم أقض في خدمتك
سنة او سنتين وإنما عدداً كبيراً من السنوات وفي العديد من المشاريع
القاسية الجريئة دون ان ارى أمة ، محروماً من زوجتي وبعيداً عن
بلدي العزيز . أحصر جروحي وأحصر معاركي ترني لا أبالغ ولا أتباهى
فالله يعرف كل شيء ، فإليه أتضرع على أمل ان يشفع لي القديسون
وجدي الأمير فيدوريار وسلافسكي .

لقد انفصلنا عنك الى الأبد ولن ترى وجهي بعد اليوم إلا يوم
الدينونة الرهيب ، ولكن دموع الأبرياء تعدّ لقتل جلادها . فاخش
الأموات ، أولئك الذين قتلتهم . ذلك لأنهم سيحيطون بعرش العلي
الأعلى سائلين الانتقام . لن ينقذك جيشك . وكلمات المتملقين لن تجعلك
خالداً عصياً على الموت . ونبلاؤك التافهون ، أولئك الذين هم الساعة
رفاق تخنثك ومفاسدك يقودون إليك أبناءهم لإرضاء شهواتك الداعرة ،
أولئك البويار لن ينقذك .

فلتدفن معك هذه الرسالة التي بللتها بدموعي لكي تظهر معك أمام
محكمة الله . آمين . كتبت في قولمار من أملاك الملك سيجسموند سيدي
الذي أمل بفضل الله ان احصل منه على العفو والعزاء في تعاستي
وشقائي .

بعد ان سمع القيصر ما جاء في هذه الرسالة امر بكل برود ان يقاد حاملها للعداب كي يحصلوا منه على معلومات اخرى . ولكن الخادم كان رابط الجأش فهذا غضب القيصر حتى أنه وجد الرسالة ممتعة . فهي كما لو ان كوربسكي قام بهجوم خاطف غير منتظر في لعبة شطرنج . وقبل ان يرد إيثان عليها اخذ وقته في التفكير . كان نوعية اخرى اعمق من طراز كوربسكي . ورغم كل شيء فإن كوربسكي كتب للقيصر وعن القيصر . ولم يكن يعرف اسباب تصرفاته فإن علم النفس يقبع دائماً وراء التاريخ . ولقد غدت كتاباته قطعاً مقدسة في المتاحف ومصادر ثمينة جداً لدراسة عهد إيثان . ومع ذلك فإننا إذا اتبعناها بعماء فإن التاريخ يمكن ان يخدع . وقد اجاب إيثان :

« ايها الشقي ، لماذا تهلك نفسك بالخيانة ؟ لماذا تنقذ جسدك الفاني بالفرار ؟ إذا كنت صادقاً وفاضلاً فلماذا اردت ان تتجنب الموت الذي يمكن ليدي ان تقدمه لك وترفض تاج الشهداء ؟ خيلاء وخديعة للعقل ان ياتي الموت بسلام للنفوس . خذ مثلاً على ذلك رسواك . فهو تحت التعذيب وحتى على ابواب الموت لم يشأ ان يخون سيده . فاحجل من ان ترى نفسك هارباً من غضبي ومحمللاً نفسك ونفوس اجدادك جريمة الخيانة . ذلك لانهم اقسموا يمين الولاء لجدي ليس من اجلهم وحدهم وإنما من اجل ذريتهم ايضاً » .

كان جواب إيثان طويلاً لانه راجع فيه مهنة الامير كوربسكي العسكرية وأبدي له بالتفصيل أنه لم يكن مكلاً بالمجد كما تهيأ له . فقد كان الامير كوربسكي يحضر وليمة بينما كان الخان يلوذ بالفرار وتركه يمضي دون ان يلحق به أية خسارة . وبعد ذلك لم يتمكن مع خمسة عشر ألفاً من عساكره ان يقهر أربعة آلاف فقط من الليتوانيين . ولم يشهد الاستيلاء على استراخان : « لم تنعم قط برؤية المدينة ... وعندما أسلم الله قازان إلينا ماذا كنت تفعل ؟ . قمت بالنهب ... في بسكوف ، وتظاهرت بالمرض ... فلولا عصيانك هذا وعصيان الكسي ارداتشيف

لكننا الآن اسياد ليقونيا كلها . . . وادعيت أنك اهرقت دمك ؟ . حسناً .
لقد اهرقنا نحن عرقنا ودموعنا بسبب تمردك وعصيانك . » .

أما القسوة فقد انكرها القيصر تماماً . فلم يطلب أحد قط كشف
حساب من ملوك روسيا عما إذا كانوا قد سامحوا أو قتلوا رعاياهم .

« هذا ما كان وهذا ما سيكون . وأنا لم أعد طفلاً . وملكاتي
الفكرية كافية بفضل الله وفضل السيدة العذراء الطاهرة والقديسين
الشفعاء . وأنا لا أطلب النصائح من الرجال فبفضل الله ستكون روسيا
مزدهرة ونبلائي يعيشون في سلم وصداقة . أما أصدقائك فهم وحدهم
من يتآمرون ويجنحون للشر . أنت تهددني بمحكمة المسيح ، ولكن
الا تظهر قدرة الله هنا على الأرض ؟ . إنها لهرطقة مانوية (*) . انظن ان
الله لا يوجد إلا في السماء وأن الشيطان لا يوجد إلا في الجحيم ؟ . كلا ،
كلا ، إن سلطان الله في كل مكان في هذه الحياة الدنيا كما في الحياة الآخرة .
وأنت تريد أن تحيط ضحاياي بعرش الله . . . وتلك هرطقة أخرى .
فإذا تبعنا قول الحوارى « فإن أحداً لم ير الله » . وأنت تطلب منى ان
أدفن رسالتك مع جثمانى ، وأنا أجيبك : هل انطفأ فيك آخر قبس من
المسيحية ؟ . ذلك لأن المسيحى ينبغى أن يموت على محبة وإحسان
مع فريبه لا على ضغينة وسخيمة .

وأخيراً : وبدافع من خيانة عظمى ، أنت تسمى مدينة قولمار منطقة
نفوذ الملك سيجسموند متطلعا الى نوال نعمائه ومتخلياً عن ملكك الذى
اعطاه الله إليك . لقد اخترت مليكاً أفضل ! . إن ملكك هو عبد العبيد ،
أفهل من العجيب أن يكيل له المذائع عبد ؟ . لقد انتهيت . فقد قال
لنا سليمان الا نبدد كلامنا على الحمقى ولا شك فى أنك واحد منهم ! » .

— المترجم —

(*) نسبة لمانى منشئ الديانة المانوية فى فارس .

أما كوربسكي فقد غدا مستشار سيجسموند أوغست وكوفىء على ذلك بمنحه إقطاعاً في كوفيل في بولونيا . وأما أنه كان خائناً لبلاده حتى ولو كان يحكمها طاغية فتصرف من الصعب الدفاع عنه . ولا بد لنا من افتراض أن كوربسكي كان يأمل في اختفاء القيصر عما قريب بواسطة يد منتقمة مما يعطيه الفرصة للعودة الى روسيا . ولكنه بمساعدته التتر على غزو روسيا وتسهيله لهم الوسائل لم يبد خائناً لمليكه فقط وإنما للكنيسة وتقاليده دينه أيضاً . وأخيراً مشى الخان وألقى الحصار على ريازان ولكن المدينة كانت منيعة جداً فانسحب وقد لحقت به الهزيمة والخذلان . وانضم كوربسكي وبقية الفارين الروس الى الجيش البولوني الليتواني ومشوا مع رادزيكيل لاستعادة پولوتسك ولكنهم فشلوا هم أيضاً ، فقد قاتلت جيوش القيصر قتالاً حسناً على الرغم من وحشية مليكها وبدأ واضحاً أن فرار كوربسكي لم يتسبب في زعزعة العرش . وكان بإمكان إيفان لو أنه أراد أن ينتهز الفرصة أن يبدأ انطلاقة جديدة أكثر فطنة وتوازناً ونضجاً ولكنه لم يستطع أن يوقف تدهوره العقلي والمعنوي .

وزاد في طبيعة إيفان الحذرة المتشككة انقلاب كوربسكي عليه ، ولم تهدى انتصاراته شيئاً من قلقه . كان يعرض شفتيه وهو يتطلع الى البويار والى بلاطه الذهبي المصفوف أمامه في القصر أثناء العشاء ، ويصفي للاحاديث ويستقبل ناقلي الأقاويل ويشجعهم بما يقدمه اليهم من مكافآت ، ويجتهد في أن يقنع نفسه بوجود مؤامرة واسعة عليه دون أن يستطيع الحصول على معلومات في هذا الموضوع لعدم وجود أية مؤامرة في الأصل . وقد أوقف العديد من الناس وعذبوا ولكنهم عندما كانوا يسألون لم يكونوا يكشفون شيئاً لأنهم لم يكونوا يعرفون شيئاً . ويبدو أن القيصر منذ التوبيخات التي وجهها اليه كوربسكي صار أكثر طلباً للدماء ليقدّم اليه رداً أفضل في زعمه مما جاء في الكتاب المقدس . وكان المتروبوليت أثاناسيوس قد استقدم من دير شودوف ، ولم يكن يملك من المبادرة أكثر من أي كاهن في البلاط ولا يجرؤ أن يوجه الى القيصر أي

لوم أو تأنيب . أما المقربون الجدد من أمثال الكسي باسمونوف وميشيل سالتيكوف وأثناسيوس فيازيمسكي وإيثنان شيبوتوغي فكانوا أفراد حاشية يصفقون للرديلة ويشجعون القسوة والفجور .

في كانون الأول ديسمبر عام ١٥٦٤ قرر القيصر القيام بعمل خارق يمكن من خلاله بشكل ما أن يتنبأ المروءة بفترة الأخيرة من عهده . فقد ترك المدينة ومضى مغامرا في أمكنة مجهولة ليس لها اتجاه محدد تاركا اختيار طريقه « لإرادة الله » . وفي الساعة الأولى من يوم الثالث من كانون الأول ديسمبر تجمع عدد كبير من الزحافات المكينة إلى أحصنة مع سائقها فوق الثلج في ساحة الكرملين وأقيمت حفلة وداعية في كاتدرائية الصعود . وكان البويار الذين حضروا الاحتفال يتطلعون إلى بعضهم مشدوهين لأنهم لم يكونوا على علم بشيء . وأعطى المتروبوليت أثناسيوس بركاته وهو يجهل هو الآخر نوايا القيصر . وكان العمال مشغولين بتحميل الزحافات بالذهب والفضة والأحجار الكريمة يأتون بها من القصر . واستقر القيصر والقيصرة وطفلاه في زحافتهم . وركب أيضا السكرتيرون وعدد من الموظفين وانطلقت القافلة بالجميع دون أن تترك وراءها أي عنوان .

وفي اللحظة التي اتخذ القيصر فيها طريقه كان التجار والأمراء قد قبلوا يده ، ولكنهم عندما رأوا حرسه من الفرسان وخيول الجر التي تجري غزا الخوف قلوبهم ، فهذا السفر الغريب بدا علامة شؤم لهم ولوسكو . وقد انقلب هذا الخوف الصغير إلى ذعر كبير عندما تلقوا في مدينتهم أولى الرسائل التي بعث بها القيصر بعد سفره والتي يقول فيها : « بما أنني عاجز عن تحمل الخيانات التي تحيط بي فقد هجرت الدولة وذهبت حيث يقود الله خطاي » .

وليس الأمر أن شعب موسكو خشي عقاب القيصر فإن إيثنان لم يكن يتكلم في ذلك . لقد قال ببساطة إنه تعب منهم وإنه يهجرهم كما يهجر زوج متمرّد زوجته وبيته . فالملك الذي تلقى البركات هجرهم « فماذا نفعل الآن

بعد أن هجرنا ملكنا وسيدنا ؟ » . بعد قليل من الوقت تعطلت التجارة ولم تعد الدكاكين تفتح أبوابها ، وبقيت البيوت مغلقة وغزا الشعب الكريملين يطالب بضحايا كما كان قد فعل بعد الحريق الكبير . فهو يريد أن يعرف من من البويار أفضب القيصر ليحمله لقمة سائفة بين فكيه ! .

كان ذعراً شبيهاً بما يصيب خلية النحل عندما تموت ملكتها . فقد خرج الناس جماعات من منازلهم يتوقعون الخطر والهم الشديد .

وعقد المتروبوليت مؤتمراً مع البويار . كان ينبغي القيام بشيء ، وناقشوا في البدء احتمال إرسال المتروبوليت إلى القيصر يتوسل إليه في الإياب . ولكن أثناسيوس لم يكن يجد في نفسه القوة ولا السلطة المعنوية الضرورية للتأثير على إرادة العاهل . وبدلاً من ذلك ألف الأساقفة وفداً منهم يذهب إلى القيصر باسم المدينة . ومضوا ليتذللوا إلى سيدهم تحت الثلج وأتى بعدهم الأميران إيشان ديميتريتش بييلسكي وإيشان موتيسلافسكي وكل البويار ورجال الحاشية ونبلاء أقل قيمة وموظفو البلاط ولم يجرؤ أحد على التخلف .

وفي أثناء ذلك كان القيصر قد أقام مع آل بيته نهائياً في مدينة صغيرة تقع إلى الشمال الغربي من فلاديمير على بعد مائة وستين كيلو متراً من موسكو هي الكسندروف التي تسمى بوجه عام سلوبودا الكسندروفسكا . وكانت على وجه التأكيد المكان الأكثر غرابة مما يمكن أن يشير به الله كملجأ وسكن لسيد لبلاد . وفي الخامس من كانون الثاني يناير ١٥٦٥ وصلت إليه سرية التوبة والندامة والكل يتوسلون إليه بالعودة ويستدرون شفقتة المعروفة عنه . كان بإمكانه أن يهجر بلاطه ولكن كيف يمكنه أن يهجر معابد العاصمة المقدسة ومخلفات القديسين . « أتذكر ! - قال له الأساقفة - أنت لست حارس الدولة فحسب بل حارس الكنيسة أيضاً ، فمن سيحافظ في غيابك على إيماننا في حقيقته وتقائه ؟ . من سينقذ ملايين النفوس من اللعنة الأبديّة ؟ » .

إن استنزال سلام النفوس من قيصر كما لو كان المسيح كان مهيناً حقاً بعض الشيء ، ولكن هذا التملق كان محسوباً ومدبراً خير تدبير . وسجد الجميع وبقي القيصر وحده منتصب القامة كما لو أنه كان يتمتع بتمثيله للسلطة المطلقة ، وهم لم يتوسلوا إليه من أجل أن يعود لتسلم سلطته الزمنية على الأجساد والأرزاق فحسب وإنما أن يتسلط ضمناً على النفوس أيضاً حتى ولو أوردها مؤرد اللعنة والهلاك . ووعظهم إيثان طويلاً ، ولكن هذه الموعظة لم تكن إلا تمهيداً كلامياً لإعلان حقيقة نواياه .

« ومع ذلك فإنني بدافع من محبتي للأب اثناسيوس ولكم وللأساقفة والمطارنة الحجاج أوافق على العودة إلى العرش ولكن على شرط أن أكون حراً في إعدام الخونة بمحض إرادتي وأن أعاقب - رغم استيائي - حتى بعقوبة الموت والسجن ومصادرة الأملاك دون أن أعرض لحرمان الكنيسة أو نواياها السيئة » . هذا ما قاله إيثان للمستعطفين .

واستقبل المستعطفون هذا الكلام بدموع الفرح . « افعل بنا ما تشاء ، ولكن عد إلينا ! » وأبدى إيثان إعجابه بخضوعهم وطلب من معظمهم وهم يبتسم أن يبقوا ليحتلفوا معه بعيد الغطاس في ألكسندروف .



الفصل الثاني والعشرون

عملية انتقام

في الثاني من شباط فبراير عام ١٥٦٥ قام القيصر بدخول عاصمته التي كان قد تركها قبل شهرين بينما كانت آلاف الجماهير تبكي من الفرح وهي راكعة على ركبتيهما تتطلع إلى العائد إليها . ومع ذلك فإن المرء إذا ألقى نظرة عجيلى على هذه السحنة الإلهية رأى فيها مظاهر سريية من عدم الانسجام . فالقيصر الفتى المهيب الذي لم يكن له من العمر إلا أربعة وثلاثون عاماً كان شاحباً منحني الظهر وله شعر مبعر . وبما أنه كان قد اقتلع شعر لحيته فقد بدا كمجنون ، ومابقي من تلك اللحية كان مشعثاً . وبدأ رأسه أصلع ونظرته ثابتة كما لو كانت عينه حواء . وتحت جبهته المتفضضة كان يختبئ كامناً تصميم حار على انتقام اقاتل . ولم يكن حسن الشكل ولا معتنياً بمظهره ، يرتجف ويضطرب فمه كما لو كان يعاني من ألم أو من رغبة في الانتقام . هكذا قام بدخوله القريب إلى المدينة تحت قرع جميع النواقيس بينما كانت زحافاتہ تتقدم ببطء فوق الثلج المتجمد .

وعندما وصل إلى الكرملين أصدر أوامره في عدة أمور . فأولاً هو لن يقطن الكرملين وأن عليهم أن يبنوا له بأقصى سرعة ممكنة بيتاً حصيناً في وسط المدينة بين مساكن الشعب بين أرباض ونيكيتسكايا . ثم عدد من جديد أخطاء البويار وحصل من الكنيسة على تأكيد بالأا تقوم بأية انتقادات على ماسيقوم به من تدابير ضد أولئك الذين تسببوا في سخطه وغضبه . وعبر عن مقاصده بانتقاء ألف شخص من بين النبلاء ليكونوا حرساً

شخصية له ويقوموا على خدمته وسيطلق على هذا الجيش اسم
أوبريتشينا Opritchina وهو اسم أنشأه بنفسه ، ولم يكن معروفاً من
قبل في روسيا ولا بد أنه كان يحتوي على دلالة جديدة . وقد خصصت
بعض الشوارع في موسكو لسكنى أفراد الأوبريتشينا بينما طلب من
سكان هذه الشوارع أن يفتشوا لهم عن مأوى في شوارع أخرى . في
الوقت نفسه وضع خدم القيصر مخططاً سهرؤا جيداً على صياغته
ينظم سقوط الحق في المواريث واعادة تقسيم جديد للممتلكات والثروات
والضرائب .

وكان هذا المخطط توسيعاً لأفكار القيصر الأولى التي راودته بتأثير
من الكسي ارداتشيف عند وضع قانون العقوبات عام ١٥٥٠ . وقد وضع
في الحقيقة ليحل الأوبريتشينا محل كبار البارونات والأمراء الاقطاعيين
ويهدف الى إقامة أوتوقراطية تعتمد على خدم مأجورين بدلاً من
أوتوقراطية مزعجة تعتمد على نبلاء مستقلين أقوياء وموسرين . وكانت
الأوبريتشينا أشبه بنظام جزويتي فاسد تضمن له الكنيسة سلفاً عفو
الله عن كل ما يرتكبه من جرائم باسم القيصر - ويضع ضميره تحت
تصرف إيفان لأنه يتلقى مرتباته لقاء هذه الخدمات .

أما البويار الذين لم يكونوا جزءاً من الأوبريتشينا فانهم سيشكلون
الزيمشينا . وستكون واجبات الأولين مكرسة للقيصر بينما تخصص
واجبات الآخرين للإدارة المدنية ويقتصرون على خدمة الدولة بعيداً عن
البلاط . وكان أول عمل للقيصر هو أنه سحب من خزانة الزيمشينا مائة
ألف روبل ليدفع منها مصروفاته في الكسندروف . وازداد بخله بمقدار
ما كانت تزداد قسوته . وأضافت مصادرة الأملاك والأرزاق الشخصية
متعة جديدة لأعمال القتل .

كان إيفان قد وصل في الثاني من شباط فبراير ، وفي الرابع منه
بدأت أعمال الإعدام . فقتل الأمير الكسندر غورباتوف شويسكي قائد
حلة قازان الشهير ومعه ابنه بطرس الذي كان له من العمر سبعة عشر

عاماً : وتم ذلك في الساحة الحمراء وسط مشهد مثير للدموع . فقد كان ينبغي أن يقطع رأس الابن أولاً . ولكن الأب لم يتمكن من تحمل مشهد ابنه يقتل أمام عينيه فوعده بأن يوضع رأسه أولاً على قلعة النطع . وعندما تدحرج الرأس على الأرض أخذه الابن بين يديه وقبل وجهه الداكن قبل أن يسلم نفسه للجلاد .

وفي اليوم نفسه قتل عدد آخر من البويار ، ووضع الأمير ديمتري تشيفريشيف على الخازوق ليتحمل أفعط الميئات وبقي السيء الحظ ينازع يوماً كاملاً وهو يبتهل حتى آخر لحظة إلى المنقذ الفادي . وكان أحد الذين قطع رأسهم الأمير بطرس غورنسكي الذي ألقى القبض عليه وهو يهم بالفرار من المدينة على حصانه . وكان التفسير الوحيد لهذه الإعدامات هو رباط المودة الذي كان يربط هؤلاء الضحايا بالأمير غوربسكي ، ولكننا لو توخينا الصدق فإن بعضهم نجا من اللوم والتوبيخ ، كما أن القليل من الذين هلكوا كانوا على صلات حميمية مع الأمير الهارب أو يحطمون في اتباع خطاه .

والم يقتصر العقاب العام الذي فرض في ذلك اليوم على أعمال الإعدام . فكثيرون من الذين نجوا من سلطة الجلاد تم نفيهم إلى أقاصي البلاد . وقد اضطر بعضهم في بعض الحالات أن يدفعوا كفالة بمبلغ خمسة وعشرين ألف روبل ليضمنوا عدم تركهم للبلاد .

ومع ذلك كان ثمة بعض التسامحات . فالجندي البطل الأمير ميشيل فوروتنسكي الذي كان منفيًا إلى بيلو زيرسك أعيد إلى موسكو . ونال ياكوليف أحد أقرباء القيصرية Anastasia نال العفو في اللحظة الأخيرة بتدخل من الكنيسة .

وهكذا تم تدشين عهد ارهاب عميق بدأ بتنظيم الأوبريتشينا . فقد أراد القيصر الجالس بين محظييه باسمانوف وفازيمسكي وسكوراتوف أن يتوسع في مخططه فاختر من بين أبناء البويار أفتاهم وأعنفهم طبعاً

ليشكل من بينهم حرسه الخاص الجديد . وتم إنشاء صيغة قسم خاص بهم ، فكان ينبغي عليهم الا يعرفوا احدا ، لا ابا ولا اماً إلا القيصر . وينبغي عليهم أن يسكنوا سوية ولا يترددوا على مساكن افراد الزيمشينا ولا منازل التجار . والواقع أن القيصر لم يجند في هذا التنظيم ألف رجل فحسب وإنما ستة آلاف قدمت لهم الإقامة المجانية وأضيف إليها دخل صغير ، وغدا اثنا عشر ألفا من الأشخاص بدون مأوى ليخلوا مكانهم لأفراد هذا التنظيم . وكان هؤلاء الحرس من الأوبرويتشينا هم الأبناء الصغار في عائلاتهم فكانوا فقراء ولكنهم الآن وفي سحبة قلم وجدوا أنفسهم نسبيا أغنياء وبعد أن تقلدوا السلطة التي أوكلت اليهم أخذوا فوراً في اضطهاد جيرانهم كي يجمعوا منازلهم وممتلكاتهم لأنهم كانوا في الحقيقة فوق القانون ولم يكن عليهم أن يقدموا حساباً عن أعمالهم . فكانوا يستطيعون فرض الغرامات على الجنح والجرائم ويجلدون علناً أي انسان حتى يدفع ما يطلبون .

هذا الحرس الإمبراطوري المؤلف من ستة آلاف من رجال العصابات أُرهب الشعب . كانوا كلاب صيد للقيصر وبقية شعبه كانوا الطرائد ، ولذلك كان بعضهم يضع في بعض المناسبات على رأسه قناعاً يمثل رأس كلب . ومن الصعب علينا أن نصدق بعض المؤرخين الذين يؤكدون بأن هؤلاء الحرس الستة آلاف كانوا كلهم يخرجون عادة برأس الكلب هذا ويحملون مقارع في قرابيس سروجهم .

وبعد أن أنشأ إيثان هذه الآلة الرهيبة للتخريب انخرط من جديد في التوبة والصلاة . ولكن كان من علامات تقاه المميزة الا يصلح ابداً ما قام به من شر . فكان يترك الشر يستمر والضحية تحترق حية دون أن يقوم بحركة واحدة لابعاد اللهب . وقد انتهت الآن حقبة الخطايا التي تلت موت أناستاسيا لتحل محلها حقبة من التعصب الحزين . لقد كانت تقوى إيثان في سنواته الأولى تحت تأثير سيلفستر أكثر لمعانا بينما عقله الآن قد لقه ظلام من عمل الشيطان . فكان يتلوى تحت ألم التوبة والصلوات وهو مجبر في الوقت نفسه على الاستمرار في اغضاب الله .

وكانت ريبته تزداد أيضاً . وتملكه في موسكو جنون من الارهاب لم يكن يستطيع للتخلص منه إلا ان يقوم بعمل عنيف . وخيل إليه أنه سماع ناقوس موته في الكرملين . ثم بدد كل أمل في إزالة مخاوفه شهاب ساطع عبر السماء فتملكه قلق سوداوي لأنه لم يكن ثمة شخص يؤمن بالانجوم أكثر منه . ولم يكن بيته الجديد في موسكو على الرغم من حصانته وحسن حراسته يكفي لأعطائه الشعور بالأمان ، فخلف كل جدار في العاصمة كان يتربص قاتل . هذا على الأقل ما كان يعتقد ومن العجيب ان أحدا لم يفكر قط باغتياله ، ذلك لأن الروس كانوا قرويين بطبعهم وكانوا أبدا عاجزين بشكل يستدر الشفقة عن قتل أولئك الذين يكيلون لهم الاضطهاد والعذاب . لقد كان إيفان المحارب القاسي الشديد في أمان أكبر مما يتمتع به حاكم مثالي ، ذلك لأن الروس اعتادوا على أن يحكمهم طاغية ظالم .

من ملامح إيفان الطبيعية البارزة أنه كان جريئاً وفي الوقت نفسه ينتابه ذعر شديد . وبما أنه كان جباناً فقد كان يسير على أطراف أصابعه متخفياً في أرجاء القصر . ولكنه ما ان يكون على رأس جيشه أو رأس الأوبريتشيننا التي أنشأها حتى يصبح قادراً على الهجوم وقتل الآلاف من الأعداء . وتظهر التدابير التي اتخذها في مجال السياسة وخلقه للأوبريتشينيا أنه كان يتمتع بعقل جريء . أما ماذا كان يشغل فكره في الكسندروف عندما انتزع شعره ولحيته في جماع كفه فلا أحد يدري . ويمكننا أن نتمثله ميداناً للمعركة بين الخير والشر على أن يكون الشر منتصراً والخير مسحوقاً حتى العظام . وفي موسكو لم يشأ أن ينام الى جانب رفات أجداده المحترمين لأن نفسه كانت قد أصبحت دنسة فأقام بيته في وسط المدينة دون أن يجد الراحة هناك أيضاً ، وهكذا كان لا بد له من الرجوع الى ميدان المعركة في الكسندروف حيث كانت نفسه قد ضاعت عساه ان يجدها هناك .

وكان قد وضع في كنيسة أم الله في الكسندروف صليباً فوق كل قرميدة فيها وزين الهياكل بالذهب والأحجار الكريمة وحفر حول بيته

حفرة لا يتمكن الشيطان من اجتيازها وأطلق على هذا البيت اسم الحرية
بينما أطلق على المركز العسكري خارج المدينة اسم العبودية . وكانت بعض
الشوارع بكاملها مخصصة لحرسه الشخصي حيث بنيت فيها بيوت
حجرية . وشيدت كنائس جديدة ومذخرات لوضع بقايا أجساد
القديسين والدخائر الدينية . وكانت هذه المجموعة الصغيرة من الأبنية
التي تحيطها الغابات الكثيفة ذات أبهة غير عادية وتعج بالرجال شاكي
السلاح ، فهي شبيهة بمدينة خارجة من حكايا الجن يكتشفها المسافر
بعد أن يضيع في غابة لا يعرف لها قرار . وكان يحكمها أمير أكثر غرابة مما
أخترعته الأساطير . وفي لحظة من لحظات التعصب قرر القيصر أن يجعل
من قصره ديراً ومن أفراد الأوبريتشين رهباناً فيه على أن يكون هو رئيس
هذا الدير العجيب . وكان يوجد ثلاثمائة من حرس الأوبريتشين غدوا
كلهم رهباناً يرتدون المسوح السود فوق أطواق من الفراء وثياب
من الذهب .

والقيصر ؟ ... هذا الوضع في أن يكون لرئيس الدير زوجة وأن
يعيش في الخطيئة لم يكن داخلاً في عين الاعتبار . ومع ذلك فإن حياة
الرهبنة هذه لم تكن متصنعة ، فالقيصر نفسه هو الذي أنشأ قواعد
النظام الجديد وأعطى المثال على التمسك بها . ففي الساعة الرابعة من
الصباح كان يذهب مصحوباً بولي عهده إيثان وأخيه الصغير ليقرع
الناقوس من أجل أن بدعو المتدينين الى صلاة الفجر وويل للمتباطيء
أو المتخلف ! . وتستمر الخدمة الدينية حتى الساعة السادسة أو السابعة
كان القيصر يسجد في خلالها معظم الوقت حتى ليصل به الورع الى إيذاء
جبينه وخروج الدم منه لشدة ما يفركه على حجارة الكنيسة . وبين
الثامنة والعاشر كانوا يقيمون الصلوات الخاصة وبعد ذلك يجلس القوم
الى طعام الإفطار . ولكن إيثان لم يكن يشارك قط في هذا الطعام كما وأنه
كان يشعر بأنه ارتكب من الخطايا أكثر من الآخرين فيبقى واقفاً مع إخوته
الرهبان يقرأ بصوت عال بعضاً من مواعظ الدين . ثم يعطون للفقراء
بقايا هذا الطعام ويجلس القيصر ليتناول إفطاره على انفراد . ويقال

إنه كان بعد الظهر من كل يوم يزور السجون ويأمر بتعذيب الموقوفين ليمتع نفسه فيما بقي من النهار .

وفي الساعة الثامنة يجتمع الناس كلهم لصلاة المساء . وفي العاشرة ينسحب إيثان الى غرفته حيث كان ثلاثة من رجال العميان مكلفين بأن يرووا له الحكايا والاساطير واحداً بعد الآخر حتى ينام . إلا أن النوم لم يكن يستمر طويلاً لأن عليه في منتصف الليل أن يعود الى الكنيسة من جديد ويبدأ اليوم بالصلوات .

وكان لا بد لقصة هذه الحياة الغريبة من أن تنتشر الى الخارج . وفكر سيجسموند أوغست أن يفيد من هذا الوضع . فقد كان إيثان يستقبل المسافرين الأجانب ولم يكن من الممكن إخفاء حالته التي لم تكن طبيعية قط ، فإلى أي مدى بلغ به الجنون ؟ . كان الجواب على هذا السؤال صعباً بطبيعة الحال . وقد وجه سيجسموند بسؤاله للسفير الروسي في فارصوفيا : « ما هي الأوبريتشينا ؟ » . وأجاب هذا : « ليس من وجود لذلك » . ومع ذلك فإن ملك پولونيا كان مقتنعاً بعكس ذلك لأن اللاجئين الى پولونيا كانوا يصلون كل يوم هرباً من طغيان الأوبريتشينا ويضعون أنفسهم تحت حمايته . وعندما علم بأن إيثان يكاد يمضي كل وقته في الصلاة في الكسندروف ظن أن اللحظة قد ازفت ليقوم البويار المستأثرون بالاستيلاء على السلطة في موسكو . وهكذا بدأ عن طريق وسيط روسي اتصالاً تآمرياً مع نبلاء الزيمشينيا الرئيسيين .

كانت الحكومة الفاعلة مشلولة في البلاد والأوبريتشينا وحدها هي من يصنع القانون . ولم يكن في الإمكان التظلم أو كسب أي دعوى تقام ضدها . وكان البويار يعتدى عليهم وينسرقون في ممتلكاتهم الخاصة . فكانوا يفتقرون بينما كانت الأوبريتشينا تفتني . وامتلات بيوت أفرادها الجديدة بمنهوبات البيوت الأخرى وكان من الصعب التذمر أو التمرد . كان الرعب الذي يثيره القيصر وقدرته على الانتقام يشل كل عمل . وابتعدت التجارة عن موسكو وتدمر التجار ولكنهم لم يتجرؤوا على تقديم

اية عريضة . والعادة التي كان القيصر قد جرى عليها في استقبالهم أصبحت عادة باطلة ومهجورة . فكان أعضاء حرس القيصر الشخصي هم الذين يستولون دائماً على هذه العرائض ويجيبون عليها كما يحلو لهم ويشتهون ، وكان الجواب غالباً هو القتل والانتهاك . وسكنت الكنيسة أيضاً كما لو أن إرادة الله كانت هجر روسيا للخراب والشیطان .

ولا بد أن المتروبوليت أثناسيوس قد ندم ندامة مرة على ضعفه وضعف أساقفته عندما قبلوا بالعفو عن كل ما يقوم به القيصر من أعمال . فقد كان بعيداً عن تقاليد الكنيسة أن تقوم بمثل هذا التصرف العبودي تجاه أي واحد من الملوك . فالكنيسة منذ عصور لا تنالها الذاكرة كانت قد استعملت سلطة الحرمان للحصول على الرعاية والحظوة وتجرات على اتهام القساة والخاطئين دون أن تهتم بما يمكن أن يفعله الأقوياء . وبسببها للقيصر كأنه إله غدت الكنيسة متمردة على الإنجيل الذي فصل بوضوح بين ما هو لقيصر وما هو لله . ولكن أثناسيوس كان ضعيفاً ، فهو لم يترك القيصر يعذب الرجال والنساء البريئين فحسب وإنما لم تكن له الشجاعة الأدبية أيضاً على اتهام الدير الهزلي الذي أنشأه .

عندئذ دخلت الصفة غير المسؤولة لسلوك إيفان الديني مرحلة جديدة . فقد استقبل عدداً من المساجين الليثونيين الألمان وبدأ نوعاً من الغزل الفكري مع المذهب البروتستانتي . كان معجباً بالألمان وميالاً للتسامح معهم لأنهم يمتازون بثقافتهم ، فالنبلاء منهم يتحدثون جيداً والعلامة حرفيون مهرة . وكان إيفان يظهر منذ أمد طويل ميلاً لاستخدام الألمان لتستفيد البلاد من معارفهم ومهارتهم . وقد تم التأكد من أن إيفر فلد كاد ينجح في هداية إيفان إلى مبادئ مذهب أوغسبورغ حتى أن القيصر سمح للوثرين بأن يكون لهم كنائسهم في موسكو . وكان ذلك كثيراً بالنسبة للمتروبوليت أثناسيوس الذي سقط مريضاً في أيار مايو عام ١٥٦٦ وقرر الانسحاب إلى إحدى مقصورات الدير .

ومن المحتمل أن إيثان سعى بذلك إلى تهيئة نفسه للزواج من الملكة البروتستانتية الكبيرة . فقد كان أرسل منذ بعض الوقت رسالة إلى الملكة إليزابيث مع التاجر جنكنسون يطلب من العاهلة الزواج لأنه مل من زوجته الشركسية ، والآن هو ينتظر الرد . وكان يستطيع بحرة قلم أن يجعل من روسيا بلداً بروتستانتياً وكان قادراً على ذلك .

وأجرى جنكنسون حديثاً خاصاً طويلاً مع الملكة إليزابيث ، أما ما قاله وماقالته فليس مسجلاً في التاريخ . والرحالة الإنكليزي الذي كان على اطلاع واسع في الأمور التجارية بدأ لسوء الحظ رسوياً حذراً جداً ومتروياً . واتضح من مراسلاته ومراسلات مرافقيه في السفر أن انكلترا كانت مهتمة بالتجارة مع روسيا وبالتجارة فحسب . ولم يكن اكتشاف روسيا وبخارى وأسواق الشرق ينطوي على أي عنصر من الفخار ، فالغاية كانت كسب المال لا القيام بالكشوف ، والتجارة تساوي أكثر من الحياة وأكثر من الشرف أيضاً . لقد كانت الملكة إليزابيث على رأس أمة تاجرة حتى يمكن القول إنها كانت امرأة أعمال مميزة وهذا ما أعطاها شعبيتها . ولم تكن الملكة تعيش عائلة على بلدها وإنما كانت على العكس من ذلك تساعد على أن يصبح أكثر رخاء وثروة . وفيما يخص روسيا وضعت الملكة في أول مخططها وبصورة مطلقة مصالح الشركة الروسية . كان بإمكانها أن تسمي القيصر أخاها وأن تشرفه بكل القابه ويحمر وجهها أيضاً من البهجة لطلبة الزواج منها ، وهو أجدر بأن يكون منطرياً ملاطفاً من أن يكون عاهلاً كبيراً من الشرق يشبه المغول ، ولكن الأهمية الجديدة كانت للتجارة . وكان جنكنسون قد حصل على امتيازات واسعة جداً للتجار الإنكليز في روسيا مما أثار غيرة زملائهم في الدول الأخرى مما أحرزته الشركة الروسية . ولو أن إليزابيث رفضت عرض إيثان بصراحة لخاطرت عندئذ بكل شيء . وقد كان لها مسوغ للغضب ، ذلك لأن زوجة إيثان كانت لاتزال على قيد الحياة والعرض لا يختلف عما لو كان القيصر يدعوها للدخول في حريمه . ولكنها بدلاً من ذلك أخذت تفاوله وتسعى لكسب الوقت . لم تكن

تنوي الزواج من أي إنسان فهي تستطيع إذن أن تفازل على راحتها .
وكان يمكن إطالة النقاش في شروط الزواج والحصول خلال ذلك على امتيازات أخرى للتجارة والتجار .

ووصل جنكنسون في آب « أغسطس » أو إيلول « سبتمبر » من عام ١٥٦٦ ومكث في روسيا زمناً طويلاً لأنه كان يتمتع بتقدير عال وربما شهد بعض الأعمال التي قامت بها الأوبريتشينا وتم استقباله في الكسندروف أيضاً . ولكن مارآه أو ماتحدث به مع القيصر لم يتم تسجيله . مانعرفه هو النتيجة الحسية لمحدثاته حيث نال للشركة الروسية امتياز احتكار تجاري في كل أراضي روسيا الشمالية . أما بضائع الأهم الأخرى فإنها ستكون عرضة للمصادرة وتوقف أيضاً مراكبها وحمولاتها إذا وجدت في الشمال . « صادرنا لمصلحتنا » نحن الإمبراطور والدوق الكبير » . وسيدخل التجار الإنكليز بحرية إلى دوريات ونارفا والأماكن الأخرى التي احتلتها روسيا منذ عهد قريب . والخلاصة أن إيفان منح الإنكليز معاهدة تجارية مجزية جداً ، ومطلبه في مقابلها لم يكتب عنه شيء . ونحن لانملك الرسالة السرية التي كان قد حملها جنكنسون ولا جواب الملكة عليها . ومن السهل أن نقبل بأن إليزابيت طرحت على القيصر بعض الأسئلة التي كان من العسير الإجابة عليها وطلبت أشياء أخرى غير الامتيازات التجارية . على أن الوقت كان في مصلحة أنتوني جنكنسون ومصلحة الملكة إليزابيت والتجارة الإنكليزية ، ومع ذلك فإن جنكنسون كان لا بد له من العودة إلى جلالة الملكة في النهاية واعدأ بأن ينال منها جواباً شافياً على عرض القيصر وأنه سيعود عما قريب .



الفصل الثالث والعشرون

المثروبوليت فيليب

كانت الكنيسة على وشك أن تنتخب هرمان مطران قازان ليحتل كرسي المثروبوليت اثناسيوس ولكن القيصر تدخل في الأمر ووجب على هرمان أن يعود الى قازان بينما وجهت دعوة الى فيليب رئيس دير سواوفتسك على البحر الأبيض الذي كان أكثر النساك تقشفاً وزهداً في روسيا ، وهذا الدير هو الذي كان قد نفى اليه سيلفستر في اقاصي المناطق الباردة في الشمال واستقبل فيه كما يستقبل قديس لا كما يستقبل رجل مفضوب عليه . وقد قص على رئيس الدير كل ما جرى له عندما كان المستشار الروحي للقيصر . فكم كانت هذه الدعوة لرئيس الدير فيليب غير منتظرة ! . كان ذلك بمثابة إشارة عفو . لقد أرسل القيصر في طلب رئيس دير سيلفستر ! ، اليس ذلك إشارة الى أنه يجد فيه الخليفة الروحي البديل ؟ .

كان فيلب ذا ارومة نبيلة ، وقد تمرد في صباه على المباهاة والتفاخر في حياة البويار . وبدلاً من أن يقيم في البلاط فضل تأمين سلام النفس بأن يعيش في القفر . ولم يمض كماله الأخلاقي وميله الى التضحية دون أن يلحظها القيصر الذي كان يتصل به ويرسل له الهدايا لهياكله والمواد اللازمة لما ينبغي إشادته من أبنية ويعرف أنه في محيطه الصغير كان خير إداري يجمع بين القداسة والحس السليم ، وكان ذلك من أندر الأمور . وكان بإمكان الملائكة أن تقدر له صلواته ولكنه تمكن الى جانب ذلك من صرف المياه في مستنقعات التوندرا وأقام نظاماً لتربية حيوانات الرنة في

تلك الاصقاع واستصلح القابة وفتح فيها الطرقات وأقام منشأة لاستخراج الملح وخلق أسطولا للصيد . كما أنه أصلح ابنية الدير وجعل في أحسن حالة « فتيلة قنديل الاله » التي أصبحت تضيء الآن اصقاع اقاصي الشمال .

ويمكننا ان نقبل قصة كوربسكي التي تقول إن القيصر رفض انتخاب هرمان لأن هذا أنذرته بوجوب التوبة من جديد وتساءل كيف يمكن للقيصر ان يظهر أمام العلي الأعلى ليسوغ سلوكه كقيصر ولي على العباد . كان هرمان مطرانا فاضلا ولكنه كان يقطن في أبرشية قازان الفاخرة فلن يكون أبدا الشاهد اللامع كما كان الأمر مع فيليب . ولم يكن إيقان ملكا عاقلا ولكنه لم يتخل عن هرمان لمصلحة فيلب على أمل ان يجد فيه شخصا أكثر ليانا أمام طغيانه وإنما دعا اليه طواعية رجلا يتمتع بقوة معنوية عالية ليكون نداً روحياً له وشريكاً ومساوياً في إدارة الكنيسة والدولة على السواء .

وبينما كان فيليب يتجه الى الجنوب لحق به في اطراف مدينة نوفغورود مفوضون عن سكانها يرجونه ان يشفع لهم ويحول عنهم غضب القيصر الذي كان يهددهم في ذلك الحين . وكانوا يخشون منذ ثلاث سنوات قبل هذه الحادثة قسوة العقاب الذي سينزله القيصر بنوفغورود .

أما فيليب الذي كان قد هجر الدنيا فما هو ذا يعود إليها الآن . وبينما كان يقترب من موسكو كانت تدمرات روسيا التي طاش صوابها تتزايد دون انقطاع في أذنيه . وفي تواضعه انتابه شعور بأن العبء سيكون ثقيلًا عليه وأنه لا يملك لا القوة الكافية ولا الحكمة الكافية ليكون ممثلاً لسلطة الكنيسة الأساسية على هذا الشعب المضطرب المتألم الخاطيء . وفي أول حديث له مع القيصر أعلن عدم رضاه عما كان يجري ورفض ان تتحمل الكنيسة مسؤولية خطايا البلاط . وهو لا يريد ان يحتل منصب المتروبوليت لأنه تابع صغير جدا تجاه المهمة التي يريد القيصر ان يلقبها

على عاتقه . وهو لا يستطيع أن يعاقب هذه الأوبريتشينا بلوى روسيا وشجنها المقيم . أما القيصر فقد غضب الجانب السيء منه ، أما الجانب النادم التائب فقد لاحظ أنه يجد له عضدا وسندا ، وبدلا من أن يطرد فيليب فإن إيشان أصبح أكثر اقتناعا مما مضى بأنه وجد الرجل الذي كان يبحث عنه .

لم يكن بإمكان القيصر أن يأمره باعتلاء كرسي المتروبوليت . كان بإمكانه أن يقنع الاساقفة الخاضعين بأن ينتخبوه ولكن لم تكن لديه القدرة على ارغامه إذا أصر رجل الله على الرفض . ففي أية ظروف تمكن إيشان من أن يقنع فيليب ؟ لا ندري ! . على أن ذلك لم يكن إلا لخير روسيا وسلامة الشعب . وقد حاول رئيس الدين أن يملئ شروطه مقدما فرغب في أن تحل الأوبريتشينا وأن يلغى التوزيع الجديد للممتلكات وتعود الموارث إلى أصحابها الأصليين . ورفض إيشان ومع ذلك غدا فيليب على كرسي المتروبوليت وتعهد ألا يتخلى عنه بدافع من اعتراض على تصرفات القيصر في شؤون الدولة . ومع ذلك فإن من المستغرب أن يختار إيشان خصما للأوبريتشينا بمثل هذا التصميم ليكون رئيسا للكنيسة . وقد جرى حفل التكريس في الحادي عشر من آب أغسطس بحضور القيصر وولديه والأمير فلاديمير أندرييفتش والمطارنة والاساقفة .

وفي خطاب العرش طلب فيليب من القيصر أن يعود أبا لشعبه وأن يدير ظهره للمتملقين الذين يتدافعون حوله وأن يراعي العدالة في إدارة رعاياه . وقال له أن انتصارات المحبة أكثر فخارا من انتصارات الحروب ، وقد أصغى إليه إيشان بانتباه عميق كما لو أنه كان مصمما على بدء حياة جديدة وغدا خلال بضعة الأشهر التي تلت رجلا مختلفا كل الاختلاف . كان يحب المتروبوليت الجديد ويكن له مودة عميقة فلجم ما كان يقوم به انصاره من طغيان .

أما فيليب الذي باركه الشعب فكان يعيش أياما سعيدة وبنى في موسكو كنائس جديدة وضعها تحت حماية القديسين سيدي دير

سولوفتسك : القديس زوسيمما والقديس ساباتي . إلا أن فترة الهدوء انتهت بصورة مأساوية على إثر مؤامرة سييجسموند أوغست مع الزيمشيننا وتحركاتها . وقام شعور بأن روسيا انقسمت على نفسها وأن مدد النبلاء المستائين كان قد ازداد لدرجة القدرة على إثارة حرب أهلية . فإذا أمكن إثارة الزيمشيننا الذين كانوا حتى الآن سلبيين فإنهم سيدمرون الأوبريتشيننا ويطردون إيثان عن العرش . وكان مبعوثو ملك بولونيا لا يكفون منذ بعض الوقت عن السفر بين بولونيا وموسكو فليس من المدهش أن يتم توقيف أحدهم ، وكان ذلك فرصة رائعة للمقربين من القيصر كي يبدووا عهدا جديدا من الإرهاب وينعشوا ما في نفس القيصر من قوى الشك .

كان بعض النبلاء بدون شك متقبلين لعروض سييجسموند . وقد لعب دور الوسيط الرئيسي في هذه المؤامرة روسي مقيم في ليتوانيا اسمه كوزلوف كان يحمل الرسائل إلى موتسيلافسكي وبييلسكي وميشيل فوروتنسكي الذي تم العفو عنه منذ عهد قريب وإلى آخرين . ولكن هذه الرسائل إما أنها احتجزت أو سلمت شخصياً لإيثان من الأمراء الخائفين ، وقد تسلى القيصر في بادئ الأمر بكتابة الردود باسم هؤلاء البويار : « فليعطهم الملك سييجسموند كل ليتوانيا ، كل روسيا البيضاء ، غاليسيا ، بودواسك وممتلكاته في بروسيا ، وعندئذ يثرون حرباً أهلية » . وتلقى الأمير الشيخ فيدبروف حامل سلاح القيصر أمراً بأن يرد كما يلي : « كيف تستطيع الافتراض بأنني أقبل - وقدمي على حافة القبر - بأن أعرض نفسي التي لا تموت لمثل هذه الخيانة المقيتة ؟ » .

لقد شغل إيثان نفسه بهذه المؤامرة في بادئ الأمر وهو في مزاجه الحسن ، وكان في ردوده المزعومة قبس من المزاح وشيء من الإيحاء والكياسة والعظمة . ولكن ردود فعله المرضية ما لبثت أن ألفت ذكائه المتوقد فماد إلى الحذر حتى راوده الشك في إخلاص المتروبوليت الجديد . وعندما كان يتلفت حوله كان يعتقد أن كل إنسان إنما يتآمر على سلطته . وقد بدأ هذا التغير في عقليته بمزاح انتهى باغتيال الأمير فيديروف .

كان يقول لنفسه : « وبعد كل شيء كان لا بد من الاستسلام لسيجسموند » . وقد أجبر فيديروف أمام كل البلاط ان يرتدي عباءته وتاجه ثم انحنى أمامه وحياه بلقب قيصر روسيا وتمنى له حياة طويلة . واعتقد البويار ان الأمر على سبيل المزاح فأخذوا يضحكون لأن إيفان كان يحب كثيرا ان يقوم بأدوار هزلية وأوضاع مسرحية . ولكنه عندما نقل التاج الى شخص آخر خطرت له فكرة كانت مخبأة في ثنايا عقله . ما كان سيفعله لم يكن مؤكدا لأنه هو نفسه لم يكن يعرف ذلك . قد يستطيع اجبار فيديروف على المحافظة على الامبراطورية لبضعة أشهر كما فعل بعد ذلك مع الأمير سيميون ، ولكن كلا ، لقد فضل قتله . قال له : « كما ان لي القدرة على جعلك قيصرا فإنني أملك هذه القدرة بدون شك على قتلك » . ثم رفع خنجره وغرزه في قلبه فسقط فيديروف وتدحرج الى خارج السرداق . اما جثته فقد قطعت الى قطع في باحة القصر ، واما امراته وكانت امرأة قديسة ليس لها اولاد وقد ندرت نفسها للمسيح - فقتلت هي الاخرى . وقد تسببت هذه الجريمة الثانية بفرح غامر ملأ قلب القيصر اكثر من الجريمة السابقة .

والآن فإن الاوپريتشينا التي أهملها إيفان بضعة أشهر بتأثير من فيليب عادت الى سيطرتها وتمكن ثلاثة من كبار القواد هم موتيسلافسكي وبيلسكي وميشيل فوروتنسكي من الفرار والتخلص من الانتقام . اما الآخرون فان أوامر صدرت بان يقتل منهم كل من كان مشاركا في مؤامرة الملك سيجسموند . وكان ال روستوفسكي على وشك ان يهربوا فيما مضى الى ليتوانيا فأمكن الافتراض بأنهم ربما حاولوا الفرار من جديد . ولم يكن العفو الذي نالوه في عام ١٥٥٤ بشفاعة من الكسي ارداتشيف وماثاري قد منحه إيفان عن طيب خاطر فهو لا يفتأ يأسف عليه ويفكر فيه . وهكذا أرسل بثلاثين رجلا الى نيجني نوفغورود حيث كان أحد افراد روستوفسكي يقود أحد الجيوش فقطعوا رأسه وحملوه معهم حيث رموه تحت اقدام القيصر الذي أرسله يتدحرج بركلة من قدمه . وبحسب الرواية التي يرويها كوريسكي فإن بطرس تشيشيناتوف أحرق ببطء

فوق صفيحة شواء في حجرة من أحد الأديرة . واغرق إيثان پرونسكي .
وقطع تيوتين خازن الدولة مع امراته وعائلته الى قطع على يد أخيه
القيصر وعصابة من الاوغاد . وقتل رجال آخرون لامعون مع نسائهم
وأولادهم ونهبت الاوبريتشينا منازلهم وقراهم ودمرت حظائرهم
وأسماعهم في الانهار والبحيرات وبلغ بها الامر أن قتلت كلابهم وقطعوا
أيضا . وقتل عدد كبير من أبناء الشعب حتى أنهم لم يكونوا يوفرون
الأطفال في المهد . ويقال إن رجلين ممن أرسلوهم لقتل إحدى العائلات
انفطر قلباهما وهما ينظران الى طفل صغير يتسم لهما في المهد فحملاه
إلى إيثان الذي قام بطبع قبلة على وجنته ثم رمى به من النافذة آمراً أن
يسلموه للدببة . أما الجلادان اللذان تركا نفسيهما عرضة للإشفاق
على الطفل فقد قتلوا بحد السيف .

وجثم الرعب على موسكو مرة أخرى وعلى كل روسيا . وكان رجال
مقنعون يحملون السكاكين يجوبون الشوارع يسرقون ويقتلون . وكانت
الجثة ترقد في الشوارع بدون دفن لأن أحداً لم يكن يجرؤ على لمس ضحايا
غضب القيصر خوفاً من أن يناله المصير نفسه . وبصورة عامة كانت
الضحايا تعرى من ثيابها كي لا تبتل بالدماء لأن الثياب كانت جزءاً من
الغنيمة ، وكانوا يعرفون النساء بوجه خاص لأن الاغتصاب كان يسبق
القتل .

هذه الأحداث الرهيبة دامت طوال الشتاء والربيع والصيف من عام
١٥٦٨ . وكان المتروبوليت يرد بالصلاة كلما تجدد العنف ولكنها لم تكن
تكفي . وقد سمح له في بادئ الأمر بأن يناقش القيصر ، وبدأ جريئاً
عندما دان في وجهه خطاياهم ولكن إيثان تجنبه على الأثر . وفي أحد الأيام
دخل الى كاتدرائية الصعود عدد كبير من أفراد الاوبريتشينا وهم يرتدون
الأردية السود وعلى رؤوسهم القلانس ومعهم القيصر يرتدي زي رئيس
هذه المجموعة العجيبة . وكان بعضهم سكارى ومن المحتمل أن القيصر
نفسه كان تحت تأثير الخمر . واستمرت الخدمة الإلهية كما لو أن شيئاً

لم يحدث . واقترب القيصر ثلاث مرات من المتروبوليت كما لو أنه يريد ان يتلقى منه المباركة ولكن فيليب لم يعره أي التفات . وعندئذ ارتفعت همهمة من بين أفراد الأوبريتشينا :

« أيها الأب المقدس ! . إن القيصر إيغان فاسيليشتش يطلب منك مباركتك » . هكذا صاح واحد من بينهم .

واجاب المتروبوليت وهو يخفض بصره نحو القيصر ذي القلنسوة السوداء : « ماذا أنت فاعل بنفسك ؟ . أنت تفسد كل ما هو حسن فيك تحت قناع من القماش . منذ ان بدأت الشمس تضيء في السموات لم يوجد ملك شريف واحد اساء لشعبه كما اسأت . أيها القيصر ! . بينما نحن نحتفل بالضحية المقدس فوق المذبح تريق أنت دم الأبرياء من المسيحيين في كنائس الله . حتى في البلاد الوثنية هنالك قانون وعدالة وتسامح بينما لا يوجد في روسيا شيء من كل ذلك . إن السلب والنهب والاغتصاب والجرائم ترتكب في كل مكان باسمك . ولكن مهما كنت رفيعاً فوق عرشك فإن هناك من هو أرفع منك : قاضينا وقاضيك ! . كيف تأمل في القدرة على المثول امام محكمته وسط عاصفة من عويل الضحايا وانت ملطخ بدم الأبرياء ؟ . وبما أنني راعي النفوس فإنني أحذرك : لا تخش إلا الله وحده ! » .

ونال الغضب من إيغان فحضر بلاط الكاتدرائية بعصاه ذات الرأس الحديدي وصاح بصوت غريب : « أيها الراهب ، فليكن الأمر كما قلت . لقد جنبتكم العقاب حتى الآن أيها المتمردون أكثر مما كان يجب ، أما بدءاً من الآن فإنني سأعمل تبعاً للدور الذي أسندته إلي ! » . وخرج من الكاتدرائية بعد هذا التهديد .

في ذلك اليوم نفسه تم توقيف عدد كبير من رجال الدين ووضعوا تحت التعذيب . كما أوقف وقتل عدد من البويار المنتمين الى الزيمشينا ومن بينهم الأمير فاسيلي برونسكي . كان القيصر قد وعد بطغيان أكبر ،

ومع ذلك فإن من الصعب القول بأنه حدث طالما أنه لم يضع يده على المتروبوليت وإن كان لا بد أن يحدث ذلك عما قريب . ثم قامت ضجة أخرى في الكنيسة بعد ذلك بقليل . فقد أراد المتروبوليت أن يعترض على الزبي الذي كان يرتديه أحد أفراد الأوبريتشيننا فأثار هذا الحدث التافه حفيظة القيصر حتى اتهم الحبر بالنفاق والخبث والفوضى . كان من الصعب عليه أن يهاجم فيليب الذي كانت الجماهير تقدره في ذلك الوقت كقديس حي . وكانت هذه السمعة مع سلطة الكنيسة قوتين كبيرتين جداً بحيث تمنعان ارتكاب جريمة علنية . لذلك أخذ إيفان بمساعدة من المقربين إليه يجمع عناصر اتهام تضع نهاية لهذه السمعة الطيبة . فأرسل مفوضون إلى سولوفتسك ليجمعوا كل الإشاعات الممكنة . ولكن معظم الرهبان وقفوا سندا ثابتا لفيليب الذي اعتبروه نموذجاً للتقى والورع . إلا يزي رئيس الدير الذي لم يخش من أن يشهد زوراً وبهتاناً على أمل الحصول على الرفع والارتقاء .

وتم اختراع الكثير من المطاعن لإعداد تهمة للمتروبوليت الذي ما لبث أن مثل أمام محكمة في موسكو كان فيها رئيس الدير هو المتهم الرئيسي . ودافع فيليب عن نفسه بثبات كبير قائلاً : إنه يفضل أن يموت شهيداً على أن يستمر في رؤية جرائم الفيصر دون أن يعارضها . وأجاب القيصر : « أنت من سيحاكم ولست القاضي » ، ولكنه لم يأمر بتوقيفه فوراً ولا طرده من منصبه . واستمر فيليب على الاحتفال بقداساته وهو ينتظر كل يوم وكل ساعة أن يتلقى الضربة التي كانت تعد له .

وفي الثامن من أيار مايو في عيد رئيس الملائكة القديس ميكال هجم باسمانوف وآخرون على كاتدرائية انصعود وانقضوا على المتروبوليت في الهيكل وهو في ثيابه الكهنوتية واندفعت نحوه ثلة من الأوبريتشيننا وفي أيديهم العصي فمزقوا ثيابه وألبسوه رداء أبيض ربما لم يكن أكثر من غطاء ورموه في زنزانة في دير البشارة . وخيم على الكاتدرائية صمت مرعب ، ثم ما لبث الشعب أن بدأ بالصراخ والنحيب وهو يتبع بجحافل

الزحافة الخشنة التي وضع فوقها فيليب ، وبقي الجمهور أمام الدير في انتظار معجزة .

في اليوم التالي ألصقت بالمتروبوليت جريمة السحر وحكم عليه بالسجن المؤبد . وعند ذلك عفا عن أعدائه وأندر إيثان مرة أخرى بأن يتوب وأن يتذكر تقاليد أجداده ولكن ذلك لم يؤد إلى أية نتيجة في نفس إيثان . ووضع فيليب في زنزاية مكبلاً بالأغلال . ولكن الشعب كان يتجمهر أمام سجنه أينما أرسلوه لكي يكون على مقربة من « قديس حي » ضحى بحياته من أجل إيمانه . وعند ذلك كان لا بد من إبعاده . وكان إيثان يعرف أنه رجل قديس وربما كان من المحتمل أن يستدعيه إلى موسكو مرة أخرى ، ولكنه أرسل إليه أحد المقربين إليه وهو سكوراتوف ليحصل على المباركة من العجوز ، وكان يومئذ سجيناً في تقيير بينما كان القيصر قد توجه ليمارس انتقامه الرهيب في نوفغورود . أما فيليب فقد رفض منح بركته وقال : « إنني أبارك المشروع الصالح الذي يهدف إلى فعل الخير » . عند ذلك قفز سكوراتوف عليه وخنقه فمات واحد من أعظم رعاة الكنيسة الأرثوذكسية وخلفه سيريل أرشمنديث ديسر ترويتسكي في منصب المتروبوليت .



الفصل الرابع والعشرون

موت القيصر الثانية

كان القيصر ينتظر عودة التاجر الإنكليزي مع جواب الملكة إليزابيث ولكن يبدو أن رجاءه قد خاب بعض الشيء عندما رأى وصول توماس راندولف بدلا من جنكنسون المبعوث السابق . وكان إيثان تحت سيطرة مزاج أسود على أثر إقالة المتروبوليت فلم يبد اهتماماً بالسفير الإنكليزي الجديد . وهكذا لم يلق راندولف استقبالا حارا وتوجب عليه أن ينتظر أربعة أشهر في موسكو قبل أن يبدي القيصر رغبته بمقابلته . ورغم وصوله في نهاية إيلول سبتمبر من عام ١٥٥٨ فإنه لم يمثل أمام القيصر إلا في العشرين من شباط فبراير عام ١٥٥٩ . وقد عاش راندولف طول هذه المدة كسجين في البيت الذي خصص له ، فالحراس كانوا يراقبونه لكي لا يخرج منه ولا يأتي أحد إليه ليراه . وكانوا يجلبون إليه الطعام في كل يوم دون أن يحملوا إليه أية مكاتبات أو رسائل ، وقد رفضت كل طلباته والتماساته في إطلاق سراحه .

ولم يكن راندولف قد حمل معه أي رد واضح من الملكة إليزابيث على عرض القيصر بالزواج منها بل أتى بكل بساطة يسعى وراء امتيازات تجارية أكثر سعة من قبل . ولو أنه أتى برفض أحسنت صياغته فربما استقبل بكرامة وتشريف ، أما أن يجيب على طلب زواج بالمطالبة بتسهيلات تجارية أوسع فذلك كان إهانة بينة .

وأخيراً استدعى راندولف في إحدى الأمسيات الى قصر جبل
العصافير الذي يقع خارج موسكو وبقي ثلاث ساعات في محادثة مع
إيثان . وعما دار في هذا الحديث بقي السيد توماس راندولف متكتماً
لسوء الحظ .

يمكننا فقط أن نفترض أنه أعطى لإيثان انطباعاً خاطئاً وهو يظن أن
من الأفضل له كسب وده والحصول على امتيازات تجارية من أن يعرض
للخطر كل شيء بإفصاحه له عن الحقيقة القظة . ومع ذلك كان يوجد
دائماً سبب وجيه لرفض إليزابيث الزواج من إيثان وهو أنه كان متزوجاً
بالفعل . وكان يمكن التلاعب بملك بكل سر وتسلية بمسؤول الكلام عندما
يعرض التخلص من زوجته ليتخذ بدلاً عنها زوجة أخرى . على كل حال
كان إيثان مسروراً مما قاله له راندولف ، فربما أصبح الوضع أكثر
وضوحاً بالنسبة لإليزابيث إذا ماتت القيصرة ، وبخاصة إذا كان موتها
طبيعياً .

وبما أنه كان خفيف العقل فيما يتعلق بشؤون البذخ وبأموره
الشخصية فإن إيثان أعار أذناً صاغية لطلبات الامتيازات الموسعة .
وهكذا وقع معاهدة جديدة ضمن بموجبها سلامة الطرق البرية حتى
الأراضي الفارسية وبخارى ومنح الأذن ببناء مستودعات أخرى وأطلق
سراح بعض المسجونين من الإنكليز ونظم التجارة مع ليثونيا . وفي الفاتح
من سبتمبر من العام نفسه ماتت القيصرة بالسم على ما يقال .

فإذا كانت القيصرة قد سممت فإن الأكثر احتمالاً أن يكون القيصر
نفسه هو المسؤول عن تسميمها . ولم تكن القيصرة تلعب في السياسة
أي دور وغدا القيصر غير مهتم بمفاتها منذ زمن طويل ولذلك كان الحداد
الذي أعلن عليها نوعاً من السخرية . وأعلن القيصر بنفسه أن القيصرة
ماتت بالسم ولم يعارض في ذلك أحد ، بقي أن يعرف من الذي كان
موضع الاتهام .

حدثت الوفاة في موسكو . ولكن القيصر ما لبث بعد الجنازة أن سافر إلى الكسندروف وهو في مزاج شيطاني ، وما كاد يصل إلى هناك حتى صمم على أن ينتهي من ابن عمه بطرس فلاديمير أندرييفتش وعائلته . وكان خلال سنوات طويلة يغذي في نفسه هذا الانتقام ، وكان من المدهش أن يبقى ابن عمه على قيد الحياة هذا الزمن الطويل . وهو لم يتهم بتسميم القيصرة بل اتهم بتقديم السم لأحد طباطبي القصر وأغوائه بأن يضع هذا السم في طعام القيصر . ودعي الأمير فلاديمير وزوجته إلى الكسندروف وتلقى كل منهما - بحسب ما يذكره أحد التقارير - قدحا من السم أجبر على اجتراحه أمام القيصر .

ويرى آخرون أنه قطع راسيهما أو أطلق عليهما النار أو أغرقهما . والواقع أنه لم يرد شيء في الحوليات الروسية عن هذه الجريمة ولكن الذين تحدثوا عنها كانوا من الأجانب الذين زاروا روسيا . ومهما كانت الطريقة التي هلكا بها فإنهما اختفيا مع ابنيهما من صفحات التاريخ في الخريف من عام ١٥٦٩ . ويقال إن الشعب الروسي لم يخش من اظهار ألمه على وفاة الأمير فلاديمير ومن لبس الحداد عليه . وقد أعلن القيصر بكل هدوء عن مؤامرة كانت تحاك على حياته وأنه نوى أن يكون عديم الرحمة تجاه أولئك الذين شاركوا فيها .

* * *

الفصل الخامس والعشرون

الانتقام من نوفغورود

ان المبالغة في جنون العظمة هي التي دفعت القيصر لارتكاب جرائم أكبر . كان يشغله موضوع ولاء السكان في نوفغورود وبسكوف فوضع يده خلال الربيع على رهائن ضمانا له على حسن سلوك هاتين المدينتين وهكذا اقتيدت خمسمائة عائلة من بسكوف الى موسكو ومائة وخمسين عائلة اخرى من نوفغورود . ولم يكن ثمة نفور حقيقي ، ولكن سكان هاتين المدينتين كانوا يحافظون على تقاليد استقلالهم . وكانت نوفغورود هي الاكبر والاكثر فخارا بين المدينتين . اما بسكوف فكانت آخر واحدة بين الدوقيات المستقلة ضمت الى موسكويا . وكانت العائلات القديمة في نوفغورود لا تزال تذكر ان مدينتهم كانت تشكل دولة مستقلة وتستطيع عقد المعاهدات مع الدول الاجنبية . كان اسمها نوفغورود فيليكسي اي نوفغورود العظمى ، وكان للمدينة تاريخها واسطورتها وتنظر الى موسكو على انها مدينة حديثة نعمة كما ستنظر موسكو الى بطرسبورغ فيما بعد ، ولم يكن ثمة تمرد في هذه التحفظات من الكبرياء المحلية .

وكان لكلا المدينتين تظلمات ومطاعن وبخاصة بعد إنشاء الأوبريتشينا وإن لم تكونا أقل خضوعا لارادة القيصر من بقية المدن الروسية . اما الضجة التي اثيرت حول طلبهما الحماية من سيجموند اوغست فيمكن ان يقال إنها سخيفة لأن سيجموند كان قد بدا امام انظار الجميع عاجزا عن حماية المدن الاجنبية وتشهد على ذلك الحاميات الروسية الموجودة في مدن ليثونيا . وأكثر من ذلك سخفا ما قيل عن

مؤامرة حاكمها مطران نوفغورود لضم المدينة الى ليتوانيا مما يجعل الارثوذكسية تدخل طواعية في خليط من البروتستانتية والكاثوليكية الرومانية . ولكن وجد من الاشخاص من انتحل وثائق لها علاقة بهذه المؤامرة المزعومة .

وقد تسبب نقل هذه العائلات الى موسكو بدون شك في استياء عميق بقي كامنا خلال الصيف والخريف من عام ١٥٦٩ . وكان الحزن قائما في نوفغورود وبسكوف على خسارة الاقرباء الذين كانوا يذوون في المنفى وقد اودع قسم هام منهم في السجن أو اقتيد الى غرفة التعذيب وكانت ممارسة التعذيب على اشخاص من الطبقة البرجوازية تمثل لعبة وليس هوساً من القيصر فحسب . فهي عادة النبلاء وتسلية مباحة لاولادهم . وكان من المعروف أن المحظيين الثلاثة باسمانوف وسكوراتوف وفيانومسكي يتمتعون بفضاظة وشراسة كبيرتين ، بينما الابن البكر للقيصر ذو الخمسة عشر عاماً من العمر والذي يسمى إيفان أيضاً كان يشارك أباه في القسوة والعنف . وتاريخ المجتمع عن ذلك العصر غير كامل لأنهم لم يكونوا يعتبرون شراً ما يوجه الى الطبقات الدنيا من إساءات . فأن ترمى الى دب غاضب ضحية بشرية لم يكن سوى الفرجة والجريمة المرتكبة في حق الضحية لم تكن سوى مسألة قليلة الاعتبار . وكان استثناءً أن يمارس أي مالك للسلطة سلطته من غير طغيان . لقد برزت بربرية إيفان الرهيب واضحة في التاريخ ولكن كان يشجعها أيضاً ما كان يرتكبه رعاياه حتى يمكننا القول إن القيصر عندما كان يرتكب قسوة ما فإن كل الذين كانوا يمتلكون جزءاً من السلطة حتى مستوى « صف الضباط » كانوا يقلدونه في أعماله . هذا الجو من الإرهاب الذي كانت تعيش فيه روسيا كان خانقاً .

كان القيصر بحاجة الى حجة يعتمد عليها لعقاب سكان نوفغورود . وقد نجح في إلباسهم تهمة الخيانة بفضل تاجر متجول حمل الى موسكو قصة عن مؤامرة . فاستغل بعض المقربين من القيصر ما قدمه هذا الرجل من معلومات بسبب ما يكنه لهذه المدينة من ضغائن صغيرة . والقصة

التي تم الاعتماد عليها هي أن مطران المدينة والنبلاء من مواطنيها كانوا قد كتبوا رسالة جماعية الى سيجسموند أوغست يعرضون عليه أن يخلصهم من التبعية للقيصر . ولم تكن هذه الرسالة قد أرسلت ولكنها وجدت حالياً وراء إيقونة السيدة العذراء في كنيسة القديسة صوفيا في نوفغورود . وما أن علم إيثان بذلك حتى أرسل فوراً مندوباً اكتشف الرسالة المجرمة في المكان المعين . وتدل هذه الحادثة التي كان فيها توقيع الأسقف مقلداً أحسن تقليد على أنه كان وراءها رجل أكثر ذكاء من بطرس البائع المتجول . وانطلاقاً من هذه الرواية الوهمية وهذه الرسالة المزورة قرر إيثان أن يعاقب نوفغورود . وكان يومئذ في الكسندروف وقد تخلص من ابن عمه الأمير فلاديمير أندرييفتشس فقرر الآن أن يمارس جرائمه وآثامه على مسرح أوسع .

في كانون الأول ديسمبر من عام ١٥٦٩ سافر القيصر من الكسندروف في حملة تأديبية يصحبه فريق قوي من الأوبريتشينا وولده إيثان وقسم كبير من نبلائه . كان تواقاً الى الدم . وعلى الطريق الى نوفغورود قامت عصاباتة بذبح سكان كلين دون أن يشيروا ضدهم ادعاءً - سواء كان صادقاً أو كاذباً - عن إرسال رسالة موجهة الى ملك بولونيا . وهكذا انتشرت في المدينة المنكوبة الحرائق والاعتصاب والقتل والنهب وغطت الجثث الشوارع وكان بينها جثث لأطفال ونساء وامتدت المذبحة من المدينة الى قراها المجاورة . وانتشر قتلة القيصر المأجورون في كل اتجاه يلوحون بسيوفهم المسلوطة التي تقطر بالدم . وتجدد المشهد نفسه في تفير Tver حيث كان سكوراتوف قد خنق المتروبوليت القديم فيليب .

وفي تفير أخذ إيثان وقته في تعذيب الله . فبينما كان يصلي في أحد الأديرة خلال خمسة أيام كان جلادوه يتنقلون من بيت الى بيت ومن شارع الى شارع يقتلون الناس إرضاء لنزواتهم . وكان فيليب قد دفن وراء هيكل الكاتدرائية الكبير وهو يحمل تاج الشهداء .

وعلى طول الطريق من تفير الى نوفغورود كانت تتنافس وحشية القيصر ووحشية حرسه الخاص . فكل بلدة صغيرة اجتاحت بالسيف والنار ، والناس الذين قابلهم رجال القيصر في الحقول قتلوا على الفور لان « الحملة ينبغي ان تكون سرية » فلا ينبغي ان يذيع امرها احد .

وفي الثاني والعشرين من كانون الثاني يناير ١٥٧٠ وصل القيصر والاوريتشيننا الى تخوم نوفغورود . والواقع انهم كانوا يشكلون جيشاً كبيراً . وبدم شيطاني بارد وضع إيثان خطته لحرمان المدينة من سكانها . فاتخذت في بادئ الامر احتياطات لكي لا يفر منها احد وكان لا بد من ان تقام حولها اسيجة عالية . ثم اغلقت ابواب كل الكنائس بالمفاتيح لكي لا يقدم احد على إيجاد ملجأ له في هياكلها . وكان على الرهبان ان يخلوا اديرتهم التي ختمت ابوابها لمنع الضحايا من الاختباء في زناياتها المظلمة او يفرّوا منها عن طريق السرايب . وأُغلقت بيوت كل تجار المدينة الأغنياء وموسريها وأجبر سكانها على ان يبقوا سجناء في داخلها . وأوقف كل الموظفين والأفراد العاديون من رجال الدين . وأسكت كل اجراس الكنائس وغلف المدينة صمت مقلق قبل القيام بعملية التنفيذ .

وكانت خيمة القيصر منصوبة خارج أسيجة المدينة التي أمر القيصر بإقامتها . ومنذ تلك اللحظة تطلب إيثان من رجاله المسلحين إطاعة عمياء وحصل على ما يشاء . ولم يقم فوراً بإسلام المدينة الى الموت وحتى إعطائه الإشارة بذلك لم تقم فيها أية عملية قتل . كان له مخططه ، إذ كان عليه ان يدفع رواتب جيشه الذي قاده الى هذا المكان . وكانت تكاليف الحملة باهظة . وبما ان الكنيسة في شخص مطرانها كان من المفترض ان تتحمل جريرة هذه الخيانة الرهيبة فقد كان عليها ان تتحمل النفقات التي سببها العقاب . وكانت المدينة تضم آلاف الكهنة والرهبان فأصدر إيثان قراره بأن يدفع كل واحد منهم عشرين روبلاً ، فكيف يستطيع رهبان فقراء كانوا قد تخلوا عن الدنيا أن يجدوا مثل هذا المبلغ ليدفعوه لإيثان ؟ . ولكن إيثان لم يكن يهتم شيء من ذلك ! . فأولئك الذين لا يستطيعون الدفع كانت تنزع عنهم ثيابهم ويربطون الى أوتدة في

الشوارع والساحات العامة ويجلدون بالعصي حتى يقرأوا أين يخبئون ثرواتهم . والأمر الذي صدر لهم كان هذا نصه : أعطوا نقودكم أو تموتون . وعلى هذه الطريقة وجد المئات من رجال الدين نهايتهم القاسية وحملت جثثهم الى الأديرة لدفنها . لقد كان أيسر على إيثان أن يستولي على آنية الكنائس الذهبية وكنوزها بدلاً من أن يلجأ الى هذا السبيل ، ولكن ذلك كان معناه سرقة الله علناً وقد ادعى أن لديه وساوس في بادئ الأمر في أن يفعل ذلك . ولكن عندما بدا أن الضريبة التي فرضت على رجال الدين لم تكن مجزية لم ينتظر القيصر وقتاً طويلاً حتى يبدأ بنهب الكنائس مباشرة وبالذات .

في الثامن من كانون الثاني يناير دخل القيصر المدينة مصحوباً بولي العهد وبفرقة كبيرة من رجاله المسلحين ، وخرج المطران يمين متبوعاً بكل الإكليروس تقريباً لاستقباله . وجرى مشهد ليس له مثيل فوق الجسر الكبير في وسط المدينة حيث رفض القيصر بركة المطران ، وبدلاً من ذلك اتهمه بالخيانة قائلاً له إن الصليب الذي يحمله ليس شعاراً للحياة وإنما هو أداة للقتل .

« إنني أعرف نواياك ونوايا رعيته المتردة » ، هكذا صرخ القيصر ، « لقد هياكم أنفسكم للجوء الى سيجسموند فرويد . أنت لست راعياً بل ذئب مفترس وعدو للكنيسة والتاج » . ثم أمر المطران واتباعه بالدخول الى كنيسة القديسة صوفيا ، وبدأ متناقضاً مع نفسه عندما تابع الخدمة الدينية بكل صبر وخشوع . وقد سجد كما هي العادة وصلى بحماسة كبيرة ثم صار الى قصر المطران واتخذ مكانه الى المائدة مع عدد كبير من المدعوين وبدأ العشاء وبدأ أن كل شيء كان على ما يرام .

إلا أن دماغ القيصر كان يعمل بطريقة غريبة كما لو أن سحابات من الدخان كانت تستتر صفاء ذهنه . وفجأة اتسعت عيناه ولمعتا فكف عن الطعام والتفت الى الأمراء والبويار وأطلق صرخات غضب غير واضحة

الألفاظ . ورأى حرسه علامة في تلك الصرخات فانقضوا فوراً على المطران العجوز وانتزعوه وقادوه الى زنزانه وبدؤوا بنهب القصر وانتزعوا كل ما هو ذو قيمة فيه بينما كان القيصر يتابع الطعام .

وفي اليوم التالي أفصح عن نواياه بشأن العقاب . كان ينبغي أن يتقاطر في كل يوم بضعة آلاف من السكان وأن يتعرضوا للتعذيب حتى الموت أمام ناظريه وناظري ابنه ولي العهد . على أن القسوة في هذا المجال كانت متنوعة ، فالأزواج والزوجات كان ينبغي أن يتم تعذيبهم بعضهم أمام بعض . وكانت الأمهات ترين أطفالهن ينزعون من أحضانهم وتساء معاملتهم تحت أنظارهن قبل أن يضربوا حتى الموت أو يحرقوا على نار هادئة . وقد قاموا بحفر ثقب في جليد النهر وألقوا فيها بعائلات كاملة . وكان إيثان يثقف بهذه الطريقة ابنه ووريثه الذي كان مع ذلك مرشحاً للاغتيال .

ويروى أن هذه التعذيبات والاعدامات التي كانت تجري بالجملة استمرت خمسة أسابيع ثم تبعها نهب لكل ما يملكه السكان . وأخيراً غادر القيصر المدينة ليقوم بقتل مزارعي المناطق المجاورة وتخريب بيوتهم وزرائبهم . ثم زار الأديرة ليستولي على كل ما أمكنه الحصول عليه من ذهب فيها بينما قتل كل من فيها من الرهبان بحد السيف . واختفت من نفس القيصر كل الأوهام التي كانت تساوره بسبب ما يمكن أن يحدث نتيجة لنهب الكنائس ، ولم يبق في أماكن نوفغورود المقدسة ما يستحق الانتهاب . ومع ذلك فإن القيصر جمع في الثاني عشر من شباط فبراير كل من تبقى من السكان وأخبرهم بأنه عفا عنهم وطلب منهم أن يصلوا من أجله بعد سفره .

في صبيحة اليوم المذكور كانت سحنة القيصر شاحبة شحوب الأموات وقد امتطى حصانه ووقف في أحد شوارع نوفغورود ينظر بكل الى الرعاع الذين جمعهم ليستمعوا الى مقالته قائلاً بصوت خفيض وعيناه الكامدتان قد زال منهما بريق الغضب : « يا سكان نوفغورود

الذين ما زلتم على قيد الحياة ، صلوا الى الله ان يبارك حكومتنا
وقيصرها ، صلوا كي يستطيع الجيش الذي يحب المسيح ان ينتصر على
كل اعدائه الظاهرين والمستترين ، صلوا اليه كي يدين المطران الخائن
پيمين ومستشاريه الفاسدين الذين كانوا سببا في سيلان الدماء .
ولتكفوا عن انعويل والبكاء وانسوا ما تسببتم به من شر ! . عيشوا في
رخاء ! . وها انذا تارك لكم حاكمي الجديد الامير بطرس دانييلوفتش
برونسكي . والآن عودوا الى منازلكم بسلام ! » .

وهكذا انتهى عقاب نوفغورود فيليكي . وتلك صفحة من التاريخ
ليس لها ما يماثلها في تاريخ أوروبا كلها . ويقال إن ستين ألفاً من السكان
قد هلكوا . وكتب كوربسكي أن القيصر قتل في يوم واحد خمسة عشر
ألف انسان . أما توب وكوز - وهما المانيان كانا يعيشان في البلاط ،
فيقولان إن الرقم كان سبعة وعشرين ألفاً ، ولكن الآلام والموت لا يمكنها
ان تتجمع لتشكل رقماً يفهمه العابرون المحايد . ولو أن احداً لم يقم بأي
إحصاء فإن الهول الذي سببته هذه الأعمال سيبقى على ممر العصور .

عندما غادر إيفان الرهيب نوفغورود بدأ متعباً . ومع ذلك تابع
طريقه ليكرر في بسكوف ما فعله في اختها . ولم يكن جيشه قد تعب من
المذابح والانتهاك . وعندما وصل القيصر وعصاباته الى تخوم المدينة كان
الرعب قد شل سكانها ، أما القيصر من ناحيته فكان متعباً او مشغياً
الغليل . وقد قضى الليل في دير القديس نقولا خارج بسكوف بينما لم
يغمض لسكان المدينة جفن وهم يقضون ليلتهم بالصلاة منتظرين الصباح .
وفي منتصف الليل أخذت أجراس الكنائس تدق ، فاستيقظ القيصر
وتقلب في فراشه وأصفى : « إنهم يصلون لينقذوا أنفسهم من غضب
القيصر » . هكذا غمغم في نفسه . وأعجبته الفكرة ودغدغت غروره فتأثر
بها وقرر تجنيب السكان هول العذاب . وعندما دخل المدينة في اليوم
التالي استقبله السكان وهم راكعون .



الفصل السادس والعشرون

نكبة المحظيين

بعض الرجال القديسين ذوي العقول القليلة كانوا يثرثرون كثيراً في حق إيثان . كان منهم تقولا في بسكوف وفاسيلي البريء في موسكو كما كان ثمة آخرون بدون شك . « إذا كانت الأصوات البشرية قد سكنت فإن الصلوات بدأت تصرخ عليك يا إيثاشا ! . ها هي ذي قطعة من اللحم النيء خذها وكلها رغم أننا في الصوم الكبير . ذلك لا شيء بالنسبة لك يا من تتغذى بلحم الإنسان ودمه . إن غضب الله ورائك . من أجل كل عذاب الحقته بالأبرياء في هذه الحياة الدنيا سيعاقبك بعشرة أمثاله في الجحيم . كعلامة ودليل اتبأ لك أنك عندما ستحاول أن تنزل إلى الأرض ناقوس الثالوث المقدس سيقع حصانك ميتاً . لقد أرسلت ورائك صواعق الله تبحث عنك وإنها ستجده » .

يقال إن إيثان وقع في الحيرة والقلق على يد قديس ضامر الجسم من بسكوف . فقد حاول أن يقترب من هذا المتقشف الهادي ليحصل منه على بركته فهرب هذا فزعاً أمامه . كان قد تجرأ على أن يرفع يده على مطران وأمر بخنق المتروبوليت على يد واحد من خدمه ولكنه لم يتجرأ على معاقبة أحد مجازيب المسيح الذي كان يتألق بمعرفته لله . على أن من غير المؤكد مع ذلك أن يكون إيثان قد خاف فعلاً من لعنة نيقولا البسكوفي . وقد سقط حصانه ميتاً بالفعل عندما كان ينزل ناقوس الكاتدرائية ولكن ذلك لم يمنعه من أخذه ، بل إنه ملأ عدة عربات بكنوز الأديرة والكنائس أيضاً . ولم يكن خائفاً عندما كان غارقاً في تدنيس

المقدسات وسرقة الأموال التي تخص الله . ولم يمنح الحرية للمطران
بيمين بل أرسله مكبلاً بالأغلال الى الكسندروف مع عدد من وجوه
المدينة والاكليروس في نوفغورود لكي يتفرغ الى ميدان آخر من ميادين
التعذيب والموت . وعلى الرغم من أنه وفر على سكان بسكوف حياتهم
وأموالهم فإن الأويريتشينس كانت تجتاح البلاد بدون أي كابح تفتال ملاكي
الأراضي ومزارعيها وتنهب الممتلكات .

أما في اللحظة الحاضرة فإن إيفان الرهيب كان قد شفى غليله وعاد
الى الكسندروف كي يباشر فحص جريمة نوفغورود بكل عناية ودقة .
كان مقتنعا - وينبغي أن نفترض ذلك - بأن مؤامرة قد حيكت هناك .
وها هو ذا يعود الآن إلى هذا الموضوع مقتنعا بأن بيمين لم يكن له أن يتآمر
على تسليم نوفغورود الى سيجسموند أوغست لو لم يكن له شركاء
متواطئون معه في موسكو . واعتقد أن ابن عمه المتوفى الأمير فلاديمير كان
ضلعا في هذه المؤامرة ولكن لم يكن بإمكانه أن يبعث فلاديمير من قبره
ليقوم بتعذيبه . وكان إيفان يرغب رغبة حارة في أن يهاجم الأحياء فأخذ
يطرح الأسئلة على مساجين نوفغورود وخملهم على أن يقولوا كل
ما يعرفون بل وأن يخترعوا تحت التعذيب اتهامات ضد الآخرين . ومن
المحتمل أنهم كانوا مقادين بمستجوبيهم الذين كانوا يعرفون من يريدون
أن يتهموه .

ولا ينبغي أن ننسى أن القيصر كان قد ستر غضبه خلال سنوات
طويلة حتى كان اكتشاف المؤامرة المزعومة مناسبة لانفجاره . ففي صيف
عام ١٥٦٦ عندما كان فيليب يتخذ طريقه من دير سولوفنسك الى موسكو
أتت بعثة من سكان نوفغورود لمقابلته وطلبت منه أن يتوسط لدى القيصر
لكي يزول عنهم ظل غضبه . فكان لا بد إذن من وجود سبب لهذا الخوف،
سبب سينكشف في غرفة التعذيب . وكان لسكان نوفغورود أقارب
وأصدقاء في البلاط فأوقفوا بعضهم في إثر بعض وعذبوا لكي يحصلوا منهم
على معلومات أوسع . وفي خلال خمسة أشهر قام القيصر وزبائنه
بالتعذيب حتى حصلوا على براهين .

وكان التحقيق قد اتخذ له طريقاً أدى الى مفاجئات لم تكن متوقعة لأن المحققين ابدوا رغبة حازمة في إدانة محظي القيصر . فقد شهد شخص اسمه فيدور لوفشيكوف بأن الأمير فيازيمسكي كان قد اخطر بعض سكان نوفغورود بأن عليهم أن يهربوا من غضب القيصر ، وكان ذلك كافياً لجعل أقرب محظي القيصر منه في موضع الاتهام بالخيانة . وقرر إيثان إعدامه . ولكنه بحسب عادته أرسل يستدعيه وكان له معه حديث ودي حول قضايا الدولة دون أن يشير بأي تلميح الى شكوكه أو نواياه . ثم خرج فيازيمسكي مع كل مظاهر المحبة الحارة والثقة ، ولكنه عندما وصل الى بيته شاهد أن معظم أفراد بيته قد ذبحوا . واقتصر فيازيمسكي على هز كتفيه لأنه كان هو نفسه قاسياً بدون قلب . كان قد ظاهر إيثان واشترك في كل مجازره فهو يستطيع أن يتحمل بكل طيب خاطر قتل أفضل الخدم لديه . ورباطة جأشه في هذا الظرف - كما خطر له - إنما هي برهان على ولائه الثابت لسيدته . ولكنه كان مخدوعاً ، ففي المساء نفسه كانت نهايته الرهيبة .

وقد نال المصير نفسه كل من الكسي باسمانوف وابنه تيودور الذي كان رفيق القيصر في قصوفه وعربداته ، وكان فظاً وسوقياً وداعراً . ووقع عدد من أكثر أفراد الأوبريتشما حبا لسفك الدماء ضحايا القسوة والجرائم التي ارتكبوها ، فعذبوا ولكن دون أن يقتلوا على الفور لأن القيصر كان يجمع ضحاياه ويحتفظ بهم ليكونوا خاتمة انتقامه الكبيرة من نوفغورود . وفي الوقت الذي كان يحل فيه غضبه على محظييه كان يوجد كثير من الأشخاص الآخرين الأبرياء يبلغ عددهم حوالي الثلاثمائة من أمثال إيثان فيسكوفاتي عضو مجلس البويار وسيميون ياكوفليف ونيكيتا فونيكوف ورجلي الدين قاسيليف وستيفانوف كانوا يُعدّون لاعداء جماهي في موسكو .

ويبدو غريباً أن هذا المتوحش إيثان قد انتظر كل الصيف من عام ١٥٧٠ لكي يعرف ما إذا كانت الملكة إليزابيت تريد الزواج منه أم لا تريد . كان أرمل ساخطاً ولكنه في انتظاره لم يتخذ له زوجة أخرى بعد القيصرة

المتوفاة . ولم يكن سفيره في لندن يكف عن الحاحه في البلاط لكي يرسلوا
أنطوني جنكنسون الى روسيا وأن يكون جواب الملكة « مكتوبيا باللغة
الروسية لأن سيده لا يفهم لغة أخرى » .

وكتبت له الملكة يوم الثامن عشر من أيار . ١٥٧٠ ولكن رسالتها
لم تتعرض لأمر الزواج . كلا لم تفعل . إلا أن جلالتها كانت مؤمنة
بالمؤامرات التي تحاك حول القيصر ، وعرضت عليه في حال إضاعته
لتواجه أنها تؤمن له المجيء الى انكلترا والخروج منها على هواه مع
تخصيص سكن مناسب له يستطيع أن يقيم فيه ما يشاء من الوقت على
أن يتكفل هو بمصاريفه ونفقاته .

ولم يعجب ذلك إيفان . فسحب ما كان يخص به الشركة الروسية
من امتيازات وصادر بضائع بعض تجارها بل وألقى بهم في السجن . ثم
ما لبث أن اكتشف أن بعض التجار الانكليز كان لهم صلات مع الخونة ،
ذلك لأنه كان من الصعب في ذلك الوقت أن تجد روسيين في منجى كامل
من تهمة الخيانة ، ومن كان محظيا اليوم سيكون خائنا في الغد .

ومع ذلك فإنه عندما جاء يوم الإعدام العظيم في الخامس والعشرين
من تموز يولييه ١٥٧٠ لم يكن بين السجناء المرشحين للموت أي واحد من
الانكليز . وربما لم يكن القيصر يطيل التفكير في القضايا الخارجية لأنه
كان مستغرقا تماما في نزوات اجرامه وقسوته .

كانت قسوته تغذي نفسها بنفسها حتى أصبحت سرطانا متوحشا .
وفي استغراق القيصر العقلي لم يكن يوجد أي بصيص للشفقة أو العطف
الانساني . وفي غرف التعذيب وزناناته كان ثلاثمائة الأشخاص يعذبون
ويعزقون ويحرقون وتبتر أعضاؤهم على أن يحتفظ بهم على قيد الحياة .
وفي الساحة العامة بين دكاكين كيتايي غورود نصبت آلات جهنمية كثيرة
منها غلاية ضخمة مليئة بالمياه ومعلقة فوق كومة من الحطب ، ومقلاة

ذات سعة كبيرة ، وأسلاك متحركة صلبة تستطيع أن تقسم الجسد الى نصفين ، واقفاص فيها دبب غاضبة ومشائق .

وعندما رأى أصحاب الدكاكين في كيتايي غورود آلات التعذيب هذه هربوا واختبئوا وراء مكاتبهم تاركين بضائعهم وصناديقهم الملبئة بالاموال دون حراسة . واخذ الناس في موسكو يبحثون عن ملجأ لهم في اقبيتهم لا يودون الخروج منها . وبدا أن احداث نوفيغورود ستعاد من جديد مع سكان العاصمة . وفي هذا اليوم الصائف خلت كل شوارع المدينة الكبيرة وساد زمر بين الجميع ليس له مثيل . ولم يكن يسير في الشوارع الاقاسيلي العاجز ابنة المسيح وهو يشتم القيصر عندما كان يمر . وقد اطلق اسم قاسيلي قديس الشعب بدلاً من اسم كاتدرائية شفاعة العذراء على تلك الكاتدرائية الكبيرة المقامة في الميدان الاحمر وذلك بموجب التكريس الذي أمر به القيصر .

ثم ظهر السجناء وهم لا يكادون يقدرّون على الحركة . وكان الجلادون في أماكنهم كما اتخذت كتيبة من الأوبريتشينا مكاناً لها أيضاً . وكان إيفان يرقب الأمور من فوق حصانه ولكن لم يبد أنه كان في الساحة أي متفرج . فقد قاطعت موسكو هذه المسرحية وبدا القيصر ممتعصاً من ذلك . كان يعتقد أنه يقدم لرعاياه استعراضاً كبيراً ولكنهم كانوا يرفضون الخروج من منازلهم ! كان يحتاج إلى متفرجين . لذلك أمر بإيقاف التنفيذ حتى يجوب أفراد حرسه المدينة ويأتوا بعدد من الناس لحضور الاحتفال . أما هو فكان يدور على فرسه في الشوارع وهو يصيح : « هيا أيها الناس الشجعان ! ليس عليكم أن تخافوا ، لن يؤذيكم احد ! » .

وهكذا انتهى الأمر بمسرح الموت هذا أن امتلأ بالرجال والنساء المرتجفين ليكونوا متفرجين بالإرغام . وقد بلغ بهم الأمر من أجل تحقيق ذلك أن غزوا سقوف المنازل والمناطق الأكثر ارتفاعاً منها للتفتيش من المختبئين من الناس . ولكي يستهل الحفل وجه القيصر سؤالاً للجمهور

عما إذا كان معه الحق في تدمير الخائنين فصاح الجمهور « عاشت جلالتك » .

وبدأت العمليات بتوزيع العفو على البعض . وكان أول المستفيدين منه هو يمين مطران نوفغورود الذي نفي الى دير بعيد . وقد منح العفو بوجه خاص لسجناء نوفغورود ، ولم ينله سجناء الدولة المستجدين الذين وشى بهم أولئك الذين تعرضوا للتعذيب . وكان بين هؤلاء الآخرين من تغيبوا مع ذلك عن هذا الاحتفال . ففيازيمسكي كان قد قضى نحبه تحت التعذيب بين يدي الجلادين ، وبازمانوف الكبير كان قد مات هو الآخر في السجن . ويقال ان إيثان أجبر تيودور بازمانوف على أن يقتل أباه لكي تناله اللعنة الأبدية أيضاً بعد الممات . وقد وصل تيودور بازمانوف الذي كان راهباً فيما مضى في أخوية القيصر الهزلية في ألكسندروف وخدينه في مفاصله وعربداته وعهره وصل مقيداً بالسلاسل كالأخرين ولم ينل لا موتاً سريعاً ولا أصابه عفو في الدقيقة الأخيرة من الحياة .

أما السجين الرئيسي فكان الأمير فيسكوفاتي الذي علق ورأسه إلى الأسفل ومزق جسده الى شرائح . هذه العاصفة من التعذيب والقتل دامت أربع ساعات . وكان ذلك اليوم بالنسبة للقيصر وابنه يوماً حافلاً لما تمتعا به من سرور ليس له حدود . وقد قتل القيصر بيده أحد السجناء بواسطة عصاه ذات الرأس الفولاذي المشحوذ . وبعد الاحتفال ذهب الأب والابن إلى بيت إيثان فيسكوفاتي فاستوليا على كل ما فيه من كنوز واغتصب القيصر أرملة البائسة واستولى ابنه على ابنته البكر . وكان هذا المشهد هو المشهد العائلي لأعمال التعذيب والقتل ، ان يغزو إيثان ووريثه منزل السجين الرئيسي ويغتصبا من فيه من نساء . وتكفلت الأوبريتشينا ببيوت السجناء الأقل قيمة ، وتجاوزت الوحشية الجنسية مجرد الاغتصاب ، فكلمة اغتصاب غدت هنا مجرد تلميح بالنظر لما حدث لبعض النساء . وكخاتمة لائحة لهذه

المخازي أغرقت ثمانون أرملة في نهر الموسكوفا . على أن وصفنا مهما بدا
فظيحا لهذه المآسي فينبغي الاقتناع بأن الحقيقة كانت أمر من ذلك وأسوأ .

ثم عادت الأعمال البربرية بعد ذلك ببضعة أيام . وكانت مزق
الأجساد البائسة المشوهة تنتشر في العراء وتتفسخ بسرعة في حرارة
شهر تموز . فصدرت الأوامر إلى الأوبريتشيننا بأن تقطع هذه الجثث
إلى قطع صغيرة كي يمكن التخلص منها في أسرع وقت . وأخذت كلاب
موسكو تتنافس على اللحم المسيحي . وكانت الشوارع مليئة ببقايا
لحم إنساني تم افتراسه نصف افتراس . بينما كان الموسكوفيون غير
العابثين يركلونها بأقدامهم لدى دخولهم أو خروجهم من الدكاكين .

ولكن أجراس الكنائس مالبثت أن أعلنت عن مصيبة أرسلها الله .
وانتشر رعب أشد وأدهى ، فالأجراس كانت تنبئ عن وصول الطاعون .



الفصل السابع والعشرون

خراب موسكو على يد التتر

في الشهر التالي كان القيصر يحتفل بعيد ميلاده الأربعين . وكان العيد مناسبة للأفراح والمسررات بمشاركة من المحظيين . وكان البهلوانات والمهرجون والمضحكون يقومون بتسليية الملك الذي انهمك بجلسات الشراب الطويلة ومآدب الطعام والافراط في الجنس . وكان قد غدا اكلولا نهماً ونظره يسوء سريعا ولكنه لا يزال منتصب القامة ومظهره وهياته يوحيان فورا بالرعب . كانت السمنة تغزوه ووجهه الوحشي يحمل علامات فجور جامع وحذر ليس له حدود وقد ظهرت علامات الشيخوخة المبكرة وغزا رأسه المشيب حتى كساه . وبما أن القسوة تولد الجبانة فقد كان لديه شعور بالخوف كان يزداد شيئا فشيئا حتى محا في السنوات الأخيرة كل ما كان يملكه من روح للقتال . وكان الكثيرون من ضحاياه قد اظهروا له بقوة خصالهم أن الشجاعة الأدبية يمكنها أن تنتصر على الألم . وقد مات رجال تحت الألم الشديد وهم لا ينفكون يصرخون : « فليحم الله القيصر ! » . ومع ذلك فإن جنون إنزال العقوبات بالآخرين لم يعلم الطافية ما هو الألم . كان خلوا تماما من الشفقة ولكنه كان في ذهنه يضخم فكرة العذاب حتى أصبح اقل قدرة على مواجهة الألم المرتقب . وعندما قام خان القرم في ربيع السنة التالية بمساعدة اللاجئين من الروس بتهديد موسكو لاذ القيصر بالفرار وترك عاصمته لمصيرها المحتوم . لقد اختفى إيثان المؤمن الظافر في قازان كما اختفى إيثان المندفع الذي استولى على بولوتسك .

لقد نالنا التعب من قراءة لائحة الجرائم التي ارتكبتها القيصر ، ومع ذلك ينبغي علينا أن نفترض أن هذه الجرائم كانت لا تزال تسلتي أولئك الذين كانوا ينظمونها أو الذين كانوا لها من المتفرجين . وكان من بين هؤلاء القتلى إيثان فورونتيوف ابن صديق القيصر في صباه . ولقد نسي الكثير من الأسماء وعددها عظيم ، ولكن بين ما يذكر منها توجد أسماء قواد حرب مشهورين وأبطال وسادة بهاليل ورجال كان لهم علاقات وثيقة مع العائلة المالكة .

وكان لمعظم هذه الجرائم صفة من بربرية خاصة وقسوة نادرة تعجب جهابذة الخبراء . من أمثلة ذلك أن فويغود سولو خفاستوف عندما علم أنه كان في خطر اختبأ في أحد الأديرة على الأوكا ، فلما علم إيثان قال : « إنه يسعى إلى الله فلنساعده على أن يصعد إليه » ، ثم وضعه في برميل بارود وفجره فيه .

وفي يوم آخر أمر بأن تطلق دببة غاضبة وسط جمهور متجمع في أحد أسواق موسكو ليرى كيف تمزق ضحاياها وتأكلهم ويشاهد الرعب الذي سبتملىء به صدورهم .

وفي مرة أخرى بينما كان إلى المائدة صب حساء حارقاً على أمير مضحك فزمجر الأمير من الألم وفر من مجلس القيصر الذي سارع بزرع سكينه في صدره وأرداه قتيلاً على الفور . وفي جلسة مماثلة بعد ذلك تجرأ أحد أفراد الحاشية المسمى ميتكوف على أن يقول للقيصر إن البيرة التي يشربها كانت ممزوجة بدماء ضحاياه ، فرفع القيصر عصاه المدببة بالحديد وأخذ يضربه بها حتى الموت . وفي مناسبة أخرى قام نبيل ليفوني سجين كان على وشك أن ينفذ فيه حكم الموت بالانقضاء على القيصر أولاً أن ولي العهد أوقفه بضربة من خنجره فأرداه . مرحى أيها الأمير الصغير ! : فانت لا تقل قسوة عن أبيك ، فهم لم يكونوا ليقتلوه كي يجعلوا منك قيصرًا بدلا عنه ! . وبديهي أنهم لم يتحدثوا عن حياة ولي العهد كما تحدثوا عن حياة أبيه ولكنهما كانا بدون شك صنوين في الجريمة والفجور

كما كانا كلاهما بدون شفقة ولا خجل . ولم يكن بين الاثنين إلا شعور الود والاتفاق ، ولا بد أن سبب ذلك كان مرده الى توافق ذوقيهما وأن الأب في فسقه المتعمد لم يكن يضع مانعا أمام فساد ولده ، فقد كانا متفقين بكل فظاظة حتى ليقال انهما في السنوات الأخيرة قد اعتادا على أن يتبادلا بينهما زوجتيهما .

وحل خريف عام ١٥٧٠ فكان مأساوية بالنسبة لروسيا . فبسبب ما ارتكبته الأوبريتشينا من غزوات على أراضي كل أولئك الذين ليسوا من عصاباتنا غدت كثير من الأراضي بدون حرث وزرع . وانتشرت السرقات بلا تمييز دون أن يدفع عنها الا القليل من التعويضات المشروعة، وارتفعت الضرائب العينية للعم الأوبريتشينا والجيش ومصروفات بيت القيصر حتى اضطر المزارعون الى تحديد زرعاتهم حتى لا تؤمن لهم إلا غذاءهم الضروري . وتبع ذلك نقص في المحصول . كان المطر غزيرا في الصيف من عام ١٥٧٠ . وفي الخريف شح القمح والشيلم . وفي الشتاء كانت المجاعة حتى أن الفلاحين اضطروا لاكل لحاء الأشجار . وجرت مشاهد من اكل اللحوم البشرية في بعض المناطق حيث افترست بعض العائلات مواليدها المحدثين . وتبدى غضب الله بأشكال مختلفة وناء بكله فوق روسيا . وانفجر الطاعون مع المجاعة في الوقت نفسه . وبعد الطاعون والمجاعة أتى الحريق وسيوف التتر ، فقد غزت القبيلة روسيا مرة أخرى مدمرة في طريقها كل شيء .

كان إيشان يتوقع الخطر . فأرسل في نحو من أواخر عام ١٥٧٠ رسالة تملق إلى السلطان العثماني ليطمئن إلى أن قبيلة المحاربين المسلمين لن تهاجم مؤخرته عندما يوجه القسم الأقوى من جيشه لمقاتلة السويديين والليفونيين المتمردين ولكن سفراءه لم ينالوا النجاح . وكان يوجد يومئذ في القسطنطينية عدد كبير من الروس الهاربين من وحشية الأوبريتشينا يقنعون السلطان بأن القسم الأكبر من روسيا كان مستاء من قسوة القيصر الذي بانغماسه في الفجور اضاع هيئته وسلطانه . وكان الإسلام يومئذ في عز قوته فنصف أوروبا ترتجف أمام تهديد الهلال .

ولم تكن عدوبة التملق التي أبدأها سفراء القيصر إلا لتزيد في قناعة السلطان بأن الساعة قد أزفت لكي ينتقم التتر من الهزائم والإهانات التي أنزلها القيصر بهم من قبل . وقد طالب السلطان بإعادة قازان واستراخان ، فإذا لم يكن فدفع جزية سنوية .

ولم يكن إيشان يتوقع تلك السرعة المعجزة التي استطاع بها التتر أن يتحركوا بها في الربيع . فقد ردت جماعات لا حصر لها من الفرسان على نداء الخان(*) كما لو أن ساحراً بعثهم بعصاه . ولم يكونوا قد قاموا بأي إعداد ولا حصلوا على أي تموين ، وإنما هي قوة لا تقاوم تقدمت من الجنوب كسحابة مشحونة بالأعاصير . وغرقت موسكو بالدهول . ولم يكن لدى القيصر وقت لاستدعاء جيشه من الشمال الغربي بينما لم تكن الفرق المتمركزة على الأوكا تمثل إلا قبضة من الرجال . وقد ترك القيصر حفلات لهوه وقصوفه في موسكو مرتين لزيارة جيشه على أمل أن يرفع ذلك من مركزه . وكانت إهانات الخان قد سبقت القبيلة في مسيرتها ، وقام ديفليت غيراي بتحدي القيصر لمنازلاته في معركة فردية لكي يقطع أذني هذا الطاغية ويرسلهما للسلطان . ولم يكن يشك في أنه سيكون كل شيء يقف في طريقه . ولم يكن إيشان غيباً ولا بطلاً فرأى أنه لا يستطيع مقاومة تقدم مائة ألف من التتر الغاضبين تساندتهم فرقة من اللاجئين الروس .

بعد هجوم جانبي على بيلسكي وموتيسلافسكي تقدم الخان بسرعة إلى سيربوخوف حيث كان القيصر يعسكر مع القسم الأكبر من الأوبريتشينا . ولم يكن إيشان يريد أن يموت في النزال ولا أن يتعرض لخطر الوقوع أسيراً في يد عدو لا رحمة لديه . وهكذا فر من ساحة العراك حتى الكسندروف ، ولكنه لم يشعر هناك بالأمان فقرر اللجوء إلى وسط جيشه في الشمال الغربي واستمر في انسحابه في اتجاه ياروسلاف .

(*) يقصد بالخان خان القرم التتري وكان تابعا للسلطان العثماني . - المترجم -

في خلال ذلك كان الخان يدمر كل شيء أمامه ويقترب سريعاً من موسكو . كان ذلك الانتقام الأكبر . وقد تسبب التتر ببليلة ليس لها مثيل وهم يطردون أمامهم الآلاف من الهاربين المدعورين حتى المدينة . وكان الجيش الروسي قد انسحب إليها واتخذ مواقعه لمباشرة معارك الشوارع ، ولكن المعركة لم تحدث لأن النار والدخان اتيا بالنصر بعد أن أخذت الريح تعصف بالمدينة المبنية بالآخشاب . وعندما وصل الخان أصدر أوامره بأن توضع النار في الضواحي ، فارتفعت السنة اللهب تطارد الروس بضراوة أشد من ضراوة العدو . وخلف هذا الستار الواقعي كان التتر يتقدمون ببطء ، ومن أسلم نفسه منهم للنهب هلك مع من هلك من الروس . ولم يكن الخان كثير الفطنة . فقد كان بإمكانه الحصول على أفضل النتائج لو اكتفى بحريق صغير . ولكنه كان يبحث جنوده على أن ينشروا خارج المدينة هذا الحريق الذي دمرها كامل التدمير . وهكذا ضاع القسم الأكبر من الغنيمة . ولكن من وجهة النظر الانتقامية كان انتصار التتر رهيباً وكان أكثر رهبة منه أن تتمكن موسكو من استعادة ما فقدته من ثروات وكان الدخان الكثيف النفاذ يرمي اللهب القاني ويمضي من حي إلى حي خائفاً ومدمراً كل أولئك الذين لم يتمكنوا من الهروب حتى بلغ عدد الذين هلكوا أرقاما كبيرة .

أما الروس الذين وقعوا أسرى في أيدي التتر فكانوا أولئك الذين أسعفهم الحظ فتمكنوا من الفرار إلى الضواحي الشمالية هرباً من النيران ودمرت المدينة المبنية من الآخشاب تدميراً كاملاً ولم يبق منها إلا بعض الجدران وبعض الكنائس المبنية من الحجارة . وقاومت أسوار الكرملين النيران بينما كانت أبوابه قد أغلقت في أغلب الظن بأمر من المتروبوليت سيريل الذي تمكن من النجاة بكل ثان بينما كانت رعيته يشوون . وفي خلال ثلاث ساعات هلك أكثر من نصف مليون إنسان . وكان أشد المشاهد فظاعة منظر الجماهير وهي تتزاحم وتندفع نحو الساحات الخالية فتقع في الفخ وتحاصر ويطأ بعضها بعضاً فلا تستطيع التقدم ولا التأخر ، أما وجوهها فشاحبة شحوب الموت من الفزع والهول وعيونها

نصف معمىة من الدخان ، يسحقها سقوط الكتل الملهبة وتخنقها جرارة
لا تحتمل وتشويها ويوقفها اندفاع مفاجىء لنفثات كثيفة من اللهب
فتسقط كما يتساقط اللباب . وامتلا النهر والحفر المحيطة بموسكو
حتى اترعت بعدد كبير من الناس المحملين بالذهب والفضة والمجوهرات
والكنوز وهم يأملون النجاة والاحتفاظ برؤوسهم سليمة فوق المياه .

ولقد كان مشهد هذا الحريق مرعباً لدرجة أن خان التتر اضطر الى
الانسحاب . فلم يكن ثمة مجال للنهب وسط الرماد الحار وليس
بالامكان تعرية الجثث مما عليها من ثياب . ولم يلق الحصار على الكريملين
ولم يوجه الرماة نبالهم الى القصور والكاتدرائيات التي يضمها لان
النتاج الرهيبة لهذه المذبحة جمد القبيلة الغازية . وعندما سرت
الاشاعة بأن ماغنوس(*) كان يحث السير على رأس جيش كبير عاد التتر
المنتصرون ادراجهم سالكين الطريق نفسه الذي قدموا منه . ووصلت
اخبار الانسحاب للقيصر الذي كان قد غادر ياروسلاف الى روستوف
الكبرى فأصدر امره الى ميشيل فوروتنسكي بملاحقتهم ، ولكن الخان
كان أقوى من أن تقلقه مثل هذه الاعمال في مؤخرة قوته . وقد استمر في
أعماله التخريبية أثناء الانسحاب وفتح كما لو أن في يده منجلا كبيرا
ممرأ واسعا من الشمال الى الجنوب . اما الغنيمة التي حملها رجاله
فكانت عظيمة . فكانت تضم مائة ألف من الصبايا المخصصين للبيع
في أسواق النخاسة أو الدخول في حريم الامراء ، والنخبة من الجميلات
بينهن كان لا بد من أن تقدم الى السلطان نفسه . ولكن هذه المنهوبات
وهذا الانتقام الذي تم باحراق موسكو كانت الثمار الاكثر وضوحا
لانتصار وقام إيثان يلتمس الصلح يجله الخزي والعار . وعندما توجب
عليه أن يوقع هذا الصلح اخذ يتحايل ويسوف ويعبىء قواته وينظم
نفسه . وفهم الخان أنه لن يتمكن من تجديد الهجوم فطلب اعادة قازان
واستراخان ولكنه لم يحصل على شيء من ذلك

(*) ماغنوس Magnus دوق هولشتاين .

- المترجم -

منذ ان كان القيصر في الكسندروف أصدر اوامره برفع انقاض
العاصمة . ووصل سكان الريف لبناء مدينة جميلة لم تلبث ان انبثقت
كعجوبة من العدم لتكون موسكو جديدة مبنية بالخشب فوق اساسات
من الجير . ولم تؤثر هذه الكارثة في إيقان كما فعل حريق موسكو
السابق فلم يسلم نفسه لتوبة كبيرة ، ولكنه عندما تباهى أمامه سفير
الخان بانتصارات سيده وبخه توبيخات قاسية عندما قال له : « إنها
يد الله التي عاقبتني بسبب خطاياي ، اما الخان فلم يكن الا آلة لتنفيذ
غضب الله » .



الفصل الثامن والعشرون

زيجات جديدة للقيصر

تلقت العائلات الروسية أمراً جديداً بإرسال بناتها الصالحات للزواج ليتمكن إيثان من رؤيتهن واختيار زوجة من بينهن . فلم يكن عليه إلا أن يتكلم ، ومن ذا الذي يجرؤ على الاحتفاظ بابنته مخبأة عنه ؟ . كانت الدعوة عامة تشمل النبلاء والتجار والبورجوازيين . واقتيدت آلاف الفتيات الى القصر في الكسندروف في صحبة ذويهن وقام القيصر وولي العهد بتفحصهن . ولم يكن رماد العاصمة قد برد بعد عندما تهيأ إيثان لإقامة احتفالات كبيرة من أجل زواجه الجديد لأن ضربة الحظ السيء لم تكن قد أثرت فيه . أما اكتشاف زوجة جديدة فكان تسلياً بالنسبة للأب والابن . وقد تقرر أن يقوم ولي العهد أيضاً باختيار واحدة من بين هذا الحشد من الفتيات . وكانت كل واحدة منهن تسأل شخصياً من القيصر نفسه حتى استغرق الانتقاء أياماً طويلة . وقد تحدد العدد في البدء بأربع وعشرين ، ثم بانثني عشرة ، وخضعت هؤلاء الأخيرات لفحص طبي وفحص آخر قامت به نساء عاقلات ليقدمن معلومات دقيقة عن كمالهن الجسدي ولم يتدخل في ذلك أي اعتبار سياسي . كان المعيار الوحيد أن يكنّ من الناحية الجنسية مرغوباً فيهن . واتخذ القيصر من نفسه اختصاصياً خبيراً ومستشاراً أميناً نيابة عن ابنه المراهق .

وأخيراً تم الانتقاء . فاحتفظ إيثان لنفسه بمارتا سوباكين ابنة أحد تجار نوفغورود بينما احتفظ ولي العهد لنفسه ببيثدوكيا ابنة أحد البورجوازيين ورفع والدها الفتاتين فوراً الى رتبة البويار . وتزوج إيثان

من مارتا يوم الثامن والعشرين من تشرين الأول اكتوبر ١٥٧٠ بينما كان زواج ولي العهد في الثالث من تشرين الثاني نوفمبر .

وفي الأسبوع الذي سبق زواج القيصر جرت بعض الإعدامات التي كان بين ضحاياها أخو القيصرة الأخيرة .

وكان المتهمون الرئيسيون ليكونوا ضحايا ضراوة القيصر الجديدة هم الذين كان ينقصهم الولاء أثناء مقاومتهم للخان : إلا أن استياء إيثان كان له مصدر آخر أيضاً هو الكراهية التي كان يكنها بعض البويار لمحدثي النعمة من أمثال سوباكين وسابوروف . فلما مرضت زوجة القيصر الشابة كان مرضها بدون شك من فعل السحرة . وبحسب ما يقوله إيثان فإن مارتا كانت مريضة منذ أن تزوجها وأنه لم يتم عملية الزواج . وقد يكون ذلك صحيحاً أو ربما لم يكن إلا ثمرة تخمين . فإذا نحن أخذنا بعين الاعتبار الاحتياطات الطبية التي اتخذت والمعلومات التي قدمت لبدا لنا من غير المعقول أن يكون القيصر قد تزوج فتاة مشرفة على الموت . فقد توفيت بعد خمسة عشر يوماً من الزواج وأعلن إيثان فوراً أن مارتا - كما حدث مع Anastasia ومع ماري الشركسية - قد ماتت بالسم . وادعى أنه كان يعتني بها ويعالجها طول هذه الفترة وأنه ماتت عذراء . ولكنه كان قد غدا منحلاً من الناحية الجنسية بل ويمكن أن يكون لها حوله شكوك أخرى . فنحن نجهل ما الذي دبره خلال هذه الأيام الخمسة عشر من حياته الزوجية التي انتهت بموت زوجته .

وبحسب قانون الكنيسة الأرثوذكسية لا يمكن للرجل أن يباشر أكثر من ثلاث زيجات . فلو أن إيثان زاعى هذا القانون فإنه كان سيبقى بعد وفاة مارتا عازباً حتى نهاية حياته . ومن أجل ذلك صرح بأن مارتا ماتت عذراء لأنه لم يكن ينوي أن يبقى عازباً ولا يريد في الوقت نفسه أن يدخل في نزاع مع الكنيسة في موضوع أساسي وتقليدي مثل قانون منع الزواج للمرة الرابعة . وهكذا سعى لأن يثبت أن زواجاً لم يتم لم يكن زواجاً لكي لا يزدري الشرعية الخالدة لهذا الزواج وذلك بأن يقيم الاعتبار

للناحية الجسدية لا للناحية المعنوية منه . وكاد هذا النقاش أن يؤدي الى صعوبات جسيمة لولا أن المتروبوليت سيريل قد مات وكانت سلطة القيصر أكبر من سلطة الأساقفة فما لبث أن كان معه الحق وتزوج في العام التالي للمرة الرابعة .

خلال الصوم الكبير من عام ١٥٧١ قرر القيصر أن يقود اتا كولتوفسكا الى سريره ولكنه أراد أن يذل مباركة الكنيسة لكي يمكن أن يسمى هذا التصرف زواجا . ولم تكن هذه الأتا التي راققت لعينيته تنتمي الى عائلة من طبقة التجار وإنما كانت من عائلة تنتمي الى طبقة حقيرة جداً . وأعدَّ ليونيد مطران نوفغورود المرتشي لنوال موافقة الكنيسة على هذا الزواج الرابع قبل تعيين متروبوليت جديد . وكان أحد الشروط الغريبة لهذه الموافقة هو منع القيصر من دخول أية كنيسة حتى نهاية الصوم وأن ينحرم من نعمة القربان المقدس ، على ألا يطبق تسامح الكنيسة هذا إلا على القيصر ولا يمكن اعتباره سابقة لأي فرد من رعاياه للقيام بمثل هذا التجاوز لقوانين الزواج .



الفصل التاسع والعشرون

وفاة سيچسموند اوغست

عند ذلك توجه القيصر ومعه ابنه ومحظيوه وامراته الصبية الى نوفغورود كي يعقد هدنة مع السويد إذا كان ذلك في الإمكان . ونظراً للخطر الذي كان يتهدد موسكو في أن تتعرض لهجوم تتري جديد حمل إيشان معه قسماً كبيراً من كنوزه الى نوفغورود . ففي هذه المدينة كان يشعر أنه في أمان أكبر وأنه أقرب الى جيشه ولم يكن يتوقع قطعاً أن الناجين من سكانها الذين قام بالمذبحة فيهم يمكنهم أن يقوموا بأية محاولة لاغتياله . ولكن نوفغورود كانت مدينة ميتة ، فالبيوت مهجورة والمدينة لم تكن قد ارتفعت بعد والكنيسة وحدها كانت هي المزدهرة التي تتمتع بالرخاء . فقد كان في روسيا فيض من الرهبان والنسك بحيث أن هلاك بعضهم لا يبدو له أثر في المجموع . وقد امتلأت الأديرة والصوامع من جديد . وكان بإمكانهم أن يحتفظوا لإيشان بضغينة في نفوسهم لما قام به من سلب للهيكل ولكن المطران ليونيد الذي كان صنيعته لم يكن ليوجه له أي لوم على خطايه . وكان القيصر يشعر براحة أكبر مع الرهبان والكهنة من أن يكون مع المدنيين ، فالتجار كانوا بلا ثقافة ولم يكن غيابهم يسبب له أي إزعاج . وقد ذهب الى نوفغورود ليسلم نفسه التقى والورع في الأديرة وقصر المطران ويناقش في نقاط لاهوتية ويدير اجتماعات الكهان . وقد جرت مناقشات طويلة مع رجال الدين ، ولكن بما أنه كان مسلحاً دائماً بعصاه فقد كان يحدث غالباً أن تنتهي المناقشات بفظاظة وبطريقة تدعو للراء .

وقام ادعاء بأن إيثان عندما هرب الى نوفغورود كان يزرع تحت وطأة خوف جبان . ولكن مع أنه كان أكرم له وأكثر شجاعة أن يبقى في موسكو لمجابهة التتر الغزاة فإن المرء لا يكاد يكشف في سلوكه شيئاً يدل على الجبن . كان سعيداً في زواجه الجديد . ومع أنه كان يدعي دائماً بأنه في خطر فقد عامل المبعوثين السويديين والليتوانيين بحزم يشعرنا بأنه كان واثقاً من نفسه ومن مكانته . وعلى الرغم من أنه كان بحاجة الى كامل جيشه للدفاع عن موسكو في وجه التتر فإن هدفه في نوفغورود كان فرض الصلح على السويد لا أن يطلبه . ولم يكن أقل من ذلك ثقة تجاه بولونيا وليتوانيا .

وفي النصف الثاني من عام ١٥٧٢ جرت أحداث مثيرة . كانت تلك فترة هامة من عهد إيثان الرهيب . فقد مات سيجموند أوغست في الثامن عشر من تموز يولييه ، وفي الفاتح من آب أنزل ميشيل فورتنسكي انهزيمة بجيش الخان الضخم الذي كان قد تقدم الى بعد مرحلتين من موسكو . وعاد إيثان على الأثر الى العاصمة ليشكر جيشه ويحل الأوبريتشينا .

كان سيجموند قد مات فقيراً بعد أن أفلسته محظياته والعدد الكثير من الفضوليين الذين كانوا يعيشون في بلاطه حتى أنه لم يوجد لديه من المال ما يكفي لدفنه على ما يليق . ويقال إنه على فراش موته عيّن إيثان ليكون خليفة له . ولكن ذلك أمر غير معقول . ما حدث أن عدداً من النبلاء البولونيين والليتوانيين كانوا أنصاراً لإقامة مملكة مزدوجة تحت صولجان فيدور الابن الأصغر لإيثان . وقد صرح القيصر : « إذا كنتم موافقين على فيدور فلم لا أكون أنا ؟ » . إلا أن بعض البولونيين والليتوانيين كانوا يخافون بدون شك أن يكون ذلك مبالغاً فيه . وقد كتب إيثان رسالة نفاق يعبر فيها عن ألمه لموت أخيه سيجموند وأنه يرى في نفسه ملكاً على بولونيا وجراندوقاً على ليتوانيا .

وإذا كان ينقص إيثان شيء ليكمل طيب مزاجه فإن ذلك حدث بعد خمسة عشر يوماً على يد فوروتنسكي عندما هزم التتر . ففي معركة طويلة دامية تقلص عدد مائة وعشرين ألفاً من جنود الخان الى عشرين ألفاً بعد صدام بدأ بالسهم والسيوف جسداً الى جسد ثم بمعمعان من الخيول المتوثبة والسيوف المعقوفة والسيوف ذات البريق الخاطف حتى انقلبت الجداول حمراً من دماء المتقاتلين دون أن يؤدي هذا الصدام الى نتيجة . ولكن فوروتنسكي تظاهر بالهزيمة حتى اجتذب التتر الى موقع مناسب لمدفعيته بحيث لا يستطيع الرجال ولا الخيول الصمود أمام نيران الروس . وافاد الموسكوفيون من هلع الأعداء فشنوا عليهم هجوماً معاكساً أدى بهم الى هزيمة جرت خلالها فيهم مذبحه مريعة .

كان النصر الروسي مؤزراً ضخماً من هيبة السلاح الموسكوفي ومن سلطة القيصر ، أما الخان فكانت هزيمته حاسمة وتلاشت أمامه فرصة استرجاع قازان واسترخان تلاشياً كاملاً وانحنى السلطان أمام القدر . وكان رجال فوروتنسكي السبعون ألفاً المكللون بالنصر على استعداد للان دفاع الى فتوحات جديدة . وشعر إيثان أنه أصبح أقدر على العمل في الشمال وأنه يستطيع أن يعامل ملك السويد باحتقار أكبر فبدأ من فوره يتكلم اليه باستعلاء . ومن البديهي أنه لم يكن ثمة من سبب لاتخاذ موقف عدواني تجاه بولونيا وليتوانيا . فسفراؤه كانوا مكلفين بإظهاركم هو مرغوب فيه أن يكون القيصر هو الملك المنتظر بعد إلحاقه الهزيمة بعدوه الكبير في ساحة المعركة وبأن الجيش الروسي لم يعد أداة تهديد وإنما ضماناً للسلام .

ما كان يزعم إيثان الآن هو سمعته الخارجية السيئة التي سببها له ما ارتكبه من إعدامات ومذابح . وكانت الملكية البولونية ملكية انتخابية فصوت لغير صالح إيثان كثير من الناحيين بسبب سمعته البربرية . أما كوربسكي الذي كان رأسه مهدداً إذا أصبح إيثان ملكاً فقد قام ضده بحملة ضارية . وهكذا كانت قسوة القيصر هي التي أثارت عليه الاستياء العام في عصر كان بطبيعته عصر قسوة وبربرية ! . ففي شهر آب أغسطس

نفسه من عام ١٥٧٢ جرت في باريس مذبحة بارتلمي في الوقت الذي قرر فيه إيثان أن يبدل من سلوكه . وكانوا يفسرون بربرية إيثان بأنها قوة خطيرة في الطباع أكثر من أنها أعمال غير إنسانية . وارتأى كثير من النبلاء البولونيين والليتوانيين أن ملكاً أضعف من إيثان وأكثر مرونة قد يلائمهم أكثر منه ، إضافة إلى أنه لم يكن يوجد بينهم من يتمنى تسلم الأوبريتشينا إلى بلده . فتعسف هذه القوة المسلحة الكبيرة كان يلمح حكم القيصر بأكثر مما كانت تفعل أعمال عنفه الشخصية .

ويمكننا أن نتصور إذا اختفت الأوبريتشينا مدى المتعة التي ستحس بها روسيا باستثناء الأوبريتشينا نفسها بطبيعة الحال . وقد خففت مكانة الأوبريتشينا بالفعل وأضاعت سلطتها وممتلكاتها لأن القيصر استطاع أن يقوم بهذه الحركة باعتماده على فوروتنسكي وجيشه الظافر ، ولولا هذا الشعور الجديد بالأمان لما تمكن من أن يفعل ذلك . على أن ما فعله أظهر عظمة هيمنته وسلطان إرادته الذي ليس عليه رقيب . ولقد يكون ثمة الكثيرون من الناس الذين دهشوا من مفاصد إيثان ، ولكنهم كانوا يخافونه أكثر مما حدث لأي عاهل غيره . وقد نكون مخطئين إذا اعتبرناه مجرد مجنون يترنح بين رذيلة وأخرى ، ففي عام ١٥٧٢ في موسكو كان العاهل الأعلى المطلق الظريف المليء بالوعى لعلاقته مع « الإله ذي الأقانيم الثلاثة ، الواحد غير المرئي ، الأب والابن والروح القدس » ، ذلك الشعار الذي كان يستعمله في صدر فرماناته .

وهكذا انحلت الأوبريتشينا واستعادت الزيمشينا مكانتها التي كانت الأولى قد انتزعتها منها . وتمت معاقبة بيزي Daisi رئيس دير سلوفتسك الذي كان قد شهد زوراً على المتروبوليت فيليب . ونفي من البلاط كثير من الأشخاص المكروهين الذين بقوا مقربين من القيصر حتى الآن . وبدأ بوريس غودونوف يجد حظوة في عيني إيثان . وغودونوف هذا هو قريب بعيد للقيصر ، كان طموحاً كما كان أول رجل له قيمته قرب القيصر إليه بعد الكسي أردادشيف ، وربما كان إلقاء الأوبريتشينا من وحيه وصنع يديه . وعلى الرغم من أن بوريس غودونوف الفتى

الجميل لم تكن له اهتمامات سياسية فقد كان له اهتمامات اخلاقية في معارضته للعنف وسفك الدماء . ورغم انه عاش في البلاط منذ بضع سنوات إلا انه كان حريصاً دائماً على ألا يتسخ بالدم . فلم يسارع قط كما فعل غيره لارتكاب بعض الجرائم تلبية لرغبات القيصر السرية . وكانت تلك مهارة كبرى أن يتجنب العنف مع الاحتفاظ بالحظوة والتكريم .

كان بوريس غودونوف يوصي بالاعتدال والحيلة . وفي خلال الخريف وطول الشتاء قام إيشان يداور البولونيين والليتوانيين بمعسول الكلام . ولم تسجل سياسته الداخلية شيئاً من حوادث الجريمة والعنف . وقد أرسل الجيش الى الشمال الغربي ضد السويد . وكان ماغنوس دوق هولشتاين (*) قد بدأ يتحرك ليستولي على مملكة لنفسه فوعده إيشان بليفونيا . ولا بد أن بوريس غودونوف قد شبع ضحكاً وتهكماً على ماغنوس لأنه كان يعرف جيداً أن سيده لا يمكن أن يعطي ليفونيا لأمير دانمركي . ثم عاد القيصر الى نوفغورود ، ومن هناك بلغ الجبهة الإستونية حيث باشر الحرب بهمجية كبيرة وأخذت المدن تسقط بين يديه او بين يدي ماغنوس واحدة بعد أخرى حتى استولت الجيوش على البلاد واجتاحتها قاتلة الرجال ومغتصبة النساء . وفي هذه الحملة قتل سكوراتوف محظي القيصر . وكان ماليوتاسكوراتوف خليل العربدة والإجرام قد نجا من تقلبات مزاج القيصر وبقي نديمه الصخاب الفاسق رغم مما احتله غودونوف من مكانة ورفعة . وعندما علم إيشان نبأ مقتله في المعركة انتابه غضب شديد فأخذ يكس الأسرى من السويديين والألمان وهم مكبلون بالأغلال ويغطيهم بحزم من الحطب ثم يضع فيها النار حتى يحترق هؤلاء التعساء وهم أحياء للتدليل على ما انتابه من غضب وغم .

— المترجم

(*) هولشتاين أمانة تقع الى الجنوب من الدانمرك .

كانت الحملة موفقة بالنسبة للروس رغم أن السويديين في الربيع من عام ١٥٧٣ اكتشفوا في شخص أكيسون قائداً قديراً استطاع أن يتحدى بقوة صغيرة ستة عشر ألفاً من الروس بالقرب من لود . ثم ما لبث اهتمام القيصر أن استدار الى ثورة قامت بها القبائل قرب قازان فكان ذلك سبباً في تراخي حرب السويد .

وقد صمم إيثان على أن ينتهي من ادعاءات ماغنوس الذي لم يعد بحاجة إليه . وكانوا قد وعدوه بزواج فأمسكه ذلك الى جانبهم . وفي الثاني عشر من نيسان أبريل تزوج دوق هولشتاين في نوفغورود من الأميرة ماريا صفري بنات الأمير فلاديمير اندرييفتشس الراحل . وكانت حفلة الزفاف مريحة شهدها حشد حافل من المدعوين الألمان ، وبعد الاحتفال رقص الجميع طويلاً وكان إيثان يلعب دور راعي الاحتفال الذي غنى فيه منشدو الدير ، ويدير بعصاه التي كان يمسكها بيده صغار الرهبان ويضرب بها رؤوس من يعتقد أنه كان سيء الغناء . وكان ماغنوس سعيداً بعد أن استلم مهر العروس المؤلف من خمسة براميل مغلقة كان يعتقد أنها تضم ذهباً وأنه في اليوم التالي من الزواج سيعلن ملكاً على ليثونيا ، ولكن البراميل كانت تضم ثياباً لا ذهباً ، وبدلاً من أن يتلقى ليثونيا شعر بالتلاعب عليه وارتضى بإقطاع صغير لأنه لم يكن من الشجاعة بحيث يستطيع الغضب . وهكذا أخذ ما أعطي إليه وعاش فقيراً « بوجبة طعام من ثلاثة صحون » كما يروي رواية ذلك العصر . وكان يذهب في كل يوم يشتري الحلويات لزوجته ذات الثلاثة عشر ربيعاً .

وبينما كانت تدور أعياد الزفاف وخيبات الأمل هذه كان الدييت البولوني يسعى لانتخاب ملك على بولونيا . وكان ثمة عدد من المرشحين : منهم إرنست ابن الإمبراطور مكسمليان ، وملك السويد ، وسيجسموند ابن ملك السويد ، وهنري دوق أنجو وشقيق شارل التاسع ، وملك فرنسا ، وقيصر روسيا إيثان الرابع ، ولم يكن هذا قد خول ابنه فيدور بأن يرشح نفسه .

وبناء على اقتراح من جان زامواسكي تقرر أن يكون انتخاب الملك ليس على يد الدييت وحده وإنما يشترك فيه كل النبلاء على أن يكون لكل منهم صوت انتخابي شخصي . فالملك إذن لن يكون منتخبا بتصويت برلماني وإنما بنوع من الاستفتاء . ويقال إن هذا التغيير في الإجراءات قد تم بناء على فكرة أولية قدمها مونتلوك Montluc سفير فرنسا الذي كان قد جمع سلفاً عدداً كبيراً من الناخبين لمصلحة دوق أنجو . ولم يكن لإيثنان مساهمة نشيطة جداً في هذه الحملة الانتخابية لاعتقاده - في غروره - أن بولونيا هي التي ستطلبه . كان معارضاً معارضة شديدة للمرشح الفرنسي لأن فرنسا كانت صديقة للسلطان العثماني ولم يكن يستطيع أن يتخيل أن نصف النبلاء البولونيين الذين كانوا من البروتستانت يمكن أن يصوتوا لرجل متورط تورطاً حميمياً بمذابح سان بارتلمي ، فالفضيلة العليا لبولونيا كانت يومئذ في حريتها الدينية .

ولكن كان يوجد انقسام كبير في المصالح بين المرشحين المتنافسين مما ساعد على فوز دوق أنجو الذي كان أقل صلاحية من الجميع . كان الوحيد الذي استطاع أن يكون له وكيل انتخابي قادر ، وعدد النبلاء الذين تمكن من شرائهم كان أكبر من أي تجمع آخر جمعته القناعة . وفشل إيثنان وخاب فآله . ولكنه لو كان قد بذل وأسرف في العطاء أكثر لهزم الفرنسي بسهولة بالوعود والنقود .



الفصل الثلاثون

أنا مسجونة في الدير

كان إيثان قد بدأ بالانحطاط . فمن الشائع لدى الروس أن ينظر الى الانسان في سن الأربعين على أنه مسن . ومن السهل أن نفهم أن حالة طول الأعمار كانت نادرة في عهد إيثان الراهب . كان إيثان قد أصبح ثقیل الحركة وتزايدت شراسته وشهواته الجنسية وصار يتعب من أي مجهود وينام مدة أطول ، وكان عدد الإعدامات يقل كلما كان ينام . وفي خلال عامي ١٥٧٤ - ١٥٧٥ قام نزاع مستمر حول من له حق التصدر في البلاط مما أعطى الفرصة للقيصر في توسيع تشاؤمه الغريب . فقد كان يعتقد أنه محاط بخونة خطرين بينما لم يكن كل البلاط مخلصاً له فحسب بل منبسط ودنيء أيضاً .

وقد وجه الامبراطور مكسمليان سؤالاً للسفير سوكورسكي : كيف يمكن أن يوجد روس يخدمون طافية بمثل هذه الطاعة والعناية . وأجاب السفير : «نحن الروس نخلص لعاهلنا سواء كان طيباً أو قاسياً» . وحدث مرة أن رجلاً مرفوعاً على الخازوق بقي يكيل لجلاده القيصر آيات المديح وسط آلامه حتى آخر زفرة في حياته . لذلك كان سهلاً على إيثان أن يحل الصعوبات الناجمة عن مسألة الصدارة ومكانة حديث النعمة الطارئ الجديد بوريس غوردونوف . كانت كلمته قانوناً . فلم يكن إلا أن يعلن عن المرتبة التي سيحتلها رجل في البلاط أو الجيش حتى يكون قراره مقبولاً بدون اعتراض . ولكنه بدلاً من ذلك ترك العائلات تختصم . وكما سيفعل بطرس الأكبر من بعد فإن إيثان كان يفضل الموهبة على نبالة

المولد . كان يعتبر انه ليس أدنى إلا من العائلة المقدسة وحدها ، اما غالبية نبلاء المولد فإنما يرتبطون كلياً به ومن ليس له هذا الارتباط يعتبر من سقط المتاع ومن الصعب أن يشعر القيصر بوجوده . لم تكن تفتنه التقاليد . ولم يكن يتأثر بقول أن المكانة التي يحتلها الجد في الجيش يجب ان تحدد مكانة الحفيد . كان يحب النقاش والاثارة . وكان يسمح للناس بالعصيان كي يتمكن من الاستماع الى دفاعهم وأن يرد عليهم قبل تسليمهم للجلاد .

ولكن ايمانه بذنوب الناس كان يتعاضد بعد اعدامهم . فما لم يكن إلا عناداً أو خروجاً على الطاعة يتحول في ذهنه الى خروج عن الولاء حتى ينقلب بعد ذلك الى خيانة . كان يلوي يديه من اليأس ويتساءل : « ما العمل عندما يكون المرء محاطاً بالخونة مثلي ! » . وكان في الوقت نفسه مقتنعاً بفساده الشخصي ولكنه ينظر إلى خياناته الزوجية وشراسته على أنها خطاياها الرئيسية . ومن المحتمل أنه كان مقتنعاً لبعض الوقت قناعة جازمة بأن القيصر لا يمكن أن يقوم بأعمال إجرامية ، ولذلك فإنه قلما ندم على قتله لأحد . كان يؤمن بهذه الفكرة المجنونة بأن الموت الذي يفرضه هو كان شرفاً أو تضحية مستساغة لله ويكن احتقاراً كبيراً لأولئك الذين يفرون من الشهادة . فتعذيب الضمير والشعور بالذنب على الدم المراق كانا بعيدين عنه كل البعد .

وفي عامي ١٥٧٤ - ٧٥ أضحى القتل شيئاً مألوفاً وكثير الحدث . وكانت هذه الحقبة فترة مظلمة في تاريخ إيثنان العائلية لأن خياله قصر عن ابتداع الجديد من الأمور . وتسبب إلغاؤه للأوبريتشين في قيام هذا التنافس على مكان الصدارة . ولكن تفاصيل هذا التنافس الذي لا ينتهي وما قام به القيصر من إعدامات وأعمال نفي وما أحرزه من انتصارات وما تسبب به من اهانات كل ذلك أقل أهمية من دراسة الحالة العقلية لإيثنان . فقد اجتاحتته شيخوخة مبكرة . وكان النزاع أكثر حدة بين اضطراب حواسه ورغبته في أن يصبح راهباً وأن يتخلى عن العالم والشهوات .

وفي نحو من نهاية عام ١٥٧٤ لوحظ عليه قلق جنسي جديد . كان قد مل زوجته آنا . وقد فسروا ملاله بسبب أنها عاقر رغم أننا لا نستطيع أن نرى الفائدة التي يمكن أن يجنيها إيثان من قدوم المزيد من الأولاد . والأكثر احتمالا أنه كان يعتبر عقم هذا الزواج دليلا على أن الله لم يكن راضيا عن زواجه بامرأة رابعة . وهكذا اتجه الى ليونيد مطران نوفغورود الذي أجاز هذا الزواج وحمّله كل إثم لتجاوزه على قوانين الكنيسة التي تحرم الزواج من امرأة رابعة . ورغم الصداقة التي كانت تربطه بهذا الحبر الميرثشي فإنه استدعاه أمامه وانتزع عنه ثيابه بيديه ووضعها في جلد دب وخاط عليه ثم رماه للكلاب لكي تمزقه حتى الموت .

حدث ذلك على ما يبدو في مطلع عام ١٥٧٥ . وغدت آنا مطلقة مقصورة الجناح واستبدلت بأعظم مجد يمكن أن تكلل به امرأة روسية تقشف زنزانة في دير . وغدا اسمها الأخت داريا . وكان عليها أن تعيش بعد ذلك واحدا وأربعين عاما قضتها كلها في ذلك الدير الذي أبعدت إليه . فماذا كانت آخر كلمات إيثان لها عندما هجرها ؟ ، لا نعرف شيئا عن ذلك ! . ولكننا نستطيع أن نفترض أنه أفضى إليها بعزمه على الاحتذاء بها والتخلي عن العالم وعن العرش . ولا شك أنه كان صادقا لأنه نفذ ذلك في العام التالي هاجرا عرشه كي يكون راهبا . ولكن كان في طبيعته ميل جنسي لا يقاوم هو سمة من سماته المسيطرة وعائق يعرقل كل قرار يتخذه ليكون راهبا . كان قد أصبح - كما رأينا - رئيس دير تصحبه خليلاته ، ولكن ذلك لم يكن كافيا لإرواء رغبته في ارتداء اللباس الأسود . وخلاصه من آنا كان بالنسبة له فرصة جديدة لنذر نفسه للعزوبة المقدسة . ولكن مقاومته للجنس كانت ضعيفة جدا فاتخذ في سريره فتاة أخرى من الشعب اسمها آنا فاسيلشيكوف كانوا يطلقون عليها غالبا لقب زوجته الخامسة على الرغم من أن هذا الزواج تم دون مباركة من الكنيسة . وقبل أن يتخذ آنا كان قد عاش أرملة جميلة اسمها فاسيليسا ميلينتييف . فاذا اعتبرنا هاتين السيدتين الأخيرتين زوجتين له أمكننا

القول إن إيثان تزوج مرة خامسة وسادسة . ومع ذلك ففي السنة نفسها التي اتخذ فيها آتا فاسيلشيكوف لفراشه تخلى عن العرش .

ففي أحد الأيام ، وكان ذلك في نهاية عام ١٥٧٥ بدون شك ، قال إيثان لأحد أمراء التنر من أتباعه : « اعتبارا من الآن ستكون القيصر وسأكون من وعيتك ! » . كان هذا الأمير هو الخان حسين بولاد ، تتري أخرق طيب القلب تعتمد تحت اسم سيميون وتزوج من إحدى بنات موتسلافسكي . ولم يكن ثمة تنازل عن العرش ولا تتويج رسمي ، كل ما فعله القيصر هو أنه أخذ تاجه وزين بين جبين التتري وهو يقول : « احملة ! » .

« لقد تخلى عن السلطة — كتب أحد المعاصرين — كما لو أنه كان ينوي الانسحاب من الحياة العامة ويبدأ حياة هادئة » .

ولأول مرة في كتابات ذلك العصر صاروا يتكلمون عن إيثان على أنه عجوز . وعندما قام بهذا التنازل كان له من العمر خمسة وأربعون عاماً . على أنه لا يوجد لسوء الحظ إلا القليل من الوثائق الروسية حول هذا الموضوع ، والمؤرخون الروس كبارهم وصغارهم يجهلون بصورة عامة هذا الحدث كما لو أنه لا يعني شيئا أو أنه لم يحدث في الأصل .

وقد يمكن التفكير في البدء أن هذا التنازل كان واحدا مما كان يقوم به العاهل من مزاح كثير وأنه كان له في النتيجة نهاية مأساوية . فقبل سبع سنوات كان إيثان قد قام بالحركة نفسها عندما وضع رداءه وتاجه فوق الأمير فيديروف العجوز ثم قتله بعد أن قاده إلى العرش . ويوجد تشابه في التعبير بين ما قاله إيثان في هاتين المناسبتين . فقد قال لفيديروف : « كما أن لي السلطة في أن أجعلك قيصرًا فإن لي السلطة أيضا في أن أقتلك » . أما بالنسبة لسيميون فقد قال لمبعوث الملكة اليزابيث : « لم أتخل عن السلطة لدرجة أنني لا أستطيع استعادتها عندما أريد . فالقيصر سيميون يحمل تاجي ولكنني أملك سبعة تيجان مثله بالإضافة إلى ثروتي » .

ولا يوجد الا القليل من الشك حول اعتلاء التتري العرش وأنه تمتع
خلال عام بالسلطة الأوتوقراطية السورية . فكان يتلقى العرائض كلها
ويوقع الوثائق كلها باسمه الشخصي وبخاتمه الشخصي . « باسمه في
جميع المحاكم كانوا يتقاضون ، وباسمه صكت النقود وجبت العائدات
الجمركية وفرضت بشكل عرضي بعض الغرامات والضرائب » كما كتب
أحد المعاصرين . وبما أنه قيصر كان يستقبل المتروبوليت والأساقفة
والنبلاء وسفراء الدول الأجنبية أيضا وإن كان بعض السفراء والمعتمدين
الأجانب قد رفضوا التعامل إلا مع إيفان نفسه . وعندما قاموا يبحثون
عنه اكتشفوه مرتديا بزة بورجوازية ورفض أن ينادوه بلقب الجلالة ،
وكان اندهاشهم كبيرا عندما وجدوه على هذا الحال . وكان إيفان قد
سحب مرة أخرى وبسرعة كبيرة الامتيازات التي كان قد منحها للتجار
الانكليز وفرض عليهم غرامات ورسوم غير محتملة . وغدا مع تقدمه في
السن شديد البخل . فعندما كان يأمر بقتل عائلة بكاملها كان يصادر في
العادة ثروتها ، وهو ليس في منجى عن الاتهام بأنه قتل بعض الناس
لغاية واحدة هي الاستيلاء على ثروتهم . كان دائما يعبىء براميل بالذهب ،
ولا ينظر بعين الارتياح للتجار الأجانب وهم يشحنون المال ويخرجون به
من البلاد . وربما كان قد استخدم سيميون قيصر ما بين عام ١٥٧٥ -
٧٦ ليقوم باعتصارهم أكثر وأكثر .

على أننا لا نستطيع أكثر من أن نقدم فرضيات عن حالته العقلية
خلال السنة التي تخلى بها عن العرش . فكل ما تتضمنه الوثائق
الروسية قد دمر في الحريق الذي أصاب موسكو عام ١٦٢٦ . ونحن
نميل الى التفكير بأن هذا التنازل إنما كان يعبر عن مرحلة دورية من
مراحل التدين الذي كان ينتاب القيصر . حقا إنه لم يعط لتصرفه أي
تفسير ولكنه قال : « إني اتخلى عن ازمة الحكم وأضعها بين يدي
رجل غريب بسبب ما يقوم به رعاياي من اعمال ضالة فاسدة » .
وعندما استعمل الحجة نفسها في كانون الأول ديسمبر من عام ١٥٦٤
كان يقوم بمحاولة للتخلي عن العرش عندما غادر موسكو والتجأ الى

ألكسندروف. وهكذا فإن ظاهرة التنازل الدوري تبقى أكثر قرباً إلى الفهم من الأسباب التي يقدمونها في هذا المجال . وسنرى في المستقبل بعد أن يقوم بقتل ابنه أن فكرة التنازل هذه تعاوده مرة أخرى . كان دائماً خائب الظن والرجاء وانتهى به الأمر إلى أن يجعل من نفسه راهباً لحظة وفاته في عام ١٥٨٤ .

في خلال هذه الحقبة قام مؤرخ برسم مشهد مشؤوم لحكم سيميون وإيثان : « في نحو من نهاية العام ١٥٧٥ قام الملك الجديد بجمع كل صكوك الامتيازات الممنوحة للأسقفيات والأديرة والتي كانت هذه تتمتع بها منذ عدة قرون ، وألغاهما جميعها . وعندما استعاد إيثان عرشه دعت كل المؤسسات الدينية لتجديد امتيازاتها . واستفاد إيثان من هذه الفرصة لينتزع منها القسم الأكبر من ثروتها » .



الفصل الحادي والثلاثون

إتيين ملكاً على بولونيا

سعت بولونيا لتنظيم نفسها في مملكة ليست انتخابية فحسب وإنما دستورية أيضا . وكان فيها حزب للبروتستانت الأقوياء أصحاب النفوذ الذين كانوا يريدون أن يخفضوا من سلطة الملوك ويصونوا حرية الرعايا ، وقد قبل كل المرشحين للعرش قبل الانتخاب هذه الشروط . ولاشك أن كل واحد منهم كان يقول في نفسه إنني ما أن أصبح في السلطة حتى أتذكر لهذا الارتباط أو الغيه . ولم يقبل إيثان بأن يكون زواجه أو طلاقه رهنا بموافقة الدييت البولوني ، أما أن يقسم المرشح ألا يتعرض للحرية الدينية بأذى ولا يعرقلها فهو أمر لم يكن يكدر إيثان لأنه لم يكن مضطهداً للهراطقة وإنما كان لهذا الشرط فعل السم على دوق أنجو الذي كان من غلاة المذهب الكاثوليكي . وكان ينبغي على الملك أن يحكم بمساعدة مجلس مؤلف من أربعة عشر عضوا ينتخبهم الدييت وحده وأن يعترف بأنه لا يستطيع انتقاء خليفة له على العرش . وأخيراً إذا لم يحافظ الملك المنتخب على الوعود التي قطعها على نفسه وأقسم على التمسك بها فإن الدييت بعد القيام بواجب إنذاره يكون حراً في خلعه وانتخاب آخر بديلاً عنه .

في لحظة انتخابه للعرش كان دوق أنجو في باريس حيث أدى اليمين هناك ، ومضى ستة أشهر قبل وصوله للتويج . وكان يلتف حوله النبلاء من مذهبه ورجال دين متحمسون يتمنون بحرارة أن تزال من صيغة القسم المادة المتعلقة بالبروتستانتية . ورغم أن هذا

القسم كان ينبغي أن يكرر لحظة التتويج فإن الدوق حاول أن يتنأساه . ولكن المطران عندما كان يستعد لوضع التاج على رأسه تقدم عضوان من أعضاء مجلس الدييت واعترضا على التتويج واستولى أحدهما على التاج ولم يشأ أن يرده حتى يتم ترديد القسم بكافة بنوده . واعتقد ابن كاترين دوميديسي المدلل أن البولونيين قوم خشنون . فهذا السيد الافرنسي الصغير الذي كانت يداه ناصعتي البياض كان ضعيفا وقليل الذكاء . وقد قال أحدهم وهو ينظر اليه إنه لا يدري إذا كان يجب أن يسمى ملكا - امرأة أم ملكة - رجلا . وأخيرا خضع وأدى اليمين الذي بدا أنه أنزل من قيمة هذا الملك الذي اعتلى عرشه الى الصفر .

ولكنه ما لبث أن غدا ساخطا على بولونيا بمقدار ما كانت بولونيا ساخطة عليه ، بل ربما كان سخط بولونيا عليه أكبر لأن البولونيين كانوا يظنون أنهم سيسيطرون على هذه الشخصية الضعيفة ويقودونها حيث يشاؤون . وكان عزاء كبيرا له عندما علم في حزيران يونيه ١٥٧٤ بموت أخيه . فقد قضى شارل التاسع نحبه وهو في سن الرابعة والعشرين فخلفه دوق أنجو تحت اسم هنري الثالث . وما هو طريف في الموضوع هو أن البولونيين لم يشاؤوا أن يدعوه يمضي الى ملكه الجديد ، وربما ظنوا أن بإمكانه أن يحكم فرنسا وهو على عرش فرسوفيا كما لو أنها ملك لبولونيا أو مستعمرة لها . ففي ذلك العصر - كما هو الأمر دائما - كان البولونيون يأخذهم غرور قومي كبير . وهكذا توجب على هنري الثالث أن يفر بالسر أثناء الليل ممتطيا صهوة جواده ويلاحقه النبلاء البولونيون ، ولكنه اجتاز الحدود ولم يعد أحد يستطيع أن يرده ، وخلعه الدييت رسميا عن العرش في أيار مايو ١٥٧٥ .

وبقيت بولونيا في حيرة من أمرها . واجتاح التتر أوكرانيا في سعيهم وراء خصوم ألين عريكة من الروس واختطفوا خمسين ألف شخص قادوهم للعبودية . وغدت البلاد في حاجة ماسة لملك قوي .

وكان ضعف دوق انجو قد خلق في البلاد عصبية قوية كادت ضراوتها أن تؤدي بالبلاد إلى حرب أهلية . وعندما قرر الدييت ومجلس الشيوخ انتخاب ملك جديد تم اختيار مرشحين هما الامبراطور مكسمليان والامير إتيين باثوري الهنغاري ، ولكن القدر كان كريماً ، فقد كان مكسمليان على فراش الموت ولم يستطع الوصول لتتويجه في الوقت الذي سارع فيه الشاب الهنغاري الجريء بالوصول إلى كراكوفيا وقوى مركزه بزواجه من أتا الأخت الصغرى لسيجسموند أوغست حيث تم تتويج الاثنين معاً في الفاتح من أيار مايو ١٥٧٦ . أما مكسمليان فقد توفي في الثاني عشر من تشرين أول أكتوبر التالي .

وهكذا أصبح الآن على عرش بولونيا رجل قادر ونشيط ، وفهم القيصر فوراً أنه سيجد فيه العدو الخطر . ومما لا شك فيه أنه بسبب شعوره بضرورة العمل الجاد النشط تجاه هذا الوضع أنهى تلك الملكية الصورية لسيميون وعاد إلى العرش .

وكان الملك إتيين قد اشترى السلم من الاسلام بدفعه جزية للسلطان . ثم ما لبث أن أعلن عن نيته باستعادة كل الأراضي التي استولى عليها الروس من بولونيا في ساحات القتال . وفي أول رسالة بعث بها إلى إيثان وعين بموجبها سفراء أهمل أن يلقبه بلقب القيصر وحذف القابه كدوق لسمولنسك ودوق لپودولسك بينما سمي نفسه هو عاهلاً على ليفونيا . وقد استقبل إيثان السفراء استقبالاً حافلاً في الكريملين وذلك في تشرين الثاني نوفمبر من عام ١٥٧٦ . وكان سيميون قد اختفى . وعلى العرش كان القيصر معتمراً تاجه وإلى جانبه ولي عهده إيثان والاثنان في ملابس حيكت من الذهب . وكان الميدان الكبير غاصاً بالجنود . وقد سعى القيصر لأن يؤثر في نفوس مبعوثي جندي حديث النعمة كإتيين . ولم تبد على إيثان أية بادرة تدل على أنه كان غاضباً . أما الملك إتيين فكان يطالب في رسالته الحفاظ على هدنة السنوات الثلاث التي كانت قد وقعت بين بولونيا وروسيا ويعلن

أنه ينوي المحافظة عليها « حتى انتهاء أجلها » . وكان ذلك يناسب القيصر تماماً ، إلا أنه لم يدعُ السفراء للعشاء على مائدته وبهذا الإهمال وحده أظهر تجاههم برودته .

عند انتهاء أجل الهدنة كانت الحرب لا بد منها . وقرر إيفان أن يستفيد من كل الوقت الذي بقي أمامه بالطريقة التي تؤمن له امتلاك ليشونيا وسواحل البلطيق . وكان الجيش جاهزاً . وأطل التتر مسرعين يمتحنون قوة خصومهم ولكنهم ما لبثوا أن عادوا بأسرع مما أتوا . فبعد السنة التي قضاها إيفان في الإجازة بدا أنه غداً أكثر تأهباً وحذراً . لم يكن يهمل شيئاً من أجل حماية موسكو ضد أي هجوم ، وأمكنه بذلك أن يتجه نحو الشمال الغربي وهو يشعر باطمئنان كبير .

بدأت الأعمال العدوانية خلال الشتاء البارد المليء بالزواجع من عام ١٥٧٦ - ٧٧ . فحاصر الروس ريغال من جديد دون أن يهتم الملك إيتين بذلك لأنه كان يحاصر دانزيغ التي كانت قد أعطت أصواتها لمكسمليان وتفضل القتال على الاعتراف ببائوري(*) . وكان ملك السويد قد كتب لإيفان ينصحه ألا يهاجم ريغال لأنه ينوي بيع المدينة إلى الإمبراطور الذي سيخلف مكسمليان والذي يمكن للروس أن يقوموا بتسوية معه . ومع ذلك فإن السويديين دافعوا عن مدينتهم ببطولة ، فرغم الهجمات التي دفع بها الروس من جهة البحر الذي يغطيه الجليد فإن السويديين ألحقوا بالروس من الخسائر أكثر مما ألحقه الروس بهم . وكان البؤس والحرمانات قد جعلت الليثونيين أكثر صلابة فلم يعودوا أناساً مائعين أو مخنثين كما كانوا في عهد الفرسان التوتون . ورغم الانتصارات التي تسلسلت عبر سنين طويلة فإن إيفان كان قد ارتكب خطأ بأنه لم ينجز فتحه وينهيه بمعاهدة صلح . وكان لا بد من إدارة مدنية لتنظيم الأرض المفتوحة وإخضاعها للدولة الروسية ، وفي هذه النقطة نرى كم كان

- المترجم -

(*) هو إيتين .

الكسي ارداتشيف شخصاً لا يعوض بالنسبة للقيصر لو أنه وفر عليه حياته . كان من بعد النظر أن تقوم الرغبة في فتح ليفونيا لاعطاء روسيا منفذا على البلطيق ، ولكن لم يكن مسوغا ابدا ما قام في ليفونيا نفسها وفي روسيا من إرهاب شديد . وكان عقاب نوڤغورود وما نجم عنه من تدمير لتجاريتها قد تسبب في نكسة للسياسة اللتوانية ، إذ كانت نوڤغورود أكبر مدينة في روسيا أو تكاد ، كما كانت الحلقة التي تربط التجارة بين روسيا وليتوانيا .

فلم تكن ليفونيا تشعر إذن بوجود مصلحة مشتركة تربط بينها وبين الروس . وتفشت كراهية الروس حتى بين الاستونيين الأكثر تواضعا وبين اقنان الأرض من الليتون . ولما بدا على الروس التقهقر في ساحة النزاع لم يكن هؤلاء الاستونيون والليتون آخر من قاموا يطلبون الثأر . فقد مشى فلاحون مسلحون يقودهم رجل يسمى « هانيبال » من نصر الى نصر خلال الأشهر الأولى من عام ١٥٧٧ حارقين مدنهم وقراهم لطرد الموسكوفيين . فاستولوا على ويتنشتاين وأحرقوا بيرنو وردوا لإيفان ما ذاقوه منه بوضعهم أعدادا من الروس تحت العذاب .

ولكن القيصر جمع قوات كبيرة . وأصبح القيصر السابق سيميون الذي غدا دوقاً على تغير يقود الآن جيشاً بالغ الأهمية . وعاد ماغنوس ليظهر على مسرح الأحداث وأعاد القيصر بين المقربين اليه حتى أنه مضى لفتح المملكة التي كان يشتهيها ويحطم بها . والواقع أن ماغنوس كان يلعب لعبته الخاصة وكان مستعدا لقبول حماية ملك بولونيا على شرط أن يكون متأكدا من حصوله على مملكته . وقد أمره القيصر بالاستيلاء على فنلند فاستولى بسهولة عليها دون اللجوء الى السلاح بل بإعطائه وعداً لسكانها بالحريّة والأمان من ظلم الروس ، ثم تابع تقدمه من تلقاء نفسه تحييه الجماهير كما لو كان منقذا وملكا على ليفونيا .

وكان الليثونيون يجهلون الجهة التي يتوجه اليها جيش إيثان الكبير . وكان يفترض أنه سيبدأ حصاراً جديداً على ريثال ، ولكن الجيش اضاع أشهراً عديدة بدون عمل وهو يقوم بالمناورات والتمرينات والاستعراضات العسكرية . وقد قضى القيصر وابنه وقتاً في بادئ الأمر وهما يتسليان في نوفغورود وبسكوف ، ولم يبدأ التقدم إلا في الخامس والعشرين من تموز يوليو وكان متجهاً الى ليثونيا الجنوبية التي كانت مقاطعة يديرها البولونيون بسلام . ولم تكن الهدنة قد انقضى أجلها عندما أصبح إيثان في حرب مفتوحة مع الملك الجديد . وتمكن الروس بشكل لا يقهر من أن يكنسوا أمامهم كل شيء مستولين على المدينة بعد الأخرى دون أن يلقوا إلا مقاومة ضعيفة . وعندما كانت توجد مقاومة كان القيصر بعد الفتح يسلم المدينة للسلب والنهب . وكانت الحملة موفقة في البداية ، ولكن إيثان ما لبث أن فوجيء بالتقدم العسكري البطولي لحليفه ماغنوس الذي - باعتباره ملكاً على ليثونيا - أصدر للقيصر أمراً باحترام حقوق رعاياه . وقد قدم ماغنوس قائمة بالمدن التي اعترفت به ملكاً بما في ذلك دوربات DORPAT ، دون أن يكون لديه شعور بالدعابة ، ولم يكن مثل هذا الشعور موجوداً لدى إيثان أيضاً فوضع مبعوثي ماغنوس تحت السياط . وأكثر من ذلك أنه استولى على أول مدينة وردت في قائمة المدن الموالية وقتل من فيها من جنود ماغنوس بحد السيف . وبعد أن أعلن قائمة بأسماء الرعايا الموالين لماغنوس فيها أرسل كل سكانها رجالاً ونساء وأطفالاً الى الأسر . كان هذا هو مصير كوكنهوسن . وبينما كان الفيصر يتجول في شوارع هذه المدينة المنكوبة دخل في نقاش مع واحد من الكهنة البروتستانت . كانت تلك هي السمة المميزة لإيثان . ففي وسط الدخان والخراب كان مستعداً دائماً للنقاش الديني بل إنه كان يسمى إليه . ولكن هذا الحديث لم ينته بشكل معتدل . فعندما قام الكاهن بمتدح خصال بطله لوثر وبقربه بكل وقاحة بالقديس بطرس طفع الكيل مع إيثان فرفع عصاه المدببة الرأس بالفولاذ وغرسها في جسد الكاهن وهو يصرخ : « اذهب إذن مع لوثرك هذا الى الشيطان » ثم تابع طريقه .

وكتب إيثان إلى ماغنوس رسالة احتقار بادئا بها بعبارة « ملكنا الشحاذ » يلزمه فيها أن يبقى ضمن حدود الأوامر التي أصدرها اليه أو أن يعود إلى بلاده من حيث أتى عبر البحر وإذا لم يفعل فإن عليه ألا ينسى أنه ليس بعيدا عن مدى ذراع القيصر .

كان أنصار ماغنوس يحتلون عدة أماكن حصينة من ليثونيا ولكنهم سقطوا بين أيدي الروس وقطعت رؤوسهم كلهم تقريبا . أما ماغنوس فقد أتى زاحفاً أمام القيصر وقدم له خضوعه . وكان بإمكان إيثان أن يضربه حتى الموت ولكنه بدلا من ذلك أمره بالنهوض وقال له : « أيها الأبله ! . كيف يمكنك الظن بأنك ستكون ملكا على ليثونيا أيها الشحاذ المتشرد ، أنت يا من أدخلته في عائلتي وزوجته ابنة أخي الحبيبة(*) ، أنت يا من كسوته وألبسته النعال واعتنيت بأمره كيف تجرات على خيانة مليكك وحاميك ؟ . أجبني ! . سمعت عدة مرات من مخططاتك السخيفة المستقبل ولكنني لم أكن أستطيع تصديقها ولم أقل شيئا ، والآن تكشف هذه المخططات . لقد اعتقدت أنك تستطيع الحصول على كل ليتوانيا وتصبح خادما لبوالونيا ، ولكن الإله الرفيق العطوف جنبني ذلك وأسلمك إلى يدي . سوف أعاملك كما تستحق . ستعيد إلي كل ما هو لي وستعود إلى العدم من حيث خرجت » .

على اثر هذا الكلام تم إلقاء القبض على ماغنوس ورجال حاشيته الذين كانوا في صحبته وألقي بهم فوق فرش من القش في غرفة من منزل عتيق لينتظروا هناك قرار القيصر . وقد حدث ذلك خارج مدينة فيندن التي كانت راية ماغنوس تخفق فوقها . وطلب هذا الأمير من وجهاء المدينة أن يستسلموا دون نقاش من أجل الحصول على أفضل الشروط الممكنة وتجنب غضب القيصر ، ولكن الدعر كان قد استولى على السكان وبخاصة أولئك الذين كانوا أكثر صلابة في دعم ماغنوس . واستولى الجيش الروسي على ساحة السوق وعلى القسم الأكبر من

(*) ذكرنا أنها كانت ابنة أفلاديمير أندرييفتش ابن عم إيثان - المترجم

مدينة فينندن ولجأ السكان المدعوررون جماعات الى القصر العتيق الذي كان يشرف على المدينة . في هذا البرج تكدس الناس رجالا ونساء واطفالا مع كل ما يملكونه وهم مصممون على المقاومة هناك دون أن يعرفوا السبيل الى ذلك . وعلى الرغم من أنهم لم يكونوا يملكون أي احتمال للصمود فان الرجال فتحوا نيران طبنجاتهم على الروس الذين كانوا يتقدمون وجرحوا منهم العدد الوفير فكان ذلك كافيا للحكم عليهم بنهاية رهيبة . لقد رأى القيصر الغاضب ضحاياه وقد أحكم عليهم الفخ ، ومن أجل أن يظهر لهم نواياه أخذ من بين الأسرى جورج فيلك الليفوني البارز المدافع عن فولمار - وكان قد استسلم منذ فترة وجيزة - ووضع على الخازوق تحت أنظارهم . ثم أمر بتقدم المدافع وتصويبها الى جدران القصر واستمر القصف ثلاثة أيام حتى تصدعت الجدران وانهارت على المدافعين . وعند ذلك لجأ هؤلاء البؤساء الى القيام بعمل بطولي أوحاه الخوف واليأس .

ملأوا الاقبية بالبارود ، ثم ركعوا للصلاة بينما كان أحدهم وهو هنري بواسمان يحمل مشعلا ملتهبا ألقاه على البارود فتفجر القصر بكل من كان موجودا فيه وانقذف الحصن والمدافعون عنه في الهواء وهلك الجميع باستثناء بوسمن الذي لم يعيش بعد ذلك إلا قليلا ، فقد وضع جسده المسود على خازوق ولكن لم يكن قد بقي له من العمر ما يسمح بتعذيبه . أما القيصر الذي خاب أمله فقد ارتد في شدة غضبه على من بقي من السكان فشدد في عذابهم وقطعهم وأحرقهم أحياء ، واستمرت اعمال العنف والاغتصاب أياما طويلة في كل مكان .

هذا العقاب الرهيب زرع مخافة إيثان في كل أرجاء ليفونيا . وكان القيصر اشد قسوة من كل قواده فكان يوجد بشخصه اثناء العقاب . وقد فعل الخوف منه أكثر مما فعله كل جيشه ولذلك لم يجد صعوبة كبيرة في فتح كل المقاطعة . فالمدن كانت تخضع لدى أول اندار وكان يمشي من نصر الى نصر . وقد تجنب محاصرة ريغا وريغال لأن استسلامهما كان يتطلب الكثير من الوقت بينما غدا كل الباقي من البلاد بين يديه .

وقد اقام احتفالا كبيرا في فولمار وكان راضيا من نفسه كل الرضا . وفي دوريات عفا عن ماغنوس الذي كان قد وضع في الاغلال وينتظر لحظة الإعدام في كل آن . وكان إيثان يتسلى بأن يدع سجينه يعتقد بأنه دائما ملك على ليثونيا تحت حمايته ورعايته . وقد اشترط عليه أن يدفع أربعين ألفا من الغولدينات الهنغارية يصبها في خزانته ؛ وكان ماغنوس مستعدا ليفعل أي شيء في سبيل أن ينال حريته . واخيرا سافر إيثان الى الكسندروف لكي يأخذ قسطا من الراحة بعد ما بذله من جهود .

هذه الراحة على أمجاده كانت تماما من طباعه الثابتة . ففي قازان ، في أول مباشرة عسكرية له ، ترك مبكرا ميدان العمليات في وقت لم يكن النصر قد تأكد بعد . أما إيتين ملك بولويسا فكان لا يزال مشغولا باستعداداته ولم يكن بعد قد قام بينهما لقاء . ولكنه كان يهيئ لحملة عسكرية كبيرة مشتريا المرتزقة ومستعيرا الرجال او مستأجرا إياهم الى أجل ومستهنئا بالديت البولوني ومعلقا مستقبله على هذا اللقاء الذي سيتم بينه وبين الدولة الموسكوفية . وأما إيثان فكان مزهوا بنفسه . ومن فولمار كتب الى الخائن كوربسكي رسالة ازدهاء وفوز . وكان الاستيلاء على هذه المدينة يذكر العاهل الروسي بدين واجب الوفاء . فإلى فولمار كان كوربسكي قد لجأ في بادئ الأمر هاربا من غضب القيصر ، وكان إيثان يحلم دائما باليوم الذي سيجبر فيه البولونيين على تسليم الخائن لينتقم منه شر انتقام وبميته تحت العذاب .

كتب في رسالته : « إن المدن الألمانية سقطت بدون قتال لدى رؤيتها الصليب الحي » . ومن البديهي أنه كان ينسب هذه الاستسلامات المتلاحقة الى تدخل العناية الالهية لا الى الخوف الذي أناره ما لحق فيندن من عقاب . كان عميق القناعة بأنه بتجنبه موضوع كوربسكي إنما يعرض سلام نفسه للمخاطر . فقد كان كوربسكي في بادئ الأمر حليفا للشيطان بانصياعه لمؤامرات الكاهن سيلفستر والكسي أرداتشيف ، فدعاه إيثان اثلا ينسى أن الشيطان هو أيضا يباهي بأنه يستطيع الذهاب والمجيء ، الصعود والهبوط على كل نقاط الأرض .

وكان كل ما يتمناه كوربسكي أن يوطأ إيثان ويزدري وأن تصير ارادته في روسيا الى العدم . وقد كتب له القيصر : « لو أنك لم تفصلني عن زوجتي لما كان كل هؤلاء الضحايا » . وإنه لمن المثير للفضول أن نرى إيثان بعد كل هذه المغامرات فيما عقده من زيجات لا يزال يتحسر على فقدانه أناستاسيا . هنا نجد إيثان الكهل الذي لا تنعقد أفكاره على ميدان المعركة كما لم تنعقد على الماضي . فيما مضى ، خلال حبه الأول ، وقبل أن تنثلم حياته كان سعيدا . وفي سنة السابع والأربعين ورغم انتصاراته على أعدائه ونجاحاته الكبيرة لم يكن إلا عجوزا متوحدا وأحيانا تعذبه تبيكتات الضمير .

كان متوحدا معذب الضمير ولكنه ما يزال ميالا الى الدعارة والفجور ، فالنار الحمراء لم تكن قد انطفأت فيه بعد . في فينندن كان يوجد الكثير من اللهيب . وكانت قوته لا يدركها الحساب ، وهي لا تزال قادرة على الانفجار في كل لحظة لتحرق الرجال والنساء ، إلا أن كبرياء صموده وخصاله الرائعة عندما يمنح نعماءه لأحد ، وحماسه الدائمة في صلواته ، كل ذلك لم يكن بإمكانه أن يخمد هذه النار . ولا شك أنه كان يعرف عندما كتب الى كوربسكي باعتباره - أي إيثان - المفضل والمصطفى من الله أنه كان قادرا على تعذيب الأبرياء وإيصالهم الى هاوية الموت بلا تسويغ ولا تمهيد .

في نهاية الخريف كان وصول إيثان الى الكسندروف . ولكن عام ١٥٧٧ لم ينقض بدون سورة جديدة من الغضب القاتل . وكانت رسالته الى كوربسكي وهذا التذكر الذي قام في نفسه للماضي جعلاه يعود الى الزمن الذي كان فيه متطرفا على الموت ونبلاؤه يتآمرون عليه وعلى ابنه وزوجته أناستاسيا ويريدون أن يستبدلوا به ابن عمه الأمير فلاديمير اندرييفتش . وقد عوقب فلاديمير على ذلك كما عوقب معظم الناس . وهلك كل عائلة أرداتشيف وعائلات الخونة وصودرت أملاكهم . ولكن بقي منهم عجوز ربما كان الجندي الأكثر بطولة والأكثر كفاءة في الجيش هو الأمير ميشيل فوروتنسكي الذي يعود إليه الفضل في أول حملة

عسكرية للقيصر تفتح فيها مدينة قازان عام ١٥٥٢ . وهو الذي اندفع بنشوة النصر ليقاطع القيصر في صلاته ويصيح : « قازان لنا ! » . وعندما عاد القيصر الشاب عام ١٥٦٠ الى طرائقه العنيفة نفى الأمير وزوجته وعائلته الى بييلواوزيرو ثم رضي عنه بعد خمس سنوات عندما خلق الأوبريتشينا . على أن الأمير لم تكن له علاقة قط بهذا الحرس الشخصي للقيصر وإنما اقتصر على أن يكون عضوا في مجلس البويار وفي الزيمشينا . وقد تعرض زملاؤه النبلاء الى اعتداءات الأوبريتشينا والى التعذيب والموت ومصادرة الاملاك ، بينما بقي فوروتنسكي خلال سبعة عشر عاما الخادم الوفي دون أن يكون متأكدا أنه لن يفتال في القيد . كان يخدم بايمان وولاء حسب القاعدة التالية : « إذا كان سيدي يريد موتي فإن له الحق في ذلك ، فأنا أعيش من أجله ومن أجل تنفيذ ارادته » . والقول المأثور التالي يجعلنا نفهم أي نوع من الرجال كان : « يعيش أفضل من غيره من كان مستعدا دائما الآن يموت » . هذا الشعور الغريزي بأن المرء يولد عبدا أو سييدا لم يعد موجودا بيننا منذ عدة قرون حتى أصبح عندنا متعذرا على الفهم . أما لدى السلاف فانهم يسمونه خطأ « بالقدرية » ، وهذه الغريزة هي التي سمحت لفوروتنسكي أن يخدم القيصر بنجاح مدة سبعة عشر عاما دون أن يتخذ أية احتياطات للمحافظة على سلامته الشخصية ، ودون أن يفقد أعصابه في يوم من الأيام . لم تكن له مصالح خاصة به وحده ، وقد أحرز لروسيا انتصارات لم يكن ليحرزها رجل لا يشعر بالهدوء والاطمئنان . ومنذ فترة وجيزة بدد شمل التتر الغزاة وأنقذ موسكو من نهب جديد . والآن وقد نيف على الستين - وهو عمر متقدم بالنسبة لذلك الزمان - فإن حياته كانت تسبح فوق المجد . كان في روسيا أشهر وأبرز المجائز الباقين .

إلا أن فوروتنسكي كان يشغل الآن أفكار القيصر الشيطانية . « لقد سمموا حياتي ، وهو أكبرهم » . كان المجرم الحالم يضيق في خياله على ضحية جديدة وهو لم يدق الراحة بعد النصر لشعوره بأن سحابة قاتمة كانت تتشكل فوق القصر ، وكان الشيطان يعذبه . كان يستخدم

رعاياه البؤساء ويستغلهم وهم مخدوعون به وبنواياه . كان يرى أن فوروتنسكي هو أكبر الجميع وأنه حليف للشيطان ويستعمل أساليب شيطانية للتغلب عليه .

واوقف فوروتنسكي بهذه التهمة التي وجهت إليه ، تهمة التحالف مع الشيطان . ولم يكن القيصر نفسه هو من الصقها به بل استخدم لهذه الغاية قنا هاربا من ممتلكات فوروتنسكي اضطر أن ينفذ أوامر القيصر . وبعد أن اعتقل اقتيد فوروتنسكي أمام القيصر فقال له : « علمني أبي وجدي أن أخدم الله والقيصر بصدق واخلاص لا أن أخدم الشيطان لأنني سأحاكم أمام محكمة الديان ، كما علماني إلا الجأ إلى السحر . إن هذا الشاهد الذي يفترى عليّ لص مارق ، فلا تقبل آلام جاحد بديلا عن كلمتي » .

وشنق العجوز على شجرة وأُحرق ببطء فوق محرقتين . ويقال إن إيثان حمى بالنار رأس عصاه الفولاذي وغرزه في الأمير الميت . وقبل أن يموت الشيخ قطعوا الحبل وحملوه فوق نقالة إلى دير بيلوزيرسك حيث قضى نحبه على الطريق . فحملت جثته إلى الدير ودفن بكل مظاهر الاحترام لأن رهبان القديس سيريل كانوا أكثر إنسانية من القيصر الذي ما انفك يرسل اليهم الضحية بعد الأخرى .

على أن هذه الجريمة المريعة لم تكن الوحيدة في نهاية عام ١٥٧٧ . فقد مات نيكيتا أودوفسكي تحت التعذيب كما هلك ميشيل موروزوف مع زوجته وولديه ، وربما كان ثمة آخرون لم يجر لهم ذكر .

في مطلع عام ١٥٧٨ وجه إيثان اهتمامه لما كان يجري في الخارج . كان يعرف معرفة جيدة أنه لم يحبط عزيمة بولونيا بانتصاراته في ليثونيا وإنها كانت تستعد بنشاط لمواجهة . ولقد سمى لأن يتحالف مع رودولف خليفة مكسمليان على الإمبراطورية الرومانية المقدسة ولكن هذا

الامبراطور - برغم كراهيته لإيتين ملك بولونيا - لم يشأ أن يعقد معاهدة
خطرة تقدم بولونيا الى روسيا بينما لا ينال منها إلا هنجاريا .

وفي ذلك الوقت اراد فردريك ملك الدانمرك أن يتحالف مع روسيا
على السويد على أن يتقاسم معها ليثونيا واستونيا فيقضي بذلك الى
الأبد على الادعاءات السويدية في الساحل الجنوبي من البلطيق . ولكن
إيثان بعد أن استشار البويار رفض هذا العرض واكتفى بأن يعقد مع
الدانمرك هدنة مدتها خمسة عشر عاما . وقد يكون من المحتمل أن
الجيش الدانمركية لم تكن يومذاك رعداً قوياً ، ولم يكن من المتوقع أن
يتمكن إيتين من تعبئة جيش قوي يستطيع الانتصار على الروس .
إلا أن رفض التحالف مع الدانمرك كان خطأ ، فالروس كانوا جشعين ،
وكان بإمكانهم أن يتخللوا عن الأرض الغربية التي كان يشتهيها
الدانمركيون .

وجرت محاولة للتعاون مع التتر على البولونيين والليتوانيين . وقد
وزع إيثان الذهب على الخان وأمرائه والهدايا على زوجاتهم ولكن الملك
إيتين زايد عليه .

أما الحاميات الروسية في ليثونيا فإنها عندما شاهدت عدم استعداد
اعدائها وسوء أحوالهم المعنوية تراخت في نظامها وانضباطها وقضت
الشتاء في الولاثم والأعياد . وكان الملك إيتين يستفيد من الوقت .
كان يسخر من إيثان بأنواع من المزاح كما لو أنه كان هو نفسه سلاقياً ،
وربما كان فيه بالفعل بعض من الدم السلافي .

كان يكتب رسائل متواضعة يقدم فيها عروضاً هادئة حتى نجح في
الحصول على هدنة جديدة مدتها ثلاث سنوات . وكان يسعى لإقناع
القيصر بأنه لم يكن ملكاً نزاعاً الى الحروب وإنما هو رجل يحسن الكلام
وبقصر في العمل . ونحن لا نعرف الى أي مدى تمكن من خديعة الروسي
وما لبث أن وصلت الى إيثان أنباء مقلقة من ليثونيا بأن ماغنوس الذي

كان قد وقع معاهدة سرية مع اتيين قد انضم الى العدو . ثم اخذت مدن ليثونيا واحدة بعد اخرى تسقط بيد الليثونيين . فقد ارسل الالمان براميل من النبيذ الى ضباط حامية دونبرغ ، فلما اخذ منهم السكر مأخذه قام الليثونيون بهجومهم على الحصن وذبحوا من فيه من الروس . وحدث ما يشبه ذلك في فيندن حيث قام العدو بهجوم اثناء الليل وفاجأ رجال الحامية النيام . وحاول إيثان موتيسلافسكي وابنه ان يسترجعا المدينة ولكنهما اصطدما بمقاومة ضارية من جانب العصابات المنخرطة في طاعة الملك اتيين .

وبدا في الوقت نفسه جيش سويدي في محاصرة دوريات ، ففزا ضواحيها وذبح فيها عددا كبيرا من العائلات الروسية . وعاد هانيبال مع فلاحيه المسلحين يناوشون الروس الذين غدا وضعهم خلال الربيع والصيف حرجا للغاية وحل الانقسام في مجلسهم في موضوع القيادة . وبدا واضحا ان وجود القيصر قد غدا ضروريا فهو وحده يستطيع ان يعيد الى الجيش روحه المعنوية ، كما لم يعد ثمة شك في انه بقيادته الشديدة التي لا تعرف الرحمة قد يستطيع ان يحفظ ليثونيا من الضياع ، وربما كان الملك اتيين داهية ومهما كان نشيطا فانه لم يكن يملك شخصية إيثان القوية الآسرة . ولكن إيثان كان قد اغتر بنفسه . ومنذ ان كان في موسكو والكسندروفا اخذ يعامل قاداته معاملة سيئة ويهددهم فعرض الخطر كل شيء . وارسل في الصيف جيش روسي قوي لمحاصرة فيندن ولكنه كان يشكو من سوء القيادة كما انه تعرض لضغط قوي قام به جيش مزيج من السويديين والليتوانيين والليثونيين تساعدهم ايضا قوة من التتر حتى اضطر القائد الروسي الى الفرار الى دوريات تاركا جيشه يعالج صعوباته بنفسه . وعندما فقد الجنود قائدهم سارع قسم كبير منهم الى الفرار ، ولكن بقية الجيش قاومت مقاومة ضارية رغم فقدان القيادة من أجل تأجيل النهاية ، وبقيت مقاومتهم الباسلة مستمرة حتى هلكوا جميعهم بينما كان المدفعيون متعلقين بمدافعهم من اليأس .

وفهم إيثان أنه يلزمه وقت كي يعيد النظام ، فسمى لأن يحصل من ملك بولونيا على هدنة يوقف فيها القتال ريثما يتناقشان في الامور . ولكن تملقات مبعوثيه فشلت . لقد استقبلهم إتيين استقبالا حسنا ولكنه لم يضعف أو يقلل من نشاط استعداداته للقتال . ورأى القيصر أن عليه أن يجهز جيشا قويا جدا ليحل محل الجيوش الممزقة في ليثونيا أو يدعمها ولكي يحمل الحرب الى ليتوانيا بل وإلى بولونيا نفسها . وفي الخامس من كانون الاول ديسمبر ١٥٧٨ بدأت استعدادات روسيا لحرب على نطاق واسع وأعد القيصر جيشا من ثمانية وعشرين ألف رجل أعطى قياداته الرئيسية الى القيصر السابق سيميون غراندوق تفير وإيثان موتيسلافسكي ودانييل نوغتييف وآخرين . أما إيثان نفسه فقرر الذهاب الى نوفغورود ولكنه لم يفعل قبل شهر تموز يولييه من عام ١٥٧٩ . وكان كل شيء يرتبط بهجوم مفاجيء على إتيين بغية إخافة الديت البولوني الذي كان أكثر نزوعا الى السلم من الملك . وفي آب أغسطس فتح البولونيون والليتوانيون مرحلة جديدة من الحرب بإلقائهم الحصار على بولوتسك .

وهكذا اخذ الملك إتيين زمام المبادرة . وكان إيثان قد اكتفى بعمليات لا مغزى لها في ليثونيا . وكان لا بد أن يكون لديه ما لا يقل عن مائة ألف رجل بعد إنشاء جيشه الجديد الذي أصبح على الجبهة بحيث يستطيع التقدم بكل ثقة نحو فيلنا أو فارصوفيا ، ولكنه أحب أن ينتظر ليرى ما سيفعله خصمه لكي يرد بعد ذلك . وقد أرسل جيش دعم غير كاف من أجل انقاذ بولوتسك دون أن يتوقع ما كان يتمتع به ملك بولونيا من جراءة ونشاط . وكانت حامية بولوتسك الروسية قد قاتلت بكل بسالة حتى أحرقت المدينة على يد عصابة مقدمة من الهنغارين وتلا ذلك هجوم عام رد فيه المهاجمون وسط النار والدخان . وعلى العكس من سياسة الإرهاب التي كان يتبعها إيثان فإن إتيين عرض على المدافعين أن يمنح الحرية وسلامة الوصول الى الحدود الروسية لكل من يستسلم منهم ، ولكن المدافعين كانوا يعرفون ماذا ينتظرهم من غضب القيصر لو

قبلوا بالاستسلام ، وهكذا انقسمت الاراء . وكان جيش المساعدة الذي ارسله ايثنان سيء القيادة ، وبعد ستة اسابيع من الهجوم الفاشل سقطت بولوتسك بين يدي الملك وعادت الى لتوانيا بعد ان بقيت ثمانية عشر عاما في حيازة الروس . وكان الملك الجديد قد سوغ المصاريف التي ستنفق على مشروعه هذا والأخطار التي يمكن أن تنجم عنه .

وقد دمر في ذلك الوقت معظم جيش المساعدة الذي حوصر في حصن سو كول على يد جيش ليتواني . أما إيثنان الذي شل بهذه الهزائم فقد بقي في بوسكوف من غير عمل دون ان يصدر أوامره بأي هجوم معاكس . وكتب كوربسكي الى القيصر « أين هي انتصاراتك الآن ؟ » ، ولم يجبه ايثنان ، بل على العكس من ذلك اخذ يلتمس الصلح بكل تواضع .

في نهاية العام ضحك الحظ للروس في حملتهم على ليفونيا ، فهانيبال المرهوب الجانب تمت هزيمته وأسر واقتيد الى بوسكوف حيث نفذ فيه حكم الموت . ولكن انتصارات ليفونيا لم تغير مجرى العمليات العام . وعاد إيثنان الى موسكو ورد البولونيون بتبجح على عروضه للصلح طالبين منه التنازل عن نوفغورود وبوسكوف ولوكي والاراضي المتاخمة . وكان الملك إتيين يعاني من بعض المصاعب لأن المرتزقة عنده كانوا يطالبون بدفع أجورهم والخزينة فارغة ، ولكنه كان مقترضا واسع الموارد يستطيع ان يخاتل ويكثر من الوعود ، كان هوسه مهنة الحرب ولم يكن له اي ميل الادارة والسياسة والشؤون المالية . لقد خرج ليسحق قوة إيثنان في الغرب ولن يتوقف قبل ان يحقق هدفه .

واتى عام ١٥٨٠ فلم يكن من الأعوام الكثيرة الحركة . ولكن الملك إتيين خرج على رأس جيشه في نهاية الصيف فاوغل في غزو روسيا حتى وصل الى جنوب نوفغورود وبلغ مدينة فيليكي لوكي الكبيرة التيلقى عليها الحصار . وقصة الحصار هنا تشبه ما حدث في بولوتسك ، فبعد أن استولى على المدينة هزم جيش المساعدة الذي كان يقوده الامير كيلكوف . وفي أثناء العمليات كان مبعوثو القيصر يزحفون بشكل

مثير للشفقة الى اقدام إتيين يستجدون الصلح . وانتزعت مدن روسية أخرى بينما كان السويديون ينتصرون في ليثونيا في كل مكان على الموسكوفيين المحبطين . وأمضى القسم الأكبر من انتصارات إيثان الامبراطورية بسرعة كبيرة بينما كان القيصر يهرم وينحني منه الظهر . فمن يحكم الآن روسيا كان عجوزاً . فهل من علامات السن أنه أصبح أكثر رقة ولم يعد يحمل لقواده ما يشعر به في داخله من استياء ؟ كتب يقول بدون غضب : « ثابروا واتبعوا الطريق الذي حدده الله لكم ، فأملني منصب كله على مساعدة الله وما تبدلونه من حمية وحماسة » .

ولكن القيصر بعد أن تخلى عن زوجته الخامسة والسادسة اتخذ له الآن زوجة سابعة هي ماريانا غايا « أي ماريا العارية » . وكانت ابنة ل أحد كبار موظفي البلاط . ولكن القيصر لم يأخذها الى الهيكل لأنه كان من البديهي وجود صعوبات أمام حصوله على موافقة الكنيسة . وهكذا استطاع مؤرخ هذه الحادثة ان يسمي هذه الزوجة – على هواه – « خليلة القيصر » على الرغم من أن بيتها كان بيت الزوجية . وقد عولمت ماريانا حقاً على أنها زوجة شرعية . أما اصغر أبناء القيصر فقد تزوج هو الآخر وفي الوقت نفسه فتاة اسمها ايرينا هي اخت بوريس غودونوف .

وأما الملك إتيين الذي هتف له في بولونيا على أنه بطل كبير فقد أفاد من وسواس القيصر المرضي . ولم يكن قد هبىء له أن يقاتل ضد روسيا حقيقية مقاتلة ، فقد كان موفدو القيصر يلاحقونه من مكان الى مكان ويتدللون أمامه حتى تمرىف جباههم في الارض . كان بطلاً ، ولكنه كان يمتلك فكرة مهووسة عن رسالته التي لم تكن أقل من إخضاع روسيا كلها والحاقها ببولونيا . وقد أثار تدلل القيصر أطماعه حتى سمح لنفسه بأكثر الادعاءات تجاوزاً وتطرفاً . ولم يكن المرتزقة الهنغارون والالمان الذين يرتبط بهم بشكل رئيسي بقادرين على تأمين النجاح لمخططاته وعندما يفزرو روسيا لا يكون عندئذ في حرب مع إيثان وحده بل مع الشعب الروسي كله ، فعلى الرغم من جبن القيصر وتردده هبت

خيوش جديدة ضخمة للدفاع عن ارض الوطن كما لو أنه كان تحت وطأة غزو تترّي جديد . وقد وصلت هذه القسوات من الجنوب والشرق ويقدرّون أن ثلاثمائة ألف رجل كانوا في عام ١٥٧٨ يمشون الى الغرب لمواجهة العدو وألقى الملك إتيين الحصار على بسكوف حيث اصطدم بمقاومة بطولية دمرت معنويات جيشه الخليلط بسرعة كبيرة ، وهناك لاحظ أن الروس بدفاعهم عن أرضهم يكونون ادعى للخوف منهم عندما يحاربون خارج حدودهم بعشر مرات . واضمحل حلمه الكبير في ضم روسيا الى بولونيا ، ثم فهم أخيراً أن من الحكمة أن يدعم انتصاراته بصلح معقول . وكان الروس قد طردوا من ليتوانيا وليثونيا على السواء ورأى من واجبه أن يكتفي بمنعهم بواسطة معاهدة من أن يقوموا باعتداءات جديدة على هذه الأرض في المستقبل .

كانت تلك أكبر إهانة تحملها القيصر طوال عهده . فهذا الجيش المؤلف من ثلاثمائة ألف رجل من الجنود الطيبين كانت تنقصه روح التلاحم والانضباط ليتمكن من مواجهة ستة وعشرين ألف رجل يكادون أن يكونوا كلهم من المرتزقة . وهكذا خاب المخطط الامبراطوري في دفع الحدود الروسية حتى البلطيق وأصبح خرافة تأجل تحقيقها الى زمن تاريخي لاحق حيث سيقوم بطرس الأكبر بتحريرها وإنعاشها . إلا أنه ترافق مع هذا الاخفاق الكامل في الغرب انتصارات مجيدة تحققت في الشرق ، فعلى الجانب الآخر من القولغا تمكنت حفنة من القوزاق والمتشردين بقيادة إيرماق البطولية أن تحمل لقيصر روسيا لأول مرة أرض سيبيريا ، وبذلك دخلت روسيا الى النصف الشمالي من القارة الاسيوية الذي كان يومذاك خاليا من السكان . وكانت هذه المأثرة قد بدأت بدون إذن من القيصر . والحقيقة أن تاريخ هذا الفتح الأول إنما يرتبط بعهد إيفان أكثر من ارتباطه بسيرة حياته لأنه لم يساهم فيه شخصاً إلا مساهمة لا يكاد يكون لها وزن .

إنها قصة إيرماق البطل الذي قرر أن يتخلى عن حياة التشرد وقطع الطريق ليدخل في خدمة « القيصر الأبيض » . فذهب مع أقل

من ألف من الرجال يكادون أن يكونوا كلهم من القوزاق وأحرز أول انتصاراته في ٢٢ تموز يوليو ١٥٨١ وساعده في عمله مساعدة كبة عدد من التتر ومن الأسرى الليتوانيين والألمان ولكن الجسم الرئيسي من جيشه الصغير كان مؤلفاً من قوزاق الدون . وعندما وصل القيصر خبر أول الاضطرابات على الحدود غضب غضباً شديداً على مسيبي أعمال العنف هذه التي تمت يدون ترخيص منه وأمر باعتقال إيرماق وإرساله إلى بيرم . إلا أن انتصارات القوزاق ما لبثت أن وضعت حداً لاستيائه . ولم يلق هذا الجيش الصغير بعد اجتياز الأورال ببناذقه القديمة ومدافعه إلا مقاومة ضعيفة وهو يستولي باسم القيصر على أراضٍ شديدة الاتساع . وفي السادس والعشرين من تشرين الأول أكتوبر ١٥٨١ وصل إيرماق إلى نهر إيرتيش أو سيبر حيث استولى على غنيمة كبيرة من الذهب والحجارة الكريمة والسجاد والفراء من شعب الأوستياك الذي كان يعيش هناك حتى ذلك الوقت بسلام على الوثنية ويعبد أصناماً من الذهب .

وفي الربيع من عام ١٥٨٢ تابع إيرماق الفتح في الأراضي الواقعة بين الإيرتيش والأوبى متبعاً نحو الشمال مجرى الأول من هذين النهرين . وقد بلغ الأوبى بعد سلسلة من المعارك الصغيرة أمن له التفوق فيها بارود مدافعه . ثم توقف إيرماق عند أوبى وأرسل إلى إيشان تقريراً مرفقاً بهدايا ثمينة تقبلها القيصر وفداً معجباً وسعيداً بأن يشاهد مثل هذه الأراضي الشاسعة تنضم إلى تاجه . وقامت في موسكو الاحتفالات . ولكن جيش الغزو ما لبث أن انسحب بعد موت إيشان وغرق إيرماق نفسه وهو يحاول اجتياز الإيرتيش سباحة وهو بكامل سلاحه ، إلا أن ممراً إلى أعماق آسيا الشمالية كان قد فتح وأصبح مطروحاً وكان الروس يعدون أنفسهم لاقتحامه من جديد .



الفصل الثاني والثلاثون

موت ولي العهد

بالرغم من أن إيفان غدا هادئاً بشكل جلي أثناء تلك السنوات الأخيرة من حياته فإن المرء يخدع إذا تخيل أنه لن يقوم بأحداث تسوغ لقبه « الرهيب » . ففي عام ١٥٧٩ أمر بإحراق الدكتور إيليزوس بوميل على نار هادئة . وكان هذا الدكتور عالماً ماهراً وفلكياً للقيصر قليل الوسائس ولكنه ضابط وهو يقوم باتصال سري مع ملك بولونيا . كان بوميل ألمانيا درس في جامعة كمبردج يهتم بالرياضيات وأستاذاً في « العلم العجيب » . وكانت الملكة إليزابيث قد سجنته بسبب من أعمال السحر ولكن سمعته تسربت من خلال جدران السجن حتى وصلت الى مسامع السفير الروسي سافين الذي حصل له على حريته على شرط أن يذهب الى روسيا ويدخل في خدمة القيصر . ونحن نتساءل اليوم عما إذا كانت النجوم لم تنبئ إيليزوس بوميل عن هذا التغير في حظه العجيب .

وهكذا ذهب الى روسيا مع زوجته الإنكليزية الشابة وغدا فوراً محظي البلاط وواحداً من خلصاء القيصر المقربين واحتل مكانة مساوية لمكانة المعروف التي كانت تحتل الجهة المقابلة للسحر الأسود . ويقال إنه كان يحضر لسيدته سموماً بارعة ، ولكن هذا الادعاء قد يكون مجرد افتراء ساقته الى سمعته أوروبا الغربية . فالقيصر لم تكن له سمعة من يقوم باستعمال السموم في الخصوم لأنه كان يفضل أن يرى الدم بسيل من ضحاياه ، وإنما يمكن الاعتقاد بأن الدكتور كان كاهناً في قضايا الفجور لأنه ما لبث أن اكتسب سمعة سيئة .

وإليك كيف وصف مؤرخو العصر نهاية المنجم الرهيبة :

« قدّم بوميليوس وهو على الحمالة ويدها مشدودتان الى الخلف مخلعتا الاوصال وساقاه منفرجتان ابتداء من وسطه الحقوين وجسده ممزق من ضرب السياط المصنوعة من شرائط الحديد ، قدّم اعترافات كثيرة أكثر مما طلب منه ومما ينبغي للقيصر ان يعلم . وأصدر الإمبراطور أمره بأن ينشوى . فأخذ وربط الى وتد من الخشب وأخذ جسده وظهره الداميان ينضجان حتى ظنّ أنه لم يعد فيه قبس من حياة . ثم رمي به فوق زلاجة واقتيد عبر القصر حتى أوصلوه الى زنزانة حيث مات » .

وفي العام التالي ١٥٨٠ دعا القيصر أكثر رجال الدين أهمية ليعرفهم بالآخطار التي كانت تتهدد الكنيسة الأرثوذكسية نتيجة لغزو جيوش الغرب . وكانت عيناه منذ أمد طويل تتطلعان الى ممتلكات الاديرة وأصبح لديه الآن سبب مقبول للاستيلاء عليها هو ضرورة دفع أجور الجيش الضخم الذي كان قد جنده في وجه الملك إتيين . كان شرهه كبيراً ، ولكنه كان يدعي أن أولئك الذين تخلّوا عن الدنيا لا ينبغي لهم أن يسلموا انفسهم تماماً لمنافع الزراعة والتجارة . وقد وصلت إلينا من أخبار ذلك العصر مجموعة من الخطب التي ألقاها القيصر في هذه المناسبة : « ... يتذمر النبلاء والشعب من أنكم للمحافظة على طبقتكم تمتلكون كل الكنوز التي تقدمها الأرض عن طريق التجارة في جميع أنواع المنتجات قاطعين على الناس عن طريق التجارة غير المشروعة فوائد الأسفار . فعن طريق الامتياز الذي تتمتعون به بالآ تدفعوا أية رسوم جمركية لعرشنا ولا أية ضريبة للحرب ، وعن طريق إرهابكم لضماير الأنبل والأقدر والأفضل من رعايانا حصلتم - وذلك في حساب دقيق - بسحركم وتعازيمكم على ثلث واردات المدن والقرى في المملكة . تشترون وتبيعون نفوس شعبنا وتتمتعون بحياة البطالة في اللذائد والمسرات ورفاهية العيش ، وترتكبون أفظع الخطايا والإبتزازات والمفاسد والفسق . تغطيكم كل أنواع الخطايا الدامية الصارخة وأنواع الظلم والجور والشره

والكسل واللواط وأكثر من ذلك واسوا إذا كان ثمة ما هو أسوأ من مضاجعتكم للحيوانات . الا يمكن أن تكون صلواتكم لا تنفعني ولا تنفع أي فرد من أفراد هذا الشعب ؟... فليسا محنى الله إذا كنت أشارككم فيها ... لقد كنت أميل غالباً الى حلّكم لإصلاح شأن الآلاف من أفراد طبقة النبلاء من الفقراء الذين قدّم لكم أجدادهم القسم الأكبر من مداخيلكم التي هي من حقهم بكل شريعة وقانون ... وشعبي وورعيتي من الأغنياء الذين أفقرتهم بسطوكم ونهبكم وخداعاتكم الشيطانية لكان بإمكانهم أن يكونوا أمة مزدهرة أو كانوا قد تصرفوا بطريقة أخرى . إن دخولكم - عدا ما تمتلكونه من كنوز - تتجاوز كثيراً ما يمكنكم أن تنفقوه على معيشتكم المرفهة المبذرة » .

وتابع القيصر كلامه فأمر الأساقفة - الذين كان رئيسهم في هذا الاجتماع اسمه الكسندر ويحتل منصب مطران نوفغورود - ورؤساء الأديرة وأرشمندريتات ترويتسكي وغيرهم « بأن يحملوا لنا بياناً دقيقاً وأميناً عن مجموع ثروتكم والدخول السنوية لكل بيت فيكم » .

وبعد ذلك دخل إيقان في واحد من تلك النقاشات الدينية التي تسره وترضيه . وكان مستعداً لقضاء الأيام والأسابيع في الجدل حول الروح القدس مع رجال الكنيسة لو أن نواياه كانت جدية . وعلى الرغم من أنه سمح بالاعتراض فإنه لم يكن يتحمّله ولا يرضاه . وقد اختار القيصر يومئذ أشد المعارضين من رؤساء الأديرة وعاقبهم بأن « أرسل يستدعي عشرين من أبرزهم ونسب إليهم جرائم بفيضة مفرعة وأتهمهم بالخيانة بالبينّة والبرهان بحيث بدت التهمة حقيقية ومعلنة ومدانة من جماهير الشعب . ولنصل الآن الى المأساة المسلية التي بذلتم جهدكم في انتظاراتها: أمر الإمبراطور بإخراج دبب كبيرة متوحشة رهيبة كان يحتفظ بها في أقبية واقفاص سود لتسلّيته وتمضية وقته في عيد القديس اسحق في سلوبيدا فيلسكا (الكسندروف) . وجرى الاحتفال في مكان واسع تحيط به جدران مرتفعة . واقتيد حوالي سبعة من الرهبان المتمردين ، ضخاماً وسماناً ، بعضهم بعد بعض ، يحمل كل منهم صليباً ومسبحة

في إحدى يديه ويحمل في الأخرى - بفضل من الإمبراطور - حربة بطول الرجل ليدافع بها عن نفسه . وأطلق دب غاضب فاغراً فاه وهو يزمجر فمزق ثياب الراهب . وانطلق صياح الجمهور وصراخه فجعل الحيوان أشد غضباً . ثم انقض الدب مرة أخرى على الراهب فخدشه بمخالبه وسحق رأسه وجسمه وانتزع منه الأمعاء والرجلين والذراعين كما يفعل هر بفار . ومزق رداءه الكهنوتي مزقاً حتى وصل إلى اللحم والدم والعظم ، وهكذا افترس راهبه الأول . ولكن الدب قتل بدوره ومزق قطعاً على يد المدفعيين . وجاء دور الراهب الثاني والدب الثاني ، وكلاهما طازج جديد ، وهكذا اقتيد كل من الرهبان السبعة بمفرده حتى تم افتراسهم على الطريقة نفسها عدا راهباً أكثر خبثاً من الآخرين تمكن من استعمال حريته بمهارة مسنداً طرفها على الأرض وموجهاً طرفها الآخر إلى صدر الحيوان ، فلما انقض هذا عليها اخترقت صدره ولكن دون أن يمنعه ذلك من افتراس الراهب ، ومات الإثنين في اللحظة نفسها . وقد رفع هذا الراهب إلى مرتبة القديسين على يد الأخوة من الرهبان الذين بقوا على قيد الحياة في دير ترويتسكي . وإذا كانت هذه التسلية ممتعة للإمبراطور وبقية المشاهدين فإنها كانت رهيبة ومقززة في نظر كل الرهبان الذين كانوا قد دعوا إلى هذا الاجتماع كما رأيت ، وكانت النتيجة أن اختير سبعة آخرون منهم ليعاقبوا بالحرق .

فانقصر إذن لم يكن يخشى الكنيسة لأن المتروبوليت لم يكن يتجرا على حرمانه وقد تحداه علناً فيما كان يرتكبه من خطايا . فلا ينبغي الظن أنه كان يخشى غضب رجال الدين الذين يملكون الأراضي والعقارات إذا تعدى على ممتلكاتهم . وهكذا نفذ مشروعه وشاركهم مشاركة جوهرية في أموالهم بحيث غلذ ميزانياته القتالية والشخصية على السواء . والأكثر من ذلك أنه أقنع الكنيسة بأن تتخلى في المستقبل عن اكتساب الملكيات سواء عن طريق الشراء أو طريق الهبات . ولكن هذا التخلى ما لبث أن أصبح حبراً على ورق بعد حين ، فالرجال والنساء كانوا متطيرين فلم يستطيعوا أن ينسوا أن عليهم شراء دخولهم إلى

السماء عن طريق تقديم الهبات الى الكنيسة ، وحتى إيثان نفسه بعد أن قتل ابنه قدّم الكنيسة مبالغ طائلة لم يدفع مثلها في حياته لتقيم صلوات تدوم الى الأبد .

وتلك بديهية مسلم بها من أنك إذا ضربت قريبك فإنما تضرب نفسك . وإليك على ذلك مثال عالي المقام . كان من لحمه ودمه . لم يكن أقرب الى إيثان من ابنه البكر ولي العهد إيثان ثمرة زواجه الغرامي ، هذا الزواج الأول اللذيذ المذاق من أنا ستاسيا ، ذلك الزواج الذي لا يمكن له أن ينساه . ومع ذلك فإنه في حركة طائشة من جنون قاتل أمر بقتله ، وتلك العصا ذات الراس الحديدية التي طالما قتلت العديد من الناس هي التي قتلت وريثه العزيز .

حدث ذلك في الكسندروف خلال الخريف عام ١٥٨١ على أثر نقاش حاد انتهى بإيقاد غضب القيصر . وكان بوريس غودونوف حاضراً . ومن أيضاً ؟ . لا نعرف عن ذلك شيئاً . وقد وصل إلينا خبر هذا النقاش على أشكال مختلفة وربما كان قد ورد في كل كتابة عنه جزء من الحقيقة . والروس ثرثارون . ولا شك أن غودونوف روى الحادث لأصدقائه الذين أعادوه على طريقتهم الخاصة على أسماع الآخرين . ومن المحتمل أنه في صباح يوم الجريمة اختصم القيصر وابنه في موضوع تهجم كان يقوم به القيصر على زوجة ولي العهد . فقد وجد القيصر كنته ترتدي تنورتين بدلاً من ثلاث واعتبر ذلك بعيداً عن الاحتشام . ورغم أنها كانت حاملاً فإن القيصر أخذ في ضربها فكان ذلك سبباً لتدخل ولي العهد . وتبدلت كلمات بذيئة واتهم الابن أباه بأنه كان قد نقص سعادته مع زوجتيه السابقتين وسأله ما إذا كان ينوي ذلك مع زوجته الثالثة . ونحن لا نعتقد بأن القيصر كان حتى تلك الساعة قد ضرب ولده رغم ما أظهره من غلط . ولكن غيظه انفجر بعد ذلك أثناء النهار وربما كان ذلك بعد العشاء . كان القيصر بطريقته المتملقة الشاكية يتباهى أمام ابنه بأهمية كنوزه ويذكر له مدى الثروات الكبيرة التي سيرثها بعد موته وكيف أنه كان سعيداً بأن يترك له كل

شيء . ولكن ولي العهد اخذ يضحك هائزاً مما سمع : « إن شجاعة شبيهة بما يملكه ملك بولونيا هي أكثر نفعاً من أموالك » ، هذا ما قاله لأبيه ، « فأي نفع في الثروة إذا لم تكن من القوة بحيث تستطيع أن تحافظ عليها ؟ » . وطفح غضب القيصر . ونحن لا نعرف جوابه ولكنه كان في تلك الحقبة متأثراً اشد التأثير بما سببه لروسيا من هزائم تستحق الرثاء . كان يعرف ما كان يدور على لسان القوم من دمدمات ، وأن الكثيرين يعتبرونه جباناً . بل وأن بعضهم كان يتساءل أنه طالما كان القيصر شيخاً على إدارة شؤون الحملة فلماذا لم يرسل ابنه ليرفع من جديد شرف روسيا وسمعتها في ميدان النزال .

وسأل إيفان الشاب : « لماذا لا تتركني أقود جيشاً وأستعيد ما فقدناه ؟ » .

وكان السؤال بغضب . يقود جيشاً ، وينتصر ، ويعود ، ويضع نفسه على رأس المستائين ، ويفتال أباه بدون شك أو يجبره على التنازل عن العرش ! . وجعل الغضب والرغبة الدم يصعد إلى عيني الشيخ فرفع عصاه المشؤومة وضرب بها ولي العهد عدة مرات ثم وجه إليه ضربات وحشية على رأسه من طبرتها الثقيلة . وقد حاول بوريس غودونوف الذي شهد الحادث أن يوقف هذا الوايل من الضربات ولكن تدخله لم يكن ذا فائدة إذ سقط ولي العهد ووقف القيصر أمامه وعصاه الدامية في يده مخبولا مما فعل ، وكان ندمه سريعاً كغضبه . وانحنى ليحمل ابنه المسكين والألم يجتاح ثناياه وهو يصرخ : « لقد قتلت ابني ، لقد قتلت ابني ! » ، ويضم الوجه الشاحب الملتحي الذي كان بمسك به بين يديه . وأخيراً حاول أن يوقف النزيف واضعاً إحدى يديه على الجرح العميق دون أن يتمكن من تحقيق ذلك . كان يبكي متضرعاً إلى الله والناس ، يزار بالأنين حتى وصل الأطباء .

لم يكن ثمة أمل في أية مساعدة . كانت جروح إيفان الصغير مميتة . وعندما أفاق قال بصوت خافت إنه يسامح أباه . ولكن السماح الذي

كانت نفس إيفان بحاجة إليه هو أن يعود ابنه الى الحياة وكان هذا بعيد المنال . كان الأطباء عاجزين . وفي التاسع عشر من تشرين الثاني نوفمبر ١٥٨١ توفي ولي العهد . كان القيصر في الحادية والخمسين وابنه في السابعة والعشرين .

في الثاني والعشرين من تشرين الثاني نوفمبر لبس جميع افراد البلاط ثياب الحداد وقدموا في موكب من الكسندروف الى موسكو يحرسون العربة التي تحمل جثمان ولي العهد . وأقيمت له جنازة حافلة . وكان إيفان يقتلع شعر رأسه وينتحب مظهراً من الألم ما لم يظهره منذ موت أناستاسيا . ولكن بعكس ما جرى يومذاك فإنه لم يقفز هذه المرة من الحداد الى الفجور لأن انهياره كان كاملاً . وقد دفع مبالغ طائلة لتخليد ذكرى ابنه أمام الله واعترف أن حياته لم يعد لها هدف وانها أصبحت خواء . وعاد من جديد الى أفكاره في التخلي عن العرش وأصبح له أكثر من اي وقت مضى هيئة رجل فقد الإتران . لم يعد يهتم بملبسه الذي أهمله إهمالاً كاملاً منذ ذلك الوقت ، وصار رجال حاشيته يتجنبوه كما كان يتجنبهم هو نفسه ، وفي كل ليلة كان يسقط من فوق سريره ، وكمن يمشي في نومه كان يطوف في أرجاء القصر كأنه يبحث عن انه المفقود ، وفي الصباح كانوا يجدونه مستلقيا في اي مكان على الأرض كما لو أنه مغمي عليه .

في هذه الحالة العقلية جمع البويار واحاطهم علماً بأنه عازم على التخلي عن العرش لكي يجد راحة النفس في أحد الأديرة . « إن ابني الصغير فيدور لا يصلح للحكم فينبغي استبعاده . فاختراروا لكم قيصرأ ، وعندما يقع اختياركم على أحد ابلغوني كي أتخلي له طواعيه عن صولجاني وتاجي » . إلا أن العرض كان خطراً للغاية . ومهما كانت مشاعر المجتمعين فإنهم توسلوا بصوت واحد الى القيصر الذي منحه الله لهم بأن يبقى على رأسهم حتى نهاية أيامه . وتنهد العاهل ، وكما لو أنه كف عن معارضتهم وعدهم من أجل إرضائهم بأن يتابع إدارته الخيرة فوق رؤوسهم .

الفصل الثالث والثلاثون

موت إيفان

خلال عام ١٥٨٣ سطر القيصر قائمة بأكثر من ثلاثة آلاف شخص من الرجال والنساء هم من كان قتلهم أثناء عهده وأمر بأن تقام من أجلهم الصلوات في دير القديس سيريل في بيلوزيرسكي . وقد كتبت هذه الاسماء كلها بشكل فظ وبأحرف كبيرة ، ولابد أنه قضى وقتاً طويلاً مع سكرتيره أو مرشده ليتذكر هؤلاء الضحايا الأبرياء ، ولابد أنه نسي قسماً منهم أيضاً . وفي رأس القائمة كان يوجد اسم الأميرة ييفدوكيا الذي كتب انى جانبه أنها أغرقت بأمر من القيصر ، وهي نفسها أفروسين والدة فلاديمير أندرييفتش .

ومن الممكن أن إيفان قبل إعداد هذه القائمة كان يحس بقرب أجله ، فقد انتابه انحطاط جسدي سريع سبب له قلقاً كما سببه لأطبائه . أما ماقاله لمرشده وما حصل عليه من تشجيع ديني فهذا ما تجهله . فالدكتور بوميل كان قد قدمه للشيطان . وفي أيامه الأخيرة كان السحر الشاغل لتفكيره حتى أنه عندما كان نيزك يظهر في السماء ويتقدم فوق موسكو كان يناله رعب شديد وقد أحضر إلى البلاط عدد كبير من العرافين الذين لانزال حتى اليوم نجد العديد منهم في شمالي روسيا أي في المكان الذي أرسل إيفان يبحث عنهم فيه .

« وأحضرت منهم بأقصى سرعة ستون عرافاً غلق عليهم ووضعوا تحت الحراسة وصار يؤتى لهم كل يوم بطعامهم ويزارون . وقد قال

هؤلاء العرافون إن أفضل العلامات وأقوى كواكب السماء لم تكن في مصلحة الإمبراطور الذي أخبروا عن نهايته في يوم محدد . . . وانتساب إيثان غضب قوي وقال لهم إنه ربما أحرقهم في ذلك اليوم المذكور . ثم بدأ يتألم من خصيتيه اللتين انتفختا إلى حد كبير .

وكانوا يحملونه في كل يوم على كرسي إلى غرفة الخزانة . وفي أحد الأيام أشار لي الأمير أن أتبعه فمكثت مجازفاً مع الآخرين وسمعتهم يسأل عن بعض الأحجار الكريمة والمجوهرات ويشرح للأمراء والنبلاء المتحلقين حوله قيمة كل منها . . . » . وسمع السير جيروم هورسي كلام القيصر المهوروس وهو يلقي خطابه عن العرافة ويسعى لأن يعرف عن طريق النبوءات ما إذا كان سيعيش ، وكتب بعد ذلك - بمساعدة الدكتور جاكوب بدون شك - ما أمكنه تذكره من هذا الكلام .

قال القيصر : « تعرفون كلكم أن حجر المغنطيس يملك قوة مخبأة كبرى لولاها لما أمكن للبحار أن تكون صالحة للملاحة ولا للحد المحيط بالأرض أن يكون معروفاً . . . ترون هذه القوقعة الجميلة وهذه الفيروزة . ضعوهما في يديكم وعلى ذراعي . لقد سمنني المرض . ترون أن لونهما الجميل غداً شاحباً وهذه دلالة على الموت . أمسكوا بعصاي الملكية . إنها قرن قارن(*) مزيينة بأجمل الألباس والياقوت واللآلئ والزمرد وغيرها من الأحجار الكريمة ذات القيمة العالية . كلفت هذه الحجارة داود ساور سبعين ألفاً من الماركات الإسترلينية عندما اشتراها من أناس في أوسبورغ . ابحثوا عن عناكب ! » .

ورسم القيصر لأطبائه دائرة وضع في وسطها عدة عناكب واحدة بعد أخرى فتلوت كلها وماتت عدا الأخيرة منها . فقال إيثان : « تلك هي علامة أكيدة ، لاشيء يمكنه أن ينقلني » .

* القارن LICORNE حيوان أسطوري له جسم حصان كان القدمون يعتقدون أن له قرناً في وسط الجبين - المترجم -

« انظروا إلى هذه الحجارة الكريمة !. هذه الماسة هي أغلى وأشهر ماسة في الشرق ، ولم أكن استعملها أبداً . إنها تعدل من الغضب والفجور وتجعل المرء زاهداً وعفيفاً . وإذا أخذ أقل جزء منها وأحيل إلى مسحوق ومزج بالماء أمكنه أن يسمم حصاناً فما بالك بإنسان » .

وبإصبعه أشار إلى ياقوته وقال : « أما هذه فإنها تقدم أفضل خير للقلب والعقل وتقوي ذاكرة الإنسان وتنقي الدم المتجلد الفاسد » . وأشار إلى زمردة وقال : « إنها من طبيعة قوس قزح !. فهذه الحجر الثمينة عدوة الفجور والانحراف . جربوها !. فإذا اجتمع رجل وامرأة بغية الفجور انفجرت بسبب الانحراف عن السلوك الطبيعي إنني أشعر بلذة كبرى في النظر إلى اللازورد SAPHIR فهو يحمي ويزيد الشجاعة وأفراح القلب ويرضي كل الحيوي من الحواس . وهو ثمين وناجع لعلاج العين والنظر ويشفي من ضربات الدم ويعطي القوة للمعضلات وأوتارها ... إنها كلها هبات من الله في طبيعتها أسرار تكشفها لفائدة الإنسان وينبغي النظر إليها على أنها صديقة للفضيلة عدوة للرديلة ... إنني أشعر بالإغماء ، إجملوني وإلى موعد لاحق » .

كان الكريملين ينتظر صامتا . فقد تذكر النبلاء والخوف يملأ قلوبهم كيف أنهم كانوا ينتظرون منذ ثلاثين عاما موت القيصر ثم ما لبثت أن ردت إليه الحياة . والفرق أن إيثان كان يومئذ منقاداً للقدر بينما هو اليوم لا يريد الموت . كان مريضا جدا ولكنه لم يكن يعتقد أن وقت المنية قد حان . كانت ارادته القوية وميوله تكافح انهياره الجسدي . وقد عاودته نوباته العصبية وليالي السهاد التي كانت قد أنهكته بعد مقتل ولده . وكانوا ينقلونه خلال الليل إلى خارج القصر ليرى النجمة اللامعة في سماء موسكو حيث كان نظره يبقى ساعات طويلة معلقا بهذا الضياء الرهيب . وبعد ذلك — عندما كانوا يعيدونه إلى سريريه — كان يهذي ويصرخ في شروده مناديا ابنه . كان الجميع حوله في حالة رعب . ولكنه ما أن يطلع النهار حتى يستعيد وعيه ويبقى متمتعا بملكاته العقلية . وكان المنجمون قد توقعوا موته في الثامن عشر من آذار مارس ولكنه لم يصدقهم

بل اخذ يعد العدة لإعدامهم . ولو أنه كان يعتقد بقرب المنية لاستدعى المتروبوليت بدون شك وقص شعره على طريقة الرهبان متخطيا تماما عن زخارف الدنيا . على أنه كان على كل حال منشغلا بما كان السحرة يبذلون من جهود ولا يستطيع أن يهتم بشؤون المملكة . وفي العاشر من آذار مارس تم على طريق موسكو توقيف المبعوثين الليتوانيين الذين قدموا لمناقشة التدابير الجديدة ، وكانت أول إشارة تلقوها هي أن إيثان كان يواجه احتمال موته الجدي لأنه طلب أن يكتب وصية جديدة . وقد استدعى بوريس غودونوف وعددا من كبار النبلاء وأملى أمامهم رغباته الجديدة في تعيين ابنه فيدور خليفة له من بعده . وعين لجنة لمساعدة ابنه وحمايته كانت مؤلفة من الأمراء إيثان شويسكي وإيثان موتيسلافسكي ويورييف وبيليسكي إضافة الى بوريس غودونوف الذي كان يفوق الجميع في كفاءته وشخصيته . ثم شكر البويار والقواد على كل ما قدموه له في حروبه مع التتر والبولونيين .

ويقال إن الجميع صلوا من أجل إيثان حتى أولئك الذين كان معهم كل الحق في أن يكنوا له كل بفضاء ، وصلت موسكو وروسيا كلها من أجل هذا الخاطيء الكبير الذي كان سيدهم ولم يتركوه في لحظاته الأخيرة كما قد يخطر على البال ولا نبذوه وراء حدود التعاطف الانساني . وفي أذهان الجميع تولد شعور بعظمة هذا الروسي المدهش بين الروس الذي قدمه لهم القدر سيدا وملكا .

في السابع عشر من آذار مارس شعر إيثان بتحسن في صحته وأخذ حماما ساخنا . ثم صرح بأنه لم يكن أكثر شجاعة مما هو عليه اليوم وأمر بأن يعدم عرافوه المحتالون في اليوم التالي . ولكنهم أجابوه « يأن النهار ينتهي بغياب الشمس وإن مناظر آذار قد أهلّت ولكنها لم تنقض أيها القيصر بعد » .

كل هذا النهار كان القيصر مغتبطا واستدعى مغنيه وغنى معهم . وفي نحو الساعة السابعة طلب الشطرنج ورجا بوريس غودونوف أن يلعب

معه . وصف بنفسه قطع الشطرنج ولكن الملك من بينها كان يسقط
باستمرار « ولم يكن يستطيع أن يجعله واقفا على رقعة الشطرنج » .
ومع ذلك بدأ في اللعب ، وفجأة أصيب بنوبة .

« كان الامبراطور مرتديا رداء مفتوحا وقميصا وجوارب من نسيج
الكتان . وفجأة أصابه الوهن وانقلب على قفاه . وقام صياح . وتسارع
القوم . بعضهم طلب له خمرا ، وجرى آخر الى العطار يطلب ماء الورد
وماء الزهر . واستدعيت روح ابيه كما استدعي المنجمون . وفي خلال
ذلك أصابه اختناق فقضي فيه نحبه » . ووصل المتروبوليت وباشر فوراً
باجراءات التنازل عن العرش مدشنا حياة رهبانية جديدة ، وقبل جثمان
إيخان في عداد الرهبان وأعطى له اسم يوحنا JEAN . أما فيدور
ذو البنية الضعيفة والذي لم يكن يأمل في أن يكون له خلف من بعده
فقام مقامه على العرش . وغدا غودونوف بموجب طبيعة الاحداث صاحب
السلطة المطلقة على كل الروس وانتهى به الامر لأن يحكم باسمه الشخصي
فيما تلا من الأيام .



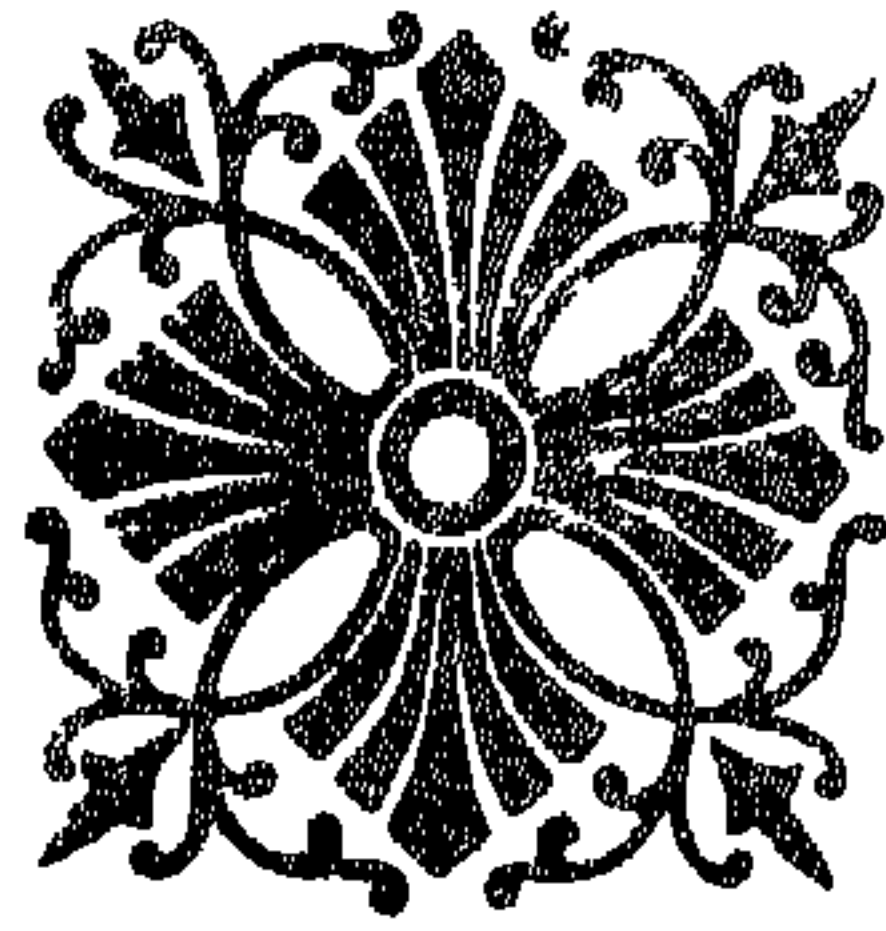
الفهرس

٥	الفصل الأول : الكريملن
١١	الفصل الثاني : هيلانة الليتوانية
٢٣	الفصل الثالث : طفيان آل شويسكي
٣١	الفصل الرابع : ادعاءات فورونتسيف
٣٧	الفصل الخامس : اختيار زوجة
٤٣	الفصل السادس : الحريق الكبير
٥١	الفصل السابع : غضب الله
٦١	الفصل الثامن : إيفان في سن العشرين
٦٧	الفصل التاسع : الكنيسة

٧٥	الفصل العاشر : فتح قازان
٩١	الفصل الحادي عشر : مولد ولي العهد
٩٧	الفصل الثاني عشر : تعميد ثلاثي
١٠٣	الفصل الثالث عشر : مرض القيصر
١١٣	الفصل الرابع عشر : مولد ولي العهد الثاني
١١٩	الفصل الخامس عشر : روسيا تتطلع إلى الغرب
١٢٥	الفصل السادس عشر : هموم وغزوات
١٣١	الفصل السابع عشر : الحرب في ليثوانيا
١٣٩	الفصل الثامن عشر : موت أناستاسيا
١٤٥	الفصل التاسع عشر : نكبة ارداتشيف وسيلفستر
١٥٥	الفصل العشرون : القيصر يصبح أكثر نزوعاً للحرب
١٦١	الفصل الحادي والعشرون : عودة إلى عنف أشد
١٧٣	الفصل الثاني والعشرون : عملية انتقام

	الفصل الثالث والعشرون :
١٨٣	المثروبوليت فيليب
	الفصل الرابع والعشرون :
١٩٣	موت القيصرية الثانية
	الفصل الخامس والعشرون :
١٧٩	الانتقام من نوفمبرود
	الفصل السادس والعشرون :
٢٠٥	نكبة المحظيين
	الفصل السابع والعشرون :
٢١٣	خراب موسكو على يد التتر
	الفصل الثامن والعشرون :
٢٢١	زيجات جديدة للقيصر
	الفصل التاسع والعشرون :
٢٢٥	وفاة سيجسموند أوغست
	الفصل الثلاثون :
٢٣٢	أنا مسجونة في الدير
	الفصل الحادي والثلاثون :
٢٣٨	إيتين ملكاً على بولونيا
	الفصل الثاني والثلاثون :
٢٥٧	موت ولي العهد
	الفصل الثالث والثلاثون :
٢٦٤	موت إيشان

1997/1/10..



طبع في مطابع وزارة الثقافة

دمشق ١٩٩٦

في الاقطار المهيبة ما يبادل
... ل. ص

سحر السخنة داخل الفطر
... ل. ص